

التيه والدلالة
المثقف العربي والفضاء السبراني



أ.د. إسماعيل نوري الربيعي

التيه والدلالة - المثقف العربي والفضاء السبراني
أ.د. إسماعيل نوري الربيعي

2020

التيه والدلالة

المثقف العربي والفضاء السبراني

عنوان الكتاب

التيه والدلالة

المثقف العربي والفضاء السبراني

تأليف

أ.د. إسماعيل نوري الربيعي

الجامعة الاهلية – البحرين

الإخراج الفني والإلكتروني

عمر عادل عباس

الناشر: بيت الحكمة/ بغداد – العراق

بيت الحكمة ـ العراق ـ بغداد ـ باب المعظم ـ ص.ب «٥٣٦٤٠» مكتب بريد الأقصى

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق(٢١١٤) لسنة ٢٠٢٠

E-Mail: baytal_hikma@yahoo.com

Info@baytalhikma.iq



التيه والدلالة

المثقف العربي والفضاء السبراني

أ.د. إسماعيل نوري الربيعي

الجامعة الاهلية - البحرين

٢٠٢٠

(إننا نصنع وسائطنا، لتعود فتصنعنا) ماكلوهان

الفهرست

المقدمة

التيه والدلالة؛ كتاب يعالج مسألة المثقف العربي وهو يعيش أحوال وتفاصيل الثورة المعرفية والرقمية والفضاء الإلكتروني Cyberspace التي يشهدها العالم الراهن. حيث الطوفان المعلوماتي الذي راح يتمايز بجموح يعسر التعاطي معه. معلومات تتقافز وسيل من المعرفة الطافحة، تلك التي راحت تطغى على الواقع حتى أحالته واقعا من التداخل والاشتباك في المعاني والدلالات. فيما تبقى الرغبة متطلعة نحو الوقوف المدقق على الظرف التاريخي والسياسي. ويبقى السؤال حاضرا حول المثقف العربي وهو يعيش أحوال السيل العرم من المعلومات، تلك التي تأتيه من كل صوب وحدب. فيما Google وصنوه من البرمجيات ومحركات البحث والمواقع، يحضرون بوصفهم أسيادا للعالم. حتى انحسرت قيم وتصدرت الواقع مفاهيم وعلاقات لم يكن يفكر بها سابقا. مخاض من التحولات والتغيرات لا تعرف الهدوء أو السكينة، بل أن مرجل الحركة بات يشير إلى اتساع مجال الفجوة بين الأمم والشعوب. على الرغم من الانحسار الذي يشهده عنصر الزمان والمكان، حتى بات العالم طرا يردد عبارة ماكلوهان الشهيرة (العالم وقد أضحى قرية كونية).

قرية كونية نعم بعد أن أضحى الاتصال بأطراف العالم أكثر يسرا وتبسيطا وتسهيلا، وغدا من اليسير أن تسوح وتقرأ وتطالع وتشاهد وتتفرس وتتمعن في التفاصيل الأشد دقة من المدن والقرى والوديان والجبال والمتاحف عبر تطبيق برمجي مجاني. بل أن مكتبتك الشخصية والتي كنت تفاخر بها الناس باعتبار احتوائها على خمسة آلاف كتاب، هي حصيلة الجمع والتنقيب والشراء، أضحت تعاني من الدونية والتقزم بإزاء ملايين الكتب المتاحة على المواقع الإلكترونية وبمختلف لغات العالم، والتي لا تحتاج سوى ضغطة زر على جهازك المحمول ذلك الذي لا يتجاوز حجم الكف البشري. لقد سقط وتداعى التعريف التقليدي للمثقف، القائم على معرفة شيء عن كل شيء، بعد أن تولت محركات البحث العملاقة هذه المهمة، وراحت تحقق النجاحات المذهلة بعد أن سقطت نرجسية المثقف، حتى أنه بات يعتاش على مائدةGoogle العامرة والباذخة.

خلف هذه الصورة المثيرة واللافتة والمشبعة بالكثير من البريق واللمعان، تكمن خلف الأكمة المزيد من التفاصيل الموغلة بالحلكة، لاسيما حين يند السؤال الفكه؟ عن؛ ما ذا لو انقطع بث شبكة الإنترنت؟ ليحيلنا هذا السؤال إلى سؤال أكثر انفتاحا واتساعا، حول؛ من يتحكم بإدارة هذه الشبكة؟ والذي بدوره يقودنا إلى أن زيادة المعرفة تقود إلى زيادة السيطرة والهيمنة.

الفصل الأول من الكتاب يسعى نحو قراءة أوضاع المثقف العربي في عصر التحولات، عبر المبحث الأول الذي توقف مليا عند مفهوم تشظي الدلالة fragmentation of significance حيث محاولة قراءة طريقة تفاعل المثقف العربي في بيئته، عبر استخدام معرفته وعلى مختلف المراحل والحقب التاريخية، حيث المسعى نحو تمييز الدور. إن كان يتمثل في نزوع عام يتطلع نحو خدمة المجتمع، بوصفه حاملا لرسالة وهدف معرفي نبيل. أم مجرد توجه شخصي، يقوم على محاولة استثمار تلك الموهبة في نزوع ذاتي. هل الغاية تقوم على بث روح التجديد وحفز البيئة والمجال الذي يعيش فيه؟ أم هي مجرد رغبة عارمة نحو عقد التحالفات مع القوى المسيطرة، من أجل تحقيق الهيمنة والسطوة والحضور على حساب الجموع.

المبحث الثاني من الفصل الأول يتوقف عند قراءة إدوارد سعيد بتكوينه الثقافي الرصين، وعمق تجربته الإنسانية.حيث استطاع أن يحتل مكانة مرموقة في الفكر الإنساني. عبر تمثله الدقيق للمناهج والنظريات الأدبية الحديثة. حتى قيض له الوقوف على منهجية علمية صارمة، تمكن من خلالها التأسيس لقراءة تقوم على التنوع والاختلاف. بعد أن تطلع نحو تفكيك المسلمات والمقولات الجاهزة، وراح يحفر بعقل الناقد الجذري نحو توسيع أفق القراءة. عقل توجه بكل ما يملك نحو ترصد مسار العلاقة الشائكة والمعقدة التي راحت تتشابك الدلالة فيها ما بين (**المعرفة والأيديولوجيا**). وعبر مسار الترصد المنهجي المدقق كان الوقوف على المعطى المعرفي (الإبستمولوجي) النائي بنفسه عن الحلول الوهمية.

فيما تطلع **المبحث الثالث من الفصل الأول** نحو تفحص دور الطبقة الوسطى العربية، عبر إطلاق سؤال كيف يمكن الوعي بدور الطبقة الوسطى في المجال العربي. هل الأمر ينطوي على توزيعات للشرائح الاجتماعية التي تعيش في نطاق محدد، أم أن الأمر يرتبط بالدور والفاعلية التي تقوم بها هذه الطبقة أو تلك، حيث الارتباط بنمط الإنتاج والعلاقات الكامنة فيه. فالتطلع من قبل جلّ الشرائح الاجتماعية بقى يدور في فلك السلطة، باعتبار الرعاية الصادر أصلا من عمليات التوزيع المرتبط بنمط الإنتاج الريعي، وليس العمليات القائمة على العمل المنتج. المبحث الرابع من الفصل الأول تطلع نحو قراءة في العقلانية الألمانية عبر فكر ماكس فيبر الذي وصف علم الاجتماع، بوصفه المسعى نحو فهم الفعل الاجتماعي من خلال دراسة السلوك البشري الفردي، عبر ربطه بالمعنى. حيث التركيز على دراسة الأهداف المقاصد التي توجه ذلك السلوك، وتجعل منه فعلا اجتماعيا.

الفصل الثاني يركز على قراءة السبرانية والثورة الرقمية عبر **المبحث الأول** الذي توقف عند قراءة الإنسان الرقمي وشراك الشبكة العنكبوتية، حيث إطلاق الأسئلة حول ما الذي حلّ بالحياة التي نعيش؟! ماذا يدور من حولنا؟ كيف يمكن لنا أن نعيش وسط هذا اللهاث من التسارع الذي راح يطال نمط الحياة. فيما تحضر الأسئلة الأهم تلك المتعلقة بطريقة التعاطي مع التقانة الرقمية، وما الذي أضافته على الممارسة الاجتماعية. الجميع صار يسمع عن المكتب الافتراضي والإدارة قليلة التكلفة، والتمكين والحوكمة والإدارة الرشيدة. فيما الواقع يكشف عن نمط العلاقات الراكدة، لاسيما في مجتمعات التلقي، النائية بنفسها عن فعالية الإنتاج، والمنغمسة حد الإفراط في استهلاك التقانة الرقمية، وجعلها ماراثون في هدر الوقت والترفيه والتسلية.

فيما تطلع **المبحث الثاني من الفصل الثاني** نحو قراءة مفهوم الشفافية لاسيما بعد أزمة وثائق ويكلكس WIKILEAKS. فبعد الواقعة الويكيلكسية بات العالم اليوم تحت وقع

صدمة الوثيقة، تلك التي اتخذت معنى مستقلا، هذا بحساب قوة الحضور في مجال التغيير للمعنى والوصف والتصوير. لقد احتفظت الوثيقة ومنذ لحظة اختراع الكتابة ودخول الإنسان بالعصور التاريخية، بدلالة تقارب القداسة، نعم يشهد التاريخ البشري على تسريب المزيد من الوثائق ذات الأهمية القصوى، لكن كشفا بهذه السرعة والمجانية والمباشرة والتشهير والانفضاح والعلنية، لا ينجم عنه سوى محاصرة الوثيقة، ودمغها **بالرمزية الناقصة، بعد** أن تم الإطاحة بمكانتها العزيزة والأثيرة، وتبديد هيبتها على منبر المواقع الإلكترونية. **المبحث الثالث من الفصل الثاني** حاول رصد موقع العرب من حضارة الموجة الثالثة "الثورة التكنولوجية"، باعتبار ان المراحل الحضارية التي سارت فيها البشرية وعبر تاريخها الطويل، قد شهدت الانتقال من الحضارة الزراعية فالصناعة التي ظهرت في أعقاب نهاية العصور الوسطى في أوربا. فالحضارة الحالية التي جهد فيها المحللون والمنظرون في وضع التوصيفات، ونحت المصطلحات الخاصة بها. فهي تارة "حضارة الموجة الثالثة" حسب تعبير عالم المستقبليات الأمريكي، ألفن تولفر. فيما يعد زبيغينو بريجنسكي بوصفها بالحضارة التكنترونية، وهو اصطلاح للتعبير عن المزاوجة بين التقانة والإلكترونات.

الفصل الثالث ركز على قراءة الإعلام في الفضاء السبراني من خلال **المبحث الأول** الذي توقف عند قراءة الخطاب الإعلامي العربي باعتبار ما يحظى به من أهمية استثنائية من لدن الدارسين والباحثين، حيث المسعى نحو فرز المضامين والمقومات والتغيرات التي ترافق الممارسة الإعلامية. سعيا نحو فك الالتباس في الخطاب والتوجه نحو ترصد موقع الخطاب في الاتصال، من حيث التوجهات الساعية نحو صياغة الخبر والتأثير في المتلقي. ومن هذا برزت العديد من المدارس والاتجاهات النظرية الساعية نحو قراءة الخطاب الإعلامي والبحث في المرتكزات التي يقوم عليها. فكان المنهج اللغوي الاجتماعي الذي اعتمد التحليل الثقافي في دراسة اللغة الإعلامية وتأثرها بالتغيرات التي تطال السياق الاجتماعي.

المبحث الثاني من الفصل الثالث توقف عند الصحافة وما يكشفه الواقع عن الجملة من المشكلات التي راح يواجهها قطاع الصحافة الورقية، لاسيما على صعيد الانخفاض الملفت في دخل الإعلانات، إلى الحد الذي باتت فيه الأحوال تشير إلى احتمال نهاية عصر الصحيفة المطبوعة، بإزاء

الطبعة الالكترونية المجانية، السهلة المنال. إنها أوضاع البحث عن المستخدم الجديد، في ظل التنافس والتزاحم الصادر عن المؤسسات الإعلامية. وسعيها المحموم نحو الحضور والتأثير وممارسة الدور المناط بها. فيما تبقى ملاحظة جديرة بالاعتبار، تلك التي تقوم على أن الظاهرة لم تتضح معالمها ولا سمتها النهائية، فهي مازالت تعيش تفاعلات الاحتمالات المفتوحة.

المبحث الثالث من الفصل الثالث تناول منهجية تحليل المضمون باعتبار تراكم المادة الإعلامية خلال أوائل القرن العشرين، وتوسع مجالات الاتصالات، أثرها البالغ في التطلع نحو ظهور هذه التقنية المنهجية. إذ لم يعد مجدياً أمام هذا الزحف الهائل من المادة الصحفية المقروءة والمسموعة، أن تكون طريقة الوقوف على معطياتها، من خلال الحصافة والذكاء. فالأمر لم يكن محاولة لمواجهة حالة طارئة، أو ترفاً منهجياً يحاول البعض من أصحاب الكفاءات إثبات قدراتهم وألمعيتهم فيه، بقدر ما كان محاولة للتواصل مع "حقل" أثبت أهمية وفاعلية في توجيه الحشود والتأثير على الجماهير.

حاول **الفصل الرابع** دراسة موضوع الرحلة والهجرة في الفضاء السبراني، حيث ركز **المبحث الأول** على قراءة الرحلة وأثر التحولات الرقمية والمعرفية عليها، حيث عصر الأساطير البديلة، والهيمنة المطلقة التي تفرضها وسائل الإعلام الرقمية، تلك التي تحيل الواقع إلى شيء فوق الواقعي، حيث التشظي في أقصاه. هو المسعى نحو إنتاج المزيد من العلامات، تلك التي تحضر من دون جذور أو أصول، نموذج السوبر مان الذي جاء من كوكب الكريبتون الوهمي، والسبايدر مان الذي هجن من لسعة عنكبوت، وحكاية الرجل الصخري والمطاط ورجل النار وتحولاتهم التي جاءت في أعقاب مصادفة فضائية، ولا ضير من تقديم صورة البطل الذي لا يقهر عبر رامبو، ذلك الذي حمل بشفرات أيديولوجية موجهة للعدو التقليدي. لكن الأمر هنا يتخطى الرحلة الهوليودية ونماذجها التي تستهدف العقول عبر صناعة النموذج الخارق. الأمر هنا يتوسع لتتحول الرحلة إلى تهجين الكائن البشري، عبر سجنه في إطار محيطه الافتراضي، وهذا ما يتبدى في الرحلة التي يخوضها المراهقون والبالغون أحيانا في سلسلة ألعاب الفيديو، ومتاهاتها التي لا تعرف التوقف أو الانقطاع.

المبحث الثاني من الفصل الرابع سعى نحو قراءة فرضية الاندماج المشروط التي قدمها الأكاديمي العربي حميد الهاشمي ونالت اعترافا من قبل المؤسسة الأكاديمية البريطانية، عبر التوجه نحو اختبار فرضية الهاشمي من خلال مقولة المعرفة الضمنية Tacit Knowledge لميشيل فوكو والقائمة على أن طرفي العلاقة؛ المهاجر والبلد المضيف، يمتلك كل منهما ممارساته الخاصة، وطريقة تعاطيه مع القضايا التي تمس التفاصيل المتعلقة بحياته. إنه ركام الخبرات والمعرفة التي تميز طرفا بإزاء آخر. معرفة لا يمكن تمييز ملامحها، بقدر ما هي مخبوءة، لا يمكن تحديدها؛ لأنها مستمدة من المعارف الخاصة التي تنشأ عليها الجماعة. هي تجربة الفرد المهاجر الذي يأتي بكل تجربته الشخصية.

العالم متوحشاً

كيف يمكن الدخول في العالم؟ سؤال طالما شغل العقل العربي، وأخذ منه الجهد والوقت ومساحات التدبير والتفكير. فهم وعلى الرغم من كل ما بذلوه من أعمال وخطوات، إلا أن النتيجة تبقى على حالها القديم، من انقطاع وتراجع وانكسار وحتى ركود فعاليات. جربوا كل شيء، بدءا بالتفصيلات مرورا بالكلي والعام والشامل. تنادوا بالحداثة ورفعوا العقيرة حول أهمية المعاصرة. ووجهوا عنايتهم نحو التراث. وحاولوا تقديم انشغالاتهم بالسياسة والاقتصاد والثقافة والمجتمع، وما ترددوا عن الأخذ من التجارب المختلفة، والحرص على الفهم والاستيعاب.

لكن الجميع من دون استثناء، يقطع الأشواط نحو الأمام، يعيش التحوّل ويحقق الذات الفاعلة، المتطلّعة إلى مزيد من الانتقالات من خلال الوعي العميق بالواقع. ومن هذه الفواصل يعود العرب ليسألوا عن الأسس والملامح، التي تكون بمثابة الحافز الواثق نحو الأمل بالتغيير. وهكذا يتساءل المراقب من الخارج عن الدوافع الداخلية لهذه الأمة، التي لا يعوزها شيء ولا تشكو من علة مستحكمة تكون بمثابة المانع الذي يحرمها من ابتداء الخطوات نحو الأمل المنشود.

ماذا يعوز العرب؟ الإمكانات، الموارد، المكان، التاريخ، الرجال، القدرات الخلاّقة، الإرادة، الوعي، القيم؟... وهل يمكن الوقوف على وصفة جاهزة يتم من خلالها الخروج من هذا النفق

المعتم، الذي بات من خلاله يُصار إلى تلّقف نقاط الضوء الشحيحة، والإيمان بها بوصفها الأمل والغاية المنشودة.في ظل تناسل الأسئلة المقطوعة والاحترازات المفاجئة.غدا الواقع العربي ساحة اختبار للأفكار والمعالجات السريعة، والتي تطلب الحلول بذات السرعة، من الاستناد إلى التروّي والحكمة والأناة والصبر الذي يزدهي بها قاموس الحكمة العربي، بمطوّلات وإسهابات تراثية تثير الالفات.

في لعبة الأهم والمهم ساد التصوّر إلى أهمية الاقتصاد، فتم إهمال القطاعات الأخرى. وفي مرحلة لاحقة صار التلقف نحو العامل الثقافي، فغيّبت مساحة الاهتمام بالمجالات الثانية. ومن هذه المتوالية التي لا تعرف الانقطاع، تبرز حالة التعلق الشديد والتي يسودها الإحباط والأسى الشديد، عندما يبرز التعطّل في إحدى المجالات التي عُقد عليها الأمل. وعبر هذا الانقطاع والاستمرار، يكون الخاسر الأكبر في ظل هذا مجال التنمية العربية، الذي ظل يعاني من تراتبيات السياسة وفواصلها وطريقة العزل والتهميش الذي مارسته بإزاء المتقاطعين معها في الاتجاهات. وتبديد الجهد الاقتصادي الذي ضاعت فيه الموارد والإمكانات والطاقات في خضم الروتين والبيروقراطية وتسللات الهرم الوظيفي، وانعدام الانضباط والمسؤولية.لتكون النتيجة غياب لحظة الالتحام مع الواقع، وإنتاج المزيد من العزل الذي يودي بالرؤى والتصورات في ظلامية الانضواء والانخراط المباشر في التنفيذ.

الروليت الروسي

يقف الفرد العربي خائفاً مرتعداً، متردداً يغطيه القلق من رأسهِ حتى أخمص قدميه عندما يكون الاقتراب من الثالوث المحرم بحسب توصيف بو علي ياسين (**الجنس، السياسة، الدين**). ومن هذا الرعب الذي خلقته الأجهزة الرسمية، أضحى الأمر معبرا نحو الحقيقة الاجتماعية. ليتشكل معنى الرقيب الداخلي في صميم الذات العربية. والتي بات صاحبها يخشى على نفسه من مجرد الاقتراب من نزوة التفكير فيها. وإذا كان العاملان؛ الجنس والدين، يرتبطان بالمعنى الاجتماعي ومدركات حدود التعبير الذاتي، الذي يندغم في مجال الممارسة اليومية والتعايش مع الآخرين. فإن العامل السياسي يمثل قطاع الرعب الأكبر، هذا باعتبار المباشرة مع السلطة الأكبر ذات الخطوة والقوة المفرطة، والتي يمكنها أن تمارس على المرء لعبة الروليت الروسي، بحيث تبقى لا تعرف من أي حجرة في المسدس ستخرج عليك الاطلاقة القاتلة.

من هذه السمعة المفرطة بالسوء، تكون علاقة الفرد العربي بالسياسة، وعلى مدى تاريخ طويل يكون الكشف عن مدركات من التوصيفات التي بات من الصعب الخلاص منها، أو حتى التغافل عنها. وهكذا تبدأ القائمة؛بالتسلّط والإذلال والقهر والهيمنة والسيطرة والروع والقمع والإرهاب والتعذيب والسجن والإجبار والإكراه. ومرادفات طويلة لا يعجز قاموس الشتائم العربي من الإتيان بها وتدبيجها في هذه العلاقة المركبة.

لا ينطوي الأمر على مزحة خفيفة الدم أم ثقيلته، حول العلاقة القائمة بين السلطة العليا والاتجاه نحو ووضع المعالجات والحلول.فالتفكير يأتي لاحقا نحو معالجة مشكلة. ولم يظهر ولو لمرة واحدة الاتجاه نحو التخطيط وتحديد الاتجاهات. إنها ثقافة الأزمة التي تستشري وتستفحل وتضج الشكوى وترتفع الأصوات المنادية بالحلول، لتكون ردة الفعل حول استدعاء الكفاءات والخبرات والعمل على تجهيز التخصيص المالي لوضع الحلول والخلاص من هذا الإشكال الطارئ. ومن طارئ إلى طارئ يكون التبديد للجهود التي تكون في دوامة من العمل المتوجه إلى إصلاح ما يمكن إصلاحه،

حتى لتغيب المعالجات الجذرية والتي تستدعي الوقوف العميق المتأمل الساعي إلى رسم الصورة العامة الشاملة للأوطان.

السلطة السياسية وبكل ما تملكه من إمكانات تقوم باستدعاء الاقتصادي لوضع المعالجة المباشرة وهكذا دواليك مع أي متخصص في مجاله. وكأن الأمر يتعلق بأزمة قطاعات منفصلة. في حين أن الواقع يفترض حالة التفاعل العام والشامل لمختلف القطاعات، والعمل كوحدة واحدة من أجل النهوض نحو تحقيق الغايات والأهداف. فالوصفة لا تقوم على السياسي لوحده، ولا على الاقتصادي أو الثقافي، بل أن الأمر يستدعي التكامل المستند إلى الفعل الحر.

الخوف على الذات

التوقف الطويل عند النموذج التقليدي للسياسة، يعمل على تعطيل الإمكانات لدى العرب كأمة لها تاريخها ودورها وممارستها الضاجة والحافلة بالمشاركات المتنوعة.أمة حيّة لها أصولها وتراثها وتفاعلاتها الحضارية وإسهاماتها التي لا يمكن أن تغيب.لكن الاندراج الوظيفي في المعلم الواحد والوعي المحدد الذي لا يقبل الزحزحة أو الحركة، يكون بمثابة الإثقال الذي يشق على الفهم.بل أن تغذية سوء الفهم تكون الحاضر الأهم والفاعل الأشد تأثيرا في التوجيه وتحديد المسار نحو رفض هذا والإقبال على ذاك.

وفي خضم كل هذه التداعيات، وجد العرب أنفسهم في ظل الأدلجة الشاملة والعامة للتيارات والاتجاهات، التي تصارعت في مواطنها الأصلية، وجاءت إليهم جاهزة حاضرة، ليتم الاعتماد عليها كسلاح في مواجهة الآخر. فبشرط الاستعمار الأوربي المباشر الذي عمد إلى تصنيع الدولة القطرية العربية الحديثة، تطلعت القوى الوطنية نحو القبض على الفكر البديل وتحميله ما لا يطيق، من أجل تطبيقه في مجال آخر لا يمت بصلة إلى الواقع الأصلي.

اتجاهات الميل المعارض في صلب العملية السياسية، جعلت من الوعي الصميم بالسياسة ووظيفتها الأساسية أمرا بالغ التعقيد والصعوبة. فما بين الاتهام والشحن الدعائي واللعب على

الحقائق وسيادة مبدأ التبرير، تكون الحقيقة هي الخاسر الأكبر وسط هذا التداخل المقيم الذي لا يقبل الاستكانة أو الخمود. فكيف يمكن لأمة أن توجه السياسة بمفاهيمها وتوجهاتها من حال إلى آخر، من رسوخ معنوي ووظائفي إلى مجال أكثر رحابة واتساع، تقوده في ذلك الرغبة الصادقة والأكيدة نحو التغيير. انه الانتقال من نموذج التوقير إلى مجال التدبير، والعمل على تفادي الانشغالات بالموجات الكبرى والملفتة، وأهمية الحرص والتأني في القراءة الواعية للإمكانات والتدقيق في الأولويات التي تستدعيها فروض الواقع والعلاقات والتحولات والتطورات.

بين الخوف على الذات والطموح إلى الفعل، يقف العرب معطّلين يعانون من هيمنة القرار من الأعلى وتحديدا السلطة السياسية، والتي تعمد إلى تدبيج خطوات تفاعل القطاعات الأخرى مع العالم. ولا يقف الأمر على مجال الأنشطة الاقتصادية، إذا ما أخذ مجال الاستثمار وتوظيف الأموال وتعميق مجال التبادل في الميزان التجاري والنشاط المالي والمصرفي. بل أن الأمر يشمل القطاع الثقافي إلى الحد الذي يعمد فيه الرقيب الرسمي إلى منع مطبوع ثقافي أو محطة تلفزيونية أو حتى مقالة صحفية. إنها الهشاشة في أقصاها عندما يتركز الخوف حد الارتعاب في هذا الجسد الكبير والمدعو (سلطة سياسية) من صورة تلفزيونية أو ورقة مطبوعة. وفي خضم كل هذا الخوف والارتعاد، يسألونك عن النهوض والتحول.

تعطيل الإنجاز

إن نظرة عميقة متفحّصة في أحوال العرب الراهنة، تكشف عن هذا التداخل المريب من التناقضات، حتى ليتبدّى الحال في أطوار وتشكلات متناثرة متباعدة من الميول والرغبات والأهواء والاتجاهات. وفي كل هذا يكون الحماس وفوران الدم السخين الحاضر الأكبر، إذ لا مجال للحدود الوسطى. بل أن القرارات والانتماءات القصوى تفرض بنفسها على كل شيء، حتى ليتصادم الحداثي بالتقليدي، والليبرالي بالاشتراكي، والإسلامي بالعلماني. فيما يكون الدخول في العالم غائبا؛ لأن الاهتمام منصب نحو جذب العالم.

عبر هذا المعطى يكون الفقد في أقصاه، كون التردد يكون الحاضر الأكبر في نهج أية خطوة إلى أمام، فيما يتم تعطيل الإجراءات المتعلقة بالإنشاء والإنجاز، الذي يمكن أن يفضي إلى تبلور اتجاهات ورؤى وتصورات، يكون من شأنها الارتقاء بالواقع.فالإنتاج عالق في غياهب العلاقات القديمة وتوزيعات مراكز القوى، التي تعمد إلى إيقاف كل شيء من أجل الإبقاء على مصالحها. وحتى الخطوات التي بدرت من بعض الجهات هنا أو هناك، من أجل الارتقاء بواقع الإنتاج، فإن الملمح كان يتوقف عند معطيات الازدهار الكاذب، الذي يوجه جهوده نحو المظاهر السطحية المتعلقة بالجانب الاستهلاكي والإمعان في توجيه الطاقات نحو تكريس مجال قطاع الخدمات، وتحديد اتجاهات النظر الواسع.

هي النظرة الجامدة التي تفرض اتجاهات الحذر والخشية والخوف من هذا الجديد، الذي جاء يهدد البناء الاجتماعي ويعمل على تقويض مرتكزات البناء فينا.فالهوية والتراث والأصول أصبحت مصدر خوف وارتياب من كل سعي نحو الجديد. فيما يبادر الآخرون نحو تعزيز مكانتهم في صلب الفعاليات العالمية، من دون الاستحكام لعقد الاستعمار وأخطار العولمة والخشية من الزحف والتسلل الذي جاء يهز أركان البيت.

المرونة في التفكير، في العمل، في التخطيط، في العلاقة مع الآخر.يكمن فيها مفتاح الخلاص من هذا الوهن العالق بتلابيب القوة المفترضة، التي نقولها من دون الإحساس بها، ويتم جلدنا بها من دون أن نشعر باندفاعها نحو تغيير الواقع الذي نعيش في كنفه. ومن أين يكون لوجودنا معنى في هذا العالم المتزاحم نحو الجديد، فيما ننقسم نحن إلى مجالين متباعدين؛ سلطة أمسكت بزمام السياسة وجعلت منها الأداة الطيّعة في ترتيب وتبويب الأهميات. ومجتمع تحمّل جريرة السياسة ليتم من خلال هذا تعطيل الأنشطة والفعاليات للقطاعات الرئيسة في داخله، من اقتصاد وثقافة. ولعل المفجع والمثير للقلق حين يعمد العرب إلى طرح السؤال مجدداً؛ من أين نبدأ؟ هذا بحساب تحولات العالم وتبدلاته التي لا تعرف الانقطاع أو النهاية.

بحثاً عن نموذج

في الوقت الذي قيض للغرب من فرض هيمنته على العالم، ساد التصوّر إلى حد الشمول بأن هذا النموذج هو الأجدر بالنهل عنه وتوجيه الأنظار نحوه. وعبر فترة زمنية طويلة ترسخت هذه النظرة حتى غدت يقينا راسخا لا يمكن الحياد عنه أو تجاهله. ومن هنا كان التطلّع الحثيث نحو تقليد هذا النموذج لاسيما في المجال السياسي، والذي كان للغرب الدور الواضح في تكريسه والإعلان عنه والترويج له. ومن الجاهزية والتكامل الذي ظهرت عليه التجربة الغربية، صار الأمر وكأنه من المسلّمات والبديهيات أن يكون النزوع نحو التقليد والأخذ المباشر إلى حد التركيز في التفصيلات الدقيقة المتعلقة بهذا المجتمع. ولم يقف الأمر عند مجال الانفتاح الواسع والشامل، بل تخطّاه نحو تمثّل المقولات والمفاهيم والتفسيرات المنتجة في منظومة العقل والحضارة الغربية، والعمل على جعلها في صلب المنظومة المعرفية والحضارية العربية.

الواقع أن تركيز النظر هذا لم يكن حكرا على العرب، بل أن الكثير من الأمم والشعوب، جعلت من الغرب أيقونتها المقدسة، وتعويذتها للعبور من مرحلة التخلف إلى مرحلة التقدم.هذا بحساب محاولة السير على ذات النهج والأسباب والمقدمات، التي جعلت من هذا النموذج أن يصل إلى هذا المستوى من الأوج المعرفي والازدهار المعيشي. لقد تركزت خطوط الوصفة الجاهزة والحاملة

لأسرار وبواطن الانتقال من حال إلى حال. لكن هذا الشمول لم يعد من الممكن الإيمان به بالشكل المطلق الذي كان عليه قبل عقد من الزمان في أبعد تقدير.

إذ تفرض التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، الكثير من إنتاج رؤى وتصورات جديدة، يكون قوامها استنادا إلى استلهام الواقع وطبيعة التحولات الناشئة والتي تفرض قسمات وملامح أخرى تكون مشرعة بآفاقها نحو استجلاء قواعد معرفية جديدة قوامها الإحساس العميق بالتحولات الاجتماعية الداخلية، والتعامل الدقيق المستند إلى الحذق المعرفي وتراكم الخبرات في تحديد الموقف من الرؤى المتعلقة بالنموذج الغربي، حيث التطلع نحو تأسيس تصورات خاصة تحمل بين طياتها الفرادة والخصوصية. الأمر هنا لا يتعلق بهاجس البحث عن بديل، أو التفكر في مجال آخر مستنده الخروج عن بيت الطاعة الذي فرضه النموذج الأوحد. بقدر ما يكون هذا التوجّه مستمداً من طبيعة التطوّر الداخلي وخصائص البناء، الذي أثمر عن إحداث تجليات ومعابر فكرية، كان لا بد لها أن تحقق هذا الحضور، والذي صار يتسلل ليعبر عن نفسه في أكثر من حقل ومجال.فخيبة الأمل بلغت مداها من هذا الاجترار المقيم الذي تلبّس الواقع، حتى صار لازباً التحرك نحو التفكير الجدّي بالبحث عن النموذج.

من المطلق إلى النسبي

في لحظة جرح كبرياء المعرفة المطلقة، يكون التخفيف من أحمال هذا العبء الثقيل الراكد على الصدر، حتى لم يعد من فسحة لاستعادة الانغماس والتفكير بكل هذا الكم الذي أخذ مكانه وأستقر وكأنه الحقيقة التي لا يمكن العبث معها، أو حتى الاقتراب من قداستها. في ظل استحكام الأفكار التي ولدها المجال الآخر، تكون لحظة استنبات مواضع أخرى ومكامن وعي آخر بمثابة الضرورة العقلية، والتي تجعل من هذا المتصدر والمتسيّد على الواقع، عرضة للنقد والتشريح وإمكانية الإمساك بملامح الخلل فيه. فالحداثة الغربية تبقى ومهما بلغت من رقيّ وتطور مجرد تجربة إنسانية تتحرك في صلب المعرفة التاريخية. وعلى هذا فإنها تكون قابلة لاهتزاز أركانها الكامنة

في الظواهر الكبرى، هذا إذا ما برزت للعمل اتجاهات البحث في الظواهر الاجتماعية الصغرى والمتعلقة بهذا الداخل وكينونته وصلبه وصميمه.

إن الإدراك الواعي بأهمية التنوع وضرورة الغور العميق في التفصيلات، لم يكن ليمنع بروز بعض الأعراض المتعلقة بالرؤى المتسرعة، إذ يكون الحماس دافعا وموجها شديد الأثر في تعميق الحدة والقطع الصارم حول اللفظ والانفاء لكل متعلقات الماضي. وفي ظل هذه الزحمة من التطلّعات نحو النقد والتفكيك، صارت الحداثة وكأنها الرأس المطلوب من قبل الجميع، بدءاً من الغربيين ذاتهم الذين لم تجف قريحتهم من إنتاج تيار ما بعد الحداثة، مرورا بالمجتمعات الطرفية، التي أنهكها الحلم المُضيّع وصارت في ظل النسبي تأمل وبحماس شديد وبالغ نحو تركيز الجهود، والحث من أجل التغيير برؤى أخرى.

لكن هذا الحثّ لم يكن ليخلُ من معالم البتر والصرامة، التي لا تستوعبها مدركات المعرفة وإجراءاتها المنهجية وأنساقها الفكرية. فالأمر لا يتوقف عند الإيغال في طقسية رجم صنم الحداثة، والتغنّي بلذَّة التيار النقدي. وإذا ما أُريد الفصل والتحديد في مقومات المعرفي ومراحل التطور فيه والرؤى السياسية التي يحملها مكنون الحداثة. فإن الخلط سرعان ما يتبدّى في هذا القطع المتسرّع الذي ينحى إلى تلبس المفاهيم السابقة التي اعتورت موضوع النقد، ليصبح الناقد منقوداً هو الآخر. فالتحقيب والتمرحل والنمو لا بد أن يغلّف الظاهرة، حيث الوعي العميق بالظروف التي أنتجتها وجعلت منها فاردة بقوامها واضحة القسمات. فيما تبرز دلالة الإحساس العميق بأن ما تثمر عنه التجربة الخاصة من مضامين، لا يمكن أن يكون حكرا على المنتج الأصلي لهذه المضامين، فمن دون التأثر والتأثير والتلاقح الحضاري لا يمكن للأفكار أن تنمو وتتبلور.

حرق المراحل

إن القول بتوطين الأفكار خرافة لا يمكن الاستناد إلى مفرداتها، فالمعرفة نتاج موضوعي يقود الشمول الإنساني إلى هذا الانتساب الحر غير القابل للانتماء والتحديد. وإذا ما تحصّل الغرب على إنضاج الحداثة وتقديمها الى المجتمعات بوصفها نتاج خاص.فإن التفحّص في ثنايا التفصيلات

يكشف لنا عن جملة من الظروف التي أنتجت هذا النموذج، حيث التلاقح في أشده، عندما تندرج الفعاليات الإنسانية في المجمل التاريخي الذي يقود البشرية إلى مراحل وعيها. وإذا كان البعض يجتهد ويحث كل شيء من أجل التحقق من نسابية النموذج، فإن الأمر سرعان ما يكشف عن التداعي، عندما يتم تحقيق التفصيلات المتعلقة به في نطاق مكاني آخر.

ليس من المغالطة التاريخية في شيء، إذا ما تم تثبيت فكرة التفاعل المعرفي بين المجتمعات المختلفة.فما أنتجه اليونان تلقفه الرومان، وما ظهر على يد العرب أمسك بزمامه الأوربيون. وهكذا يختلط المشهد عندما تظهر تداعيات التمركز على الملامح الرئيسة لدى الغالب، الذي يتسيّد المبادرة وصناعة الموقف. والذي تستتبعه اتجاهات الميل نحو حفز الإمكانات والاتجاهات وحشدها في حقيبة المصالح الواسعة. وفي هذا تنضج قواعد الفعل السياسي الذي يكون الانشداد فيه متطلعا وبكثافة نحو توطيد الملامح وتكريس القواعد ذاتها في سبيل بلوغ المصالح. وتحت ظل هذه الاتجاهات تكون الثقافة واقعة في هذا الإسار من التقنين والاتباع والولوج في مدارات التقليد وغياب التجديد.

ومهما كان الاختلاف واضحاً وحاضراً في تفصيلات الأنظمة السياسية، فإن الاشتراك في القواعد يكون الحاضر الأهم، حيث الحفز والحث نحو التركيز والبحث في مجالات الإبقاء على النظام السياسي وإطالة بقائه واستمرارية فعالياته. حتى ليكون الحال وكأنه إرث مشترك، يحدد ملامح العلاقات الدولية، حتى وإن تعكرت أو خاضت الحروب فيما بينها. فاللعن والسباب يطال الأنظمة الليبرالية، لكن الجاذبية فيها ومواطن القوة منها، تكون نقطة للاستقطاب. إنه الاقتراب في قواسم النظر نحو زاوية واحدة. ومن هنا يؤدي النموذج فعله ويؤدي دوره في الشد والجذب، القطيعة واللقاء، الرفض والإعجاب. لقاء لا يستقر عند نقطة بدء، بقدر ما حركته العوامل المشتركة بين الطرفين.طرف يحاول السيطرة ومد النفوذ وتعميم الهيمنة، وآخر يسعى إلى حرق المراحل وبلوغ الأوج الذي وصل إليه هذا المتحصن بازدهار تجربته.

من أجل العالم

يكشف الوعي بالتاريخ عن جملة من المواقعات والتداخلات، لاسيما في المجال الاجتماعي، حيث التركز والتمحور حول صياغة النمط الخاص المتعلق بالذات الفاعلة.فيما يكون البحث عن الجذور المتعلقة بصياغة المعاني وطريقة تداولها ودور الفاعلين الاجتماعيين في إنضاجها وتفعيلها، من العوامل المساعدة في تلمس بعض المكوّنات التي ساهمت في تكوين مجتمع بعينه وطريقة تشكل الوعي فيه. وبالوقوف على مكامن الفعل والنسق الحاكم لهذا المجتمع، يكون الفهم بمثابة الوسيلة والسبيل إلى إمكانية تفعيل وتحقيق هذا النموذج في مجتمع آخر.الوعي هنا يقود إلى إنفاء الاحتكار وتوسيع مدارك التفعيل والمشاركة، حيث الأفق الواسع الذي لا يتوقف عند حدود وفواصل.

الغور في التفصيلات يقدم مساحة أكثر اتساعاً، لاستجلاء ملامح الآخر والتفرس الدقيق في القسمات. ولا يقف الأمر عند الجانب الوصفي، بقدر ما يكون بوابة لولوج مجال التحليل والبحث في الأنساق والعلاقات التي تميز هذا المجتمع عن ذاك. إنه السعي إلى الفهم والذي يتيح مجالات أرحب للخلق والإبداع، إذ لا يتوقف الأمر عند نقل نموذج والتطلع نحو تطبيقه والحرص على إبراز معالم تحديداته. بقدر أهمية اللحظة في استيعاب مكنون النموذج الآخر، والعمل على تفكيك العلاقات الرئيسة من أجل ترصّد مجالات أكثر رحابة وسعة، يتم من خلالها تخليق مبدأ الإبداع، القائم على التفاعل والوعي والاستيعاب الإيجابي، لا على مزيد من التمركز والحذف والإلغاء.

فعالم اليوم لم يعد يحتمل المزيد من الحروب والتقاطعات والتصارعات، بل أن التواصل وسؤال المعنى لا بد أن يحضر وبكل قوة، من أجل تحقيق النقلة إلى الحياة المتقدمة، والتي طال مجال النظر إليها باعتبارها حكرا وإقطاعا غربيا لا يمكن الاقتراب منه، أو الأخذ عنه، إلاّ وكانت الهوية مكمن الخسارة فيه.لقد بلغ الغرب ما هو عليه اليوم بالمزيد من التقاطع والتقاتل والتضحيات، وقطع ردحا طويلاً من الزمان ودخل في مخاضات ومواجهات شديدة العسر، حتى نضجت التجربة وبرز النموذج الذي يتبدى اليوم في اقتراب يشده الطموح إلى التكامل والفرادة.

ومـن دون السـقوط في مجـال ردة الفعـل، ليكـون التطلـع إلى الإدراك بمثابـة الفيصـل الشـديد الحضور، والذي ربما يتيح توجيه النظر نحو كوّة يتم النظر من خلالها إلى مسقط الضوء، بحثاً عن تفسير قوامه الوضوح من أجل هذا العالم المحتدم والمضطرب.

الوعي بالظواهر

يقف المثقف العربي في منطقة متداخلة ما بين الخطاب الذي يخوض فيه والمرجعيات الفكرية التي تفرض حضورها عليه شاء أم أبى. ومهما كان التطلع نحو الانغماس في تنفيذ المشروع الفكري الذي يحس ويعتنق إلا أن التصورات التي يفرضها الواقع، تبقى آثارها شديدة الرسوخ غير قابلة للتلاشي أو الضمور. إذ تبقى الاتجاهات محدودة يعوزها الشمول والتأثير القوي، خصوصاً وأن المقوّمات التي راح المثقف العربي يخوض فيها، في مجال النهل والاقتباس عن المناهج الغربية الحديثة. والتي لطالما أبرزت الكثير من التداخلات والوعي المجزوء بالأدوات والوسائل المنهجية ذاتها.حتى لتبرز الإشكالية المركبة والتي تعكس الاتجاه الذي بات منصباً نحو الاندراج في هذه الدورة التي لا تنقطع من المفاهيم، على حساب الموضوع الأصلي، حتى غدت قضايا المنهج بمثابة الغاية، فيما تم اختزال القضايا الأساسية التي تمس المثقف باعتبارها مجرد موضوعات.

وهكذا غابت علاقة الربط بين الواقع والخطاب، والتي كانت من إفرازاتها تلك الارتباكات التي صار يتم إسقاطها على الأحداث.حتى تسللت التصورات الجاهزة في صلب الخطاب، الذي غدا عرضة للرضوخ لهذه المقومات الثابتة، التي باتت تشكل النسيج الأساس من عموم الثقافة العربية. ولعل التقاطع ما بين هذين الوعيين الملتبسين، يوضحان بجلاء عن عمق الهوة الواسعة، الذي يتوقف عند هذا الثبات المقيم الذي لا يقبل الإزاحة، ومسألة الحقيقة التي غدت تلعق جراحها التي لا تقبل الاندمال، عندما صارت عرضة للتهميش وعدم الاهتمام.

الفصل الأول

المثقف العربي في عصر التحولات

المبحث الأول

المثقف العربي.. المعنى وتشظي الدلالة

(المثقف هو الكائن القادر على تمثّل الحرية والمسؤولية) ماكس فيبر

مقدمة القراءة

أين هو المثقف؟ وكيف يمكن تمييز ملامحه في المجال العربي، هذا بحساب الوقوف على الجذر الثلاثي لكلمة (ثقف)، في لسان العرب (رجل ثَقْفٌ وثَقِفٌ وثَقُفٌ: حاذِقٌ فَهِم، وأَتبعوه فقالوا ثَقْفٌ لَقْفٌ. رجل ثَقْفٌ لَقْفٌ إذا كان ضابِطاً لما يَحْوِيه قائماً به. ويقال: ثَقِفَ الشيءَ وهو سُرعةُ التعلم). وإذا كان الدال Signifier ، معبرا عن الصوت للكلمة أو العلامة. فإن المدلول Signified يبقى يدور في فلك الفكرة والمفهوم، المعبر عن الصوت المرافق لتلك المفردة والكلمة. حيث المثقف Intellectual، ذلك الكائن العصي على التحديد، أو حتى تمييز الملامح التي يمكن التفرس فيها. وإذا كان الدور المأمول فيه عادة يقوم على فعالية التفكير، والتأمل والبحث والتقصي. فإن سمة الإبداع تبقى رديفة له، حتى كانت المساهمة الجادة له، من خلال التعبير عن لحظات الازدهار التي تعيشها الأمة.

وهكذا درجت الأمم على تقديم أفرادها، القادرين على إنتاج الدلالة Semiotics، عبر التركيز على فعالية توليد وإنتاج الدلالة، التي تساهم في إبراز المعنى، من خلال الذات العارفة، القادرة على

التمييز والابتكار. حيث القدرة الواعية على صياغة ورسم ومنح الأشياء شكلا مميزا. والمساهمة في بناء المعنى، عبر إنتاج النصوص والعلامات، وبث الشفرات التي تمنح المعنى شكله المميز داخل ثقافة الأمة. إنه التفاعل داخل حقل علم الدلالة Semantics حيث التركيز على تجليات المدلول[١]، والنأي عن رصف الدال والكلمات، عبر المزيد من فعاليات إنتاج المفاهيم والصياغات التي تميز عصرا أو مرحلة تاريخية، والسعي نحو ترسيم ملامح الكينونة عبر ترسيخ قيم ومضامين، يتم ضخها من خلال فعالية السرد. والتفاعل الحميم والصميم مع الواقع عبر إجادة لعبة (الموضوعي والمجازي) بحرفنة وصنعة وحذق البارع الموهوب المتمكن.

فرضية القراءة

لا يمكن التغافل عن الحقيقة التي يقوم عليها الواقع الإنساني، حيث القناعة بأن الإنسان ولطالما يمارس فعالية التفكير، فهو مثقف بطبعه. لكن هذه البديهية بحاجة إلى إخضاعها إلى منهجية الترشيد الفيبري[٢] Rationalization، حيث أهمية الوقوف على طريقة استخدام المعرفة التي يتعامل معها المثقف. حيث التركيز عند مجال العلاقات والأهداف والغايات. ولعل السؤال الأشد حضورا يتبدى في طريقة تفاعل المثقف العربي في بيئته، عبر استخدام معرفته. وعلى صعيد مختلف المراحل والحقب التاريخية، حيث المسعى نحو تمييز الدور، إن كان يتمثل في نزوع عام يتطلع نحو خدمة المجتمع، بوصفه حاملا لرسالة وهدف معرفي نبيل. أم مجرد توجه شخصي،

---

١ برونوين ماتن وفليزيتاس رينجهام، معجم مصطلحات السميوطيقا، ترجمة عابد خزندار، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠٠٨، ص ص، ١٦٥، ١٦٩.

2 Peter Hamilton, Max Weber Critical Assessments, Routledge , New York 1991, Volume 2 p 72

يقوم على محاولة استثمار تلك الموهبة في نزوع ذاتي. هل الغاية تقوم على بث روح التجديد وحفز البيئة والمجال الذي يعيش فيه؟ أم هي مجرد رغبة عارمة نحو عقد التحالفات مع القوى المسيطرة، من أجل تحقيق الهيمنة والسطوة والحضور على حساب الجموع.

هل بقي المثقف العربي أسيرا لرتابة الإيقاع الذي تفرضه الحقب السياسية، من؛ عثمانية، احتلال غربي، استقلال وطني. وما أفرزته من ظهور نماذج بعينها تمثلت في المثقف الإصلاحي – النهضوي في نهاية العهد العثماني، والثوري الذي تميزت ملامحه في أعقاب الحرب العالمية الثانية، والتوافقي في أعقاب نكسة ١٩٦٧. ومن واقع التفرس في السياقات الحاكمة لهذه الحقب المختلفة، نجد أحوال الفوضى والاضطراب، والتجزئة والصدام، والتبعية والسيطرة الأجنبية. فيما بقيت رهانات المثقف تدور في فلك التحول والتغيير المنشود والمأمول من دون طائل، حيث التطلع نحو الوحدة وبناء الدولة، والمشروع الحضاري الذي بقي يعاني من التشظي والانقسام. أما الرؤية المستندة إلى الحافز المعرفي، والتوجه نحو بناء المجتمع والمسعى نحو تحقيق الثقافة الديمقراطية، راح هو الآخر يعاني من التداخل والالتباس وسوء الفهم. ولم تكن أحوال التحديات أحسن حالا من سابقاتها فالتطلع نحو بناء التجربة الخاصة بقيت تعيش تحت تأثير هيمنة الغالب والمغلوب والتأثر والتأثير والعواقب الناجمة عن الغزو الثقافي. فيما تعرضت المتغيرات هي الأخرى لعدوى اللاجدوى، حيث الوهن الذي تبدى حاضرا في صلب المضمون والقيمة التي تقوم عليها فكرة الثقافة وأهميتها، حيث الانشغال المرير في تدبيج الموقف من مسألة التحولات التي كانت تمر على الواقع العربي. حتى انشغل المنظرون العرب وتقاطعوا[٣]، إن كانت حركة الضباط الأحرار في مصر

---

٣ فؤاد إسحق الخوري، العسكر والحكم في البلاد العربية، دار الساقي، بيروت ١٩٩٠، ص ٥٢.

عـام ١٩٥٢ ثـورة أم انقلابـا؟ ذلـك التقـاطع الـذي راح يطـال مجمـل فعاليـات العسـكر العربي في النصف الثاني من القرن العشرين.

إشكالية القراءة

وهكـذا تعرضـت المؤسسـة التي عقـد عليهـا الأمـل إلى الترهـل، وراحـت الحداثـة بتطبيقاتهـا المنقوصـة تعـاني مـن الازدراء والسـخرية، فيمـا تسـيد الواقـع تجليـات المجتمـع التقليـدي الـذي راح ينشر بقلوعه على مستوى إعادة إنتاج القيم والممارسات والأهداف القديمة، التي ما انفكت تشير وبمرارة لافتة إلى أحوال الاختلال الذي راحت تعاني منه الذاكرة الدلالية[٤] Semantic memory. باعتبـار الانخـراط في إنتـاج مقـولات خـارج إطـار السـرد الـذي يتطلبـه الواقـع. هـذا الأخير الـذي غـدا يعـيش خـارج إطـار التخيـل، بعـد أن فقـد الـدليل وضـاع عليـه التحديـد. وهكـذا راح المثـل الشـعبي السـائر يردد مقولـة العامـة حـول (**كلام مثقفين**) كنايـة عـن التحـذلق واللعـب اللفظـي الـذي لا يقـود إلى نتيجة أو غاية ذات قيمة محددة. وباعتبار توطن المثقفين في المقاهي، ارتبطت المقولة السـابقة، بــ(**كلام مقـاهي**). ليضـاف لهـا لحظـات الانفجـار الصـحفي الـذي تبـدى خـلال الانقـلاب العثمـاني في يوليو – تموز ١٩٠٨ على يد جمعية الاتحاد والترقي لتتحول الجملة إلى (**كلام جرائد**).

وهكذا بقي نتاج المثقف (شفاهيا كان أم مكتوبا)، يتم النظر إليه بوصفه حالة من الفعل الاجتمـاعي الـذي يعـاني مـن التبعيـة، هـذا بحسـاب انعـدام سـلطة القـرار لديـه، وعـدم تمكنـه مـن المبادرة. لا شك أن المثقف العربي كانت له المساهمة الجادة والدؤوبة في نقد وتحليل الواقع. لكن

[4] Loftus, Human Memory – The Processing of Information, Hillsdale, New Jersey 1976, p 124.

هذه المحاولات بقيت تدور في فلك التداول الاجتماعي دون أن يكون لها المساهمة المباشرة في حفز الواقع. نعم لقد شارك المثقف العربي في الأحداث الكبرى لكن المبادرة الصادرة عنه لم تكن بمستوى الحفز لعمليات التحول التاريخي، بقدر ما كانت تتخذ دورا مساندا. فثورة العشرين في العراق قامت على يد شيخ قبيلة فلاحية (شعلان أبو الجون)(٥) ضد الوجود البريطاني. والثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ ضد الوجود الفرنسي بقيادة سلطان باشا الأطرش الزعيم الاقطاعي(٦).

الواقع العربي لم ينل نصيبه من التاريخ، سوى بالحصول على حصته من التحقيب. هذا الذي جاء بوصفه صوريا لا جوهريا. فالعثمنة، والدولة الوطنية التابعة، فالمستقلة بنسختيها؛ الإصلاحية والثورية. بقيت تعيش ذات السياق والرهان والرؤية والتحدي والمتغيرات؟! لم يتغير فيها سوى اللافتة أو الشعار، وهذا هو الآخر لم يسلم من الإعادة والتكرار، بحساب إن المعنى واحد وإن اختلفت تقنيات التعبير البلاغية. لعب في مجال المقدمات الخالية من النتائج، مدخلات من دون مخرجات؟!

كيف يمكن تحديد دور المثقف؟ وقبل الخوض في مسألة البحث عن الدور يكون السؤال حول بنية هذا التشكيل، فهل هو حقل أم نموذج أم مجرد جماعة؟ هل هم نخبة أم إنتلجنسيا ومتعلمون ومهنيون وأصحاب مواهب وقدرات خاصة؟ وهل يمكن الخلط بين المثقف والمتعلم؟ أم أن التمييز هنا يعد ضرورة؟ أم تراه يبقى يدور في مجال البحث عن الحقيقة. وهل يمكن التغاضي عن الدور الريادي للمثقف في تنوير الآفاق والأفكار داخل المجتمع الذي يعيش فيه. والمساهمة

---

٥ كاظم المظفر، ثورة العراق التحررية عام ١٩٢٠، مطبعة الآداب، النجف ١٩٧٢.

٦ سلطان باشا الأطرش، أحداث الثورة السورية الكبرى كما سردها قائدها العام سلطان باشا الأطرش، دار طلاس، دمشق ٢٠٠٨.

الفاعلة في كشف التناقضات ورصدها والعمل على تمييز ملامحها. فيما سعى البارزون منهم نحو طرح البدائل الفكرية التي كان لها الأثر في تغيير مسار التاريخ. لكن هذا الدور البالغ والمؤثر يبقى رهينا بجملة من الاعتبارات، تلك التي تقوم على (الاستقلال والتحدي).

قضايا القراءة

برز دور المثقف الأوربي في عصر النهضة، والذي لم يكن طريقه مفروشا بالورود والرياحين، بقدر ما كان لقمة سائغة لمحاكم التفتيش، تلك التي سرعان ما تم عقدها بحق أصحاب الأفكار الجديدة التي تدعوا إلى نبذ القديم من العلاقات والأفكار التقليدية، وأهمية توجيه النظر نحو إرساء قواعد جديدة للتفكير المنطقي القائمة على المنهجية العلمية الحديثة. مما جعل الكنيسة تعتبر هذا الاتجاه بمثابة التهديد المباشر لوجودها ونفوذها. حتى كانت عقوبة الحرمان الكنسي والاتهام بالهرطقة والإلحاد جاهزة بحق أصحاب الرؤى والتصورات الجديدة. وما يترتب عليها من عقوبات تتعلق بالحرق والمصادرة والمطاردة والإقامة الجبرية، تلك التهم التي توزعت على الآلاف، من أبناء العصور الوسطى حتى عصر النهضة. فكانت الأمثلة الأكثر حضورا قد تمثلت في التنكيل الذي تعرض له جوردانو برونو الذي قضى حرقا، وغاليلو غاليلي الذي أجبر على التنازل عن أفكاره العلمية في قاعة المحكمة حول فكرة دوران الأرض حول نفسها. وكوبرنيكوس الذي آثر نشر نظريته في أعقاب موته، حول نقض مركزية الأرض، والكشف بالدليل للعلمي على أن الشمس هي مركز المجموعة، تجنبا للمواجهة المرتقبة مع هذه القوة الغاشمة.

ثنائية (**الاستقلال والتحدي**) حين يتم تمثلها في المجال العربي، نراها وقد اتخذت لبوسا مباشرا بآلة السلطة السياسية. بحساب طريقة توزيع القوى الاجتماعية المسيطرة والمهيمنة، تلك التي تبقى تدور في فلك ثالوث (**الوالي، زعيم القبيلة، رجل الدين**). تلك التوزيعة التي ما فتئت تحضر في الواقع العربي، عبر تواصل فعالية تبادل المنافع والتحالفات بين هذه الأطراف الثلاثة. الوالي بهيمنته على المركز وزعيم القبيلة بسيطرته على الأطراف والحشود، وشيخ الدين المانح للشرعية والجاهز لتكفير من يتقاطع معه في الرأي والمصالح. فيما يبقى المثقف بعيدا عن تلك العلاقة الراسخة والثابتة، والتي بقيت كما هي على الرغم من تبدل العهود والأزمنة والحقب. لم يتبدل فيها سوى المسميات والأزياء وبعض مناطق النفوذ تلك التي تتمدد أحيانا، وتتقلص في بعض الأحايين. حتى لم يجد المثقف من نفوذ يمارسه، إلا من خلال محاولة القفز على الواقع الذي يحيط به، عبر التطلع نحو إنتاج مقولاته الخاصة به.

وهكذا جاء نتاجه محملا بالمزيد من الرطانة والعجمة العسيرة على الفهم من قبل العامة. حتى أنه لم يتوان من استخدام المفردات والمصطلحات المعقدة في وسط اجتماعي تقليدي، يعاني من الفقر والجهل والأمية والجوائح والفيضانات المتكررة وغزوات القبائل البدوية على حواضر المدن[٧]. كان مثقف العهد العثماني يتحدث عن الميكروبات، كما يشير عالم الاجتماع علي الوردي في معرض وصفه لمثقف ذلك العهد، والكثير من القضايا التي يستعصي فهمها على العامة، تلك الأخيرة التي ما فتأت تعاني من الفقر والمرض والجهل. فيما لم يتورع مثقف الألفية الثالثة والتواصل الرقمي والثورة المعرفية عن الحديث عن فكر ما بعد الحداثة وتجلياته، في الوقت الذي

[٧] عبد الرحمن البزاز، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال، مطبعة العاني، بغداد ١٩٦٧، ص ٢٣.

تعاني فيه بلاده من التشظي والتمزق وسيطرة القوى التقليدية، وأفواج العاطلين عن العمل، وانتشار الأمية وتزايد أعداد الأطفال المتسربين من المدارس، وتفاقم المشكلات الاجتماعية، وتنامي الحركات الإرهابية بين صفوف الشباب.

على الرغم من الحذر الشديد الذي يطلقه مالكولم ياب حول أسباب الازدهار الذي شهدته سوريا في مطلع القرن العشرين نتيجة للدور الناشط للطبقة الوسطى وبروز الفكرة القومية. إلا أنه يميل كثيرا إلى أهمية التعليم في التغير الاجتماعي[٨]. حيث المساهمة التي تبدت في تأسيس الجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٨٦٦، وجامعة القديس يوسف عام ١٨٧٥. بالإضافة إلى انتشار المدارس التبشيرية تلك التي بلغ عددها خلال بداية القرن العشرين ما يربو على ٥٠٠ مدرسة استقبلت أعدادا متزايدة من الطلبة. بالمقابل كان موقف العوائل السورية المسلمة من هذه المدارس في غاية التوتر والحذر.

تفاعلت الفكرة القومية في بلاد سوريا الكبرى، حتى أبرزت العديد من الشخصيات الثقافية والفكرية البارزة، كان من بينهم ناصيف اليازجي المتوفى ١٨٧١ المتوجه نحو إحياء الثقافة والشعر العربي، وبطرس البستاني ١٨٨٣ المتطلع نحو تأليف القواميس والمعاجم وفارس الشدياق ١٨٨٧ صاحب مجلة الجوائب وسليم تقلا ١٨٩٢ مؤسس جريدة الأهرام القاهرية وجرجي زيدان ١٩١٤ الذي قدم المؤلفات والترجمات لعيون الأدب الغربي. لقد ترافقت تلك الجهود بالتوجه نحو إحياء الثقافة العربية والتركيز على التعليم والطباعة وإصدار الدوريات والصحف، والعمل على تيسير علوم اللغة العربية وجعلها متوافقة مع روح العصر ومتطلباته. وكانت جهود هؤلاء قد

[٨] مالكولم ياب، نشوء الشرق الأدنى الحديث، ترجمة خالد الجبيلي، الأهالي للنشر، دمشق ١٩٩٨، ص ٢٢٤.

انصبت نحو معالجة المزيد من القضايا والمشكلات، وطرحها أمام العامة، بعد أن كانت تدور في فلك النخبة.

في العراق تفاعل المثقف مع الواقع عبر العمل على ترصد المجال السياسي، فهذا عبد الرحمن السويدي المتوفى ١٧٨٥ يكتب عن الأوضاع التي ألمت بالعراق جراء الحصار الفارسي لمدينة البصرة على يد الشاه كريم خان الزند، والتردد والوهن الذي نال من الدولة العثمانية في نصرتها[٩]. ولم يتردد عثمان بن سند الوائلي ١٨٣٤ من تدبيج مؤلفه (مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود)[١٠]، والذي انبرى فيه نحو تقصي التجربة العراقية في الإفلات من السيطرة العثمانية نحو بناء تجربة الاستقلال، مسترشدين بتجربة الوالي محمد علي باشا في مصر. ولم يغب دور محمود شكري الآلوسي ١٩٢٤ عن نقد الدور العثماني في النيل من العنصر العربي وإهماله واضطهاده، من خلال كتابه (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب)[١١]، الذي حصل على جائزة المجمع الملكي السويدي عام ١٨٨٩ ومقابلة ملك السويد شخصيا.

مثل صدور جريدة الزوراء في العراق عام ١٨٦٩ خلال عهد الوالي مدحت باشا، فرصة سانحة للمثقف العراقي حول التعبير عن مساهمته الجادة والواعية في مناقشة المزيد من القضايا الحيوية التي تهم بلاده. فكانت الطروحات فد شملت قضايا الجيوبولوتيكا من خلال عرض للمزيد من الدراسات المتعلقة بأهمية افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، فيما نوقشت العديد من قضايا

---

٩. عبد الرحمن السويدي، تاريخ حوادث بغداد والبصرة، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٧.

١٠. تحقيق عماد عبد السلام رؤوف وسهيلة الجبوري، الدار الوطنية للنشر، بغداد ١٩٩٠.

١١ تحقيق محمد بهجت الأثري، المكتبة الأهلية، القاهرة ١٩٢٤.

السياسة والتي أطلق عليها (البلتيقة Political)، وحفز الواقع الاقتصادي ومعالجة الأوضاع المتردية وتشجيع الاستقرار ونبذ البداوة والاهتمام بمعالجة ومناقشة النظريات العلمية الحديثة، والتوجه نحو النهل والإفادة من تجارب العالم المتقدم والمتحضر. ولم تغب الإشارات إلى معالجة القضايا المتعلقة بحقوق الإنسان وأهمية العناية بتنظيم السجون[١٢].

منهجية القراءة

تسعى نظرية الدور Role Theory إلى رصد مستوى العلاقات القائمة بين المراكز الاجتماعية، والممارسة الاجتماعية الفردية الصادرة عن هذه المراكز، والتوقعات المرتبطة بالوضعيات والمكانة، تلك التي تحدد وتعمل على ترسيم مستوى العلاقات في مجتمع ما[١٣]. إنها المعايير التي تحدد سلوك الفرد وتحدد مسار وظيفته داخل الجماعة، وهو القيمة التي يتم من خلالها تمييز المكانة والدور والموقف الاجتماعي. و من واقع البحث في الوضع الاجتماعي للمثقف في البناء الاجتماعي، تبرز أهمية التمييز بين السمات الشخصية والأنشطة التي تميز عمله، والقيمة المتحققة داخل المجتمع. فيما تتبدى أهمية الموقف الصادر عن المثقف في التفاعل الاجتماعي فيما تتبدى أهمية العلاقة القائمة بين المثقف والمجتمع من خلال ما يمكن أن يقدمه المثقف للجماعة، وإبراز مجال الدوافع التي تحدد مسار دور المثقف حول قضية ما. ولا يمكن فصل دور المثقف عن أدوار الجماعة الفرعية التي ينتمي لها أو الجماعة الكبرى التي يتفاعل وسطها، ومدى ارتباط مجال

[١٢] ينظر أعداد جريدة الزوراء، ١٩ ربيع الأول ١٢٨٦ هجري، ٣ ربيع الآخر ١٢٨٦ هجري، ٢ جمادى الأول ١٢٨٦ هجري، ٢٠ رجب الفرد ١٢٨٦ هجري، ١٠ رمضان المبارك ١٢٨٦ هجري.

[13] Baert, Time in Contemporary Intellectual Thought, North- Holland, Amsterdam 2000, p 207.

الثبات والتغير في المواقف بناء على مدى العلاقة القائمة بين المثقف بوصفه فردا والجماعة التي يعيش فيها. ولا يمكن إغفال تأثير نمط الجماعة (**الصغيرة أم الكبيرة، المستقرة أم العابرة، الحداثي أم التقليدي، الريفي أم الحضري**) على تحديد دور المثقف، إن كان على مستوى الدور المحدد الثابت الملامح، ذلك الذي يتبدى عادة في المجتمعات الحضرية الكبيرة المستقرة، فيما نراه يحتاج إلى المزيد من التفاعل والجهد، بغية ترسيخ دوره في المجتمعات الصغيرة العابرة التقليدية.

لو أمعنا النظر في الظروف التي أحاطت بالمثقف العربي خلال القرن الثامن عشر، حيث أحوال الهيمنة العثمانية تلك التي كانت تعاني من الترهل وسطوة العلاقات التقليدية. لكن هذا الوصف لا يعني غياب الدور. إذ برزت مؤسسة الأزهر الدينية في استقطاب المزيد من طلبة العلم الديني، ذلك العلم الذي كان يعد بمثابة البوابة التي تؤهل خريجها للانخراط في تجليات الحياة المدنية حيث الرغبة الملحة في الحصول على الوظيفة الحكومية، تلك التي تدر عليه دخلا ثابتا. ويأتي الاختلاف في بلاد سوريا اعتمادا على توجه المزيد من طلبة العلم نحو السفر إلى استانبول العاصمة العثمانية حيث الرغبة في الحصول على فرص التوظيف، أو التوجه نحو إلى مصر وتلقي العلوم في الجامع الأزهر. أما في العراق فقد نشطت المراكز الحضرية في تخريج أعداد من المتعلمين الدينيين، من المدارس الدينية التي تمركزت في بغداد والبصرة والموصل والنجف. ولم يغب دور الحجاز حيث الحرمين الشريفين مكة والمدينة، في استقطاب طلبة العلم الديني(١٤). وبالقدر الذي بقيت آليات التعليم قادرة على تخريج المزيد من دفعات المتعلمين المنخرطين في التعليم الديني. فإن روح المحافظة بقيت ماثلة للعيان. التي كانت تتبدى في وراثة المناصب التعليمية وتكريسها في

١٤ هاملتون جب وهارولد بوين، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة عبد المجيد القيسي، دار المدى، دمشق ١٩٩٧، القسم الثاني، ص ص ١٧٦-١٧٧.

عوائل بعينها. مما انعكس أثره على المستوى العلمي لبعض المشايخ والعلماء. هذا بالإضافة إلى جمع البعض منهم العديد من الوظائف سعيا للحصول على المرتبات والمزايا، وما ترتب عن هذا من ترهل في الإدارة وبروز ظاهرة الوكلاء والنواب. في ظل هذه العلاقات بقيت مسألة البحث عن المعرفة تدور في أفقها الضيق، وانغلاق مدار التوسع والسعي نحو طرح الأسئلة، تلك التي يمكن أن تجلب على صاحبها نقمة القائمين على المؤسسة، والتي تصل إلى حد النبذ أو الطرد في كثير من الأحيان. وهكذا تكلس وضع المثقف الذي عانى من هيمنة البنية التقليدية الشديدة المحافظة. وراح يعيد إنتاج ذات المواقف التي تتوافق مع طبيعة التفاعل المنقوص الساعي نحو الرضا والقبول بما هو متاح ومتوفر. بل أن الدوافع التي حفزت البعض من المتعلمين الممثلين لثقافة تلك الحقبة، أفصحت عن توجه المزيد منهم نحو الوقوع في فخاخ كتابة الأدعية والتعاويذ، باعتبار ما يمكن الحصول عليه من استجابة لدى العامة وأصحاب المقامات الرفيعة.

أثمر القرن الثامن عشر عن نتاج ثقافي يعد غزيرا، إذا ما أخضع للاعتبارات السائدة في تلك الحقبة، لكن الملفت فيه أنه كان يعاني من التكرار وفقدان الأصالة والابتكار والسقوط في فخ التقليد وانعدام التحليل وغياب الرؤية النقدية الساعية إلى التجديد. وبالقدر الذي تصدى للعمل الثقافي المشايخ ورجال الدين في مصر، فإن أبرز المشتغلين في حقل الثقافة من السوريين كانوا من الموظفين المدنيين، هذا بحساب خضوع دور المثقف لتأثير نمط الجماعة السائد[١٥].

[١٥]. هاملتون جب، االمصدر السابق، ص ١٨٦.

تحوّل أم تغيّر؟!

تكمن إشكالية التعاطي مع مصطلح (التحول التاريخي)، استنادا إلى الخلط القائم بين مصطلحي؛ التحوّل Transition والتغير Change. فالأول يقوم على عملية ترصد نمط يتبدى بين مرحلتين، تقليد وحداثة على سبيل المثال، والتطورات الناجمة عن أحوال الانتقال المرحلي على صعيد (**الوضعيات، المواقف، الدوافع، أثر أدوار الآخرين، نمط الجماعة**)، حتى ليكون بمثابة المحفز نحو إطلاق الأسئلة المتعلقة بالتوقعات اللاحقة، بناء على حمولات المعنى الكامنة فيه، أم هو في الواقع لا يتجاوز أحوال العواقب والنتائج المترتبة عن هذا الانتقال[١٦]. في حين أن التغير يعد من الفعاليات المنظمة الخاضعة لقواعد ومعايير، ولها أهداف مرسومة شديدة الوضوح[١٧]. حتى وصفه عالم الاجتماع أوغست كونت بـ(**إنه الفعالية الاجتماعية القائمة على مراحل قابلة للتنبؤ**)[١٨]، إنه الاتجاه الثابت نحو التغير في نمط الأداء الحكومي على سبيل المثال في مجال التشريع والقوانين، أو تنامي القوى الاجتماعية والنقابية والديموغرافية على صعيد المواطنين، أو تصاعد حمى الهجرة أو الغزو على الصعيد الثقافي أو التغيرات التكنولوجية.

يمكن رصد التحولات التاريخية في المجال العربي، من خلال الصدمة المباشرة مع الغرب، تلك التي تبدت في الغزو النابوليوني لمصر عام ١٧٩٨. وما أفرزته من وعي صادم يعمق الهوة بين

---

[16] Bernd Schmid, Credit Risk Pricing Model , Springer , Munich- Germany 2004,p 19.
[17] Robert Mac Iver, Politics and Society, Transaction Publishers, New Jersey 2005, p37.
[18] Joan Ferrant, Sociology A Global Perspective, Enhanced, Printed in USA 2011, P 12.

الأنا والآخر. حتى راح المثقف العربي يطلق عنان أسئلته في صلب المزيد من القضايا، تلك التي تراوحت ما بين الموقف من الغرب، والإصلاح الديني والتطور الاجتماعي وقضايا المرأة والتفاوت الاجتماعي والحرية والاستبداد والعروبة والإسلام، والتقليد والحداثة والأصالة والمعاصرة.

قضايا علق في شباكها المثقف العربي وظل يناور فيها، مطلقا سيلا كثيفا من الأسئلة القلقة، تلك المفتقدة إلى الجوهرية. باعتبار إن الحافز فيها يكون رجع صدى للتفاعلات الغربية. فيما تصدر المشهد السؤال الشكلي والمظهري، حيث الخضوع التام للمرحلية. تلك التي ما إن تتبدى ملامح تحول جديد، حتى يتم تكرار ذات الأسئلة وبصياغات تكاد تكون معادة ومكرورة. لتكون العواقب وقد تمثلت في تسلل الصورة الزائفة Simulacrum[١٩] في صلب الثقافة العربية، تلك التي راحت تعاني من السقوط في تقليد النموذج الجاهز والبارز، وغياب أسئلتها الموضوعية والواقعية، حيث الوهن والهزال والخشية من المبادرة، باعتبار الحذر من التواصل العميق والأصيل مع النموذج المثالي. وبدلا من توجيه الأسئلة نحو الكشف عن الملابسات والظروف التاريخية والسياسية، التي راحت تنوء بثقلها على الواقع. اندرج المثقف العربي في توجيه مساعيه نحو تصعيد حمى المواجهة مع المناوئ والمخالف القابع في الطرف المقابل. وهكذا دب الخلاف بين دعاة الانصهار بالنموذج الغربي القوي المزدهر الحاصل على كل وسائل التقدم. والمحافظون الرافضون من هذا الغرب الزاحف بأطماعه من أجل تحقيق مشروعه الاستعماري[٢٠]. وبالقدر الذي انقسمت فيه مواقف المثقف العربي بين رافض للغرب، وآخر يدعو للانصهار فيه. لم تغب الدعوة إلى التوفيق بين النموذجين الغربي والتقليدي، وهكذا جاءت الدعوات تنادي بأهمية النهل عن هذا

---

[19] Baret, Time in Contemporary, op cit , p 285.

[٢٠] قاسم أمين، المرأة الجديدة، ط ٢، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٩١، ص ٢١٦.

المتقدم المزهر، أسباب ازدهاره العميقة والأصيلة. لا المظاهر المتعلقة بالأزياء أو النقل للعادات والتقاليد الغربية، على اعتبار أنها الوسيلة نحو الازدهار والخلاص من ربقة التخلف التي راحت تحيط بالواقع العربي. الأهمية في الغرب تكمن في علومه ومعارفه وتنظيماته الاقتصادية. شدد عليها مثقف القرن التاسع عشر مثل بطرس البستاني[٢١]، وتنادى بها مثقف القرن العشرين، بل لم تخف هذه الدعوة عن أدبيات الثقافة الصادرة في الراهن الذي نعيش، حيث العصر الرقمي والاتصالي. وتحول العالم إلى قرية صغيرة. بل صار العالم برمته يتم حمله في أجهزة الهاتف المحمول الذي لا يتجاوز حجمه كف اليد.

البحث عن الوصفة السحرية

أين يكمن سؤال الصورة الزائفة؟ هل في طبيعة السؤال الصادر عن المثقف العربي، باعتبار أن ما يشغله يكون في العادة شغفا بهذا الشبيه (الغرب) الذي لا يتبدى منه سوى القسمات والملامح، حيث حضور صورة الغرب، فيما تغيب حقيقة الغرب العميقة والأصيلة والفاعلة. أم التطلع الحثيث نحو إنتاج النماذج، والتي لم تتخط أن تكون مجرد أوهام، لم نتمكن عبرها الوصول إلى إيجاد معنى للعالم. حتى بقي هذا الغرب وكأنه الأحجية العسيرة على الحل ! وهكذا تناهى إلى العقل الشرقي والعربي أن سر نهضة الغرب قامت على التعليم الحديث، وعلى هذا الأساس لم تتوان الجهات الرسمية من حث الجهود نحو افتتاحها والشروع في توسعتها. لكنها بدلا من التوجه نحو إنتاج التنوير والتفعيل، تحولت إلى مجرد مؤسسات بيروقراطية، لا ينجم عنها سوى حصول المتخرج منها على (شهادة للتوظيف). ومن واقع التراكم وغياب التفكير المنهجي العلمي

---

٢١ بطرس البستاني، خطاب في الهيئة الاجتماعية والمقابلة بين العوائد العربية والإفرنجية، بيروت ١٨٦٩، ص ٤٠.

الدقيق، ساهمت أحوال الهرم المقلوب في رسم معالم المدخلات والمخرجات في العملية التعليمية، حتى صارت في القرن العشرين مؤسسات لإنتاج أفواج العاطلين، الذين راحت تستقبلهم المقاهي العربية والحركات السياسية المعارضة والانخراط في تجليات الرفض والنقمة الذي تصاعد حتى بلغ مداه الأقصى في تنامي حركات الاحتجاج لنموذج الإسلام السياسي.

حنا بطاطو يعالج هذه الوضعية المربكة في العراق الملكي، حين يترصد أوضاع المتعلمين، وكيف أصبحت (هذه الشريحة الأكثر عداء لوجود السلطة الملكية)[٢٢] فقد استقطبت الكليات الحكومية في بداية الحكم الملكي عام ١٩٢١ ما مجموعه ٩٩ طالبا، بلغت أعدادهم في نهاية الحكم الملكي عام ١٩٥٨ ما يربو على ٨٥٦٨، كذلك الحال بالنسبة للتعليم الثانوي الذي بدأ بـ ٢٢٩ طالبا وبلغ ٧٣٩١١ طالبا. هذه التضاعيف من الأرقام شكلت ضغطا هائلا على قدرات الحكومة، التي لم تستطع استيعابهم في الهيكل المؤسسي، بل أن مسار التمييز صار يتغلغل في صلب العلاقات الاجتماعية، بين المتعلمين الذين تأهلوا للانخراط في الطبقة الوسطى، من دون الحصول على المزايا المأمولة. وغير المتعلمين الذين يعانون من الانسحاق والوهن، والعوز والفقر والإقصاء. حتى غدت هذه الفئة نهبا للنزاعات والصدامات والاحتقانات بإزاء السلطة، لتستوعبهم التيارات القومية والشيوعية.

[٢٢] حنا بطاطو، العراق الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ٢٠٠٣، ص ٥٢.

التفكير أم الموقف؟

نعود لنسأل من هو المثقف؟ وكيف يمكن تمييز دوره في التحولات التاريخية؟ هل هو الفاعل صاحب الموقف والرؤية، أم هو صاحب المكانة والتأثير؟ أين يكمن حضوره ودوره وتأثيره وسلطته الرمزية والمادية؟ هل هو المتعلم، أم صاحب المال والجاه، أو المقرب من السلطة العليا. أم هو بمعنى ما يتعلق بمفهوم وتجليات النخبة؟ هل ينحصر التعريف على صاحب الإنجاز الأدبي والسياسي والاقتصادي والعلمي، هل هو التقاني والحرفي؟ هذا الحشد من علامات الاستفهام يمكن حصره في فعالية التفكير. ومن هذا فإن المثقف؛ يعد تمثلا للإنسان الذي يتحصل على ملكة التفكير مما يمكنه من إنتاج موقف من الواقع.

من ثنائية؛ **التفكير والموقف**، يمكن القول إن المثقف العربي بدءا من جيل الرواد حيث الإصلاح والنهضة وصلا بجيل الدولة الوطنية والاستقلال فالثورية والإصلاحية، منذ أيام بطرس البستاني والأفغاني ومحمد عبده والكواكبي ورشيد رضا وشكيب أرسلان وقاسم أمين، وبو ضياف التونسي وخير الدين التونسي وعبد الكريم الخطابي قائد ثورة الريف ومحمد مهدي الجواهري فميشيل عفلق وزكي الأرسوزي وجمال عبد الناصر ومحمد عابد الجابري وصولا إلى البو عزيزي البائع المتجول التونسي البسيط، الذي أنهى حياته حرقا، والموظف والعامل والطالب والأكاديمي وسائق الباص والتاجر والغني والفقير، الأصولي والليبرالي والعلماني والديمقراطي، التقليدي والحداثي، القومي واليساري وحركات الإسلام السياسي، إنما يصطف جميعا في موقف موّحد من

مسألة (التحوّل التاريخي). حيث الخضوع لعامل (التمرحل) الذي يعد سمة وركيزة من مفهوم التحوّل، بالإضافة السمة الأخرى والقائمة على (التوّقع)، تلك التي تجد نفسها أمام خيارين (**العواقب والمعنى**). ومآلها الدائم والدائب بوصفها فريسة سهلة المنال لمدار (العواقب). ليكون السؤال الاستنكاري حاضرا حول هذا الحكم الجاهز والمخل بحق المثقف العربي، والنأي به بعيدا عن (المعنى).

إنتاج الدلالة

الأمر هنا لا يتعلق بهجائية للمثقف العربي، ولا تبخيس قدره أو الإقلال من دوره وشأنه ومواقفه. القضية هنا تتعلق بإجراء منهجي يقوم على تفعيل مسار القراءة القائمة على إنتاج الدلالة Semiotics، حيث القدرة القائمة على توليد الدلالة بما يساهم في إنتاج المعنى. فهل استطاع المثقف العربي أن يأخذ دوره في الملاحظة والكشف والتمييز؟ هل استطاع أن يبني نموذجه المميز الخاص والأصيل؟ لماذا لم يظهر في الواقع العربي فيلسوفا بمستوى هيغل وماركس ونيتشه وهيدغر؟ لماذا لم يستطع فريق رياضي عربي واحد أن ينافس على المراكز العالمية المتقدمة، على الرغم من الأموال والرعاية الرسمية والشعبية التي تلقاها تلك المنتخبات؟ لماذا لم يظهر فن عربي يستطيع أن ينافس الإنتاج العالمي؟ وهو الحقل الذي لا تعوزه الأموال ولا المواهب ولا الاتصال مع النموذج المهيمن والمسيطر؟ لماذا استطاع زويل العالم العربي المصري من الحصول على جائزة نوبل في العلوم التطبيقية، وهو الحقل المكرس لعلماء الغرب بامتياز؟ وهل كان لذات الرجل أن يحقق عشر ما حققه لو عاد إلى جامعته الأصلية؟ أين يكمن الخلل؟ في التنظيم، الإدارة

والمؤسسة، التمويل، البيئة الثقافية، العقليات والعلاقات؟ في حين أن قائمة الإبداع الفكري والفلسفي والسياسي والفكر العسكري والأدبي والفني في التراث العربي تبدأ ولا تعرف النهاية. حين قيض للمثقف من تفعيل الدلالة الثقافية ضمن سياق حضاري متفاعل استطاع أن يفرض قواعده وخصائصه ورؤاه التي تمثله وتعبر عنه. حيث تنامي فعالية القدرة على إنتاج الدلالة الثقافية Cultural Significance بحسب الاصطلاح الذي ينحته إدوارد سابير[٢٣].

الشيخ رفاعة الطهطاوي في رحلته إلى فرنسا عام ١٨٢٦ بوصفه مرشدا للبعثة التعليمية المصرية، كان ناقلا للتجربة الفرنسية، الشيخ جمال الدين الأفغاني في حواره مع رينان في مايو عام ١٨٨٣ كان متأثرا بحركة لوثر البروتستانتية، والشيخ محمد عبده في مناظرته للسياسي الفرنسي هونوتو عام ١٩٠٠، كان ساعيا نحو النهل عن التجربة الغربية من خلال بوابة التوفيق بين الإسلام والفكر الغربي. الشيخ الأزهري علي عبد الرازق في كتابه الإسلام وأصول الحكم عام ١٩٢٥ كان خريج جامعة أكسفورد، طه حسين في مشروعه الفكري استند إلى المرجعيات السوربونية، وأقام دراساته بناء على مذهب الشك الديكارتي. المفكرون القوميون كلهم تأثروا بأفكار الغرب، فمحمد كرد علي توفى ١٩٥٣ تأثر بالثقافة الفرنسية، وساطع الحصري توفى ١٩٦٥ تأثر بأفكار ماكس مولو ونوردو، وزكي الأرسوزي توفى ١٩٦٥ تأثر بأفكار برغسون. وميشيل عفلق توفى ١٩٨٩ تأثر بـ جوزيه ماتزيني موحد إيطاليا. قسطنطين زريق توفى سنة ٢٠٠٠ خريج جامعة برنستون، عبد العزيز الدوري توفى عام ٢٠١٠ خريج جامعة لندن، خير الدين حسيب خريج جامعة أوكسفورد. وكل من جاء بعدهم من جيل الأكاديميين إنما وظفوا المنهجيات التي تلقوها في المعاهد الغربية. وقيض لهم

---

23 Edward Sapir, Selected Writing in Language , Culture and Personality, Edited by David Mandelbaum , University of California Press, 1985, p101

تقديم نتاج فكري يعد الأبرز والأهم مضمونا وعرضا وتحليلا على مستوى الثقافة العربية المعاصرة، هم خريجو الجامعات الغربية، وللمثال وليس الحصر يمكن الوقوف عند المؤرخ جواد علي صاحب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، هو خريج جامعة هامبورغ، الناقد الأدبي علي جواد الطاهر خريج السوربون، عالم الاجتماع الإشكالي علي الوردي خريج جامعة تكساس، المؤرخ التونسي هشام جعيط خريج جامعة باريس. لقد تمكن هؤلاء وزملاؤهم من تقديم فكر عميق ودال، إلا أن أنه يتقدم على الواقع العربي، بحسب تعبير طيب تيزيني[٢٤].

الإشارة إلى أهمية النتاج وقوة حضوره، لا تعني بالضرورة أن كل من تخرج من الغرب قد تحصل على المنعة والحصانة. ولا عجزت الجامعات والمعاهد العلمية العربية، من إبراز مثقف مبدع بارز، كانت له المساهمة في صياغة الذائقة والمعنى، والتأثير في المزيد من الأجيال. لكن التأثير الغربي يبقى بارزا ومؤشرا، فعلى سبيل المثال جيل الستينات الثقافي العربي كان مرجعه الثقافي سارتر، وجيل الثمانينات تأثروا بفوكو. وانخرط المثقف العربي في تطبيقات المنهج البنيوي في ثمانينات القرن العشرين، بعد أن هجرته أوربا منذ أحداث ثورة الطلبة عام ١٩٦٨. وتداول مصطلحات ما بعد المجتمع الصناعي نقلا عن عالم الاجتماع دانيال بل، في محيط لم يدخل مرحلة التصنيع أصلا[٢٥].

رواج الكتابة عن الهوية جاء في أعقاب موضة الكتابة عنها في الإطار الأوربي والأدبيات الفكرية الغربية منذ مطلع ثمانينات القرن العشرين، وكذلك الحال مع العصاب الثقافي الذي

[٢٤] طيب تيزيني، حول مشكلات الثورة والثقافة في بلدان العالم الثالث – الوطن العربي نموذجا، دار دمشق، دمشق ١٩٧٣، ص ٢٢٩.

[25] Daniel Bell, The End of Ideology; On the Exhaustion of political Ideas in the fifties , Glencoe, Free Press 1960

ولدته مفردة العولمة في المثقف لعربي في عقد التسعينات، تلك التي نحتها تيودور ليفيت[٢٦]، عبر مقالته التي نشرها في مجلة Harvard Business Review, May–Jun 1983، وبالقدر الذي تمركزت الفرنكوفونية في المغرب العربي، والتي راحت تضخ على المشرق العربي التراجم المتلاحقة، تلك المتعلقة بما بعد البنيوية، وما بعد الحداثة والخطاب والتفكيك، وتكريس أسماء ليوتار وديريدا وفوكو وتودوروف وبورديو، ومجمل النتاج الفكري الفرنسي. أما مثقف المشرق العربي فراح يحث الجهود من أجل تطوير لغته الإنكليزية، بغية اللحاق بزخم المنهجيات الحديثة، تلك التي صارت تتلاحق بقوة لافتة. لاسيما بعد صدور كتاب إدوارد سعيد (الاستشراق عام ١٩٧٨)[٢٧] وشيوع مصطلحات ما بعد الاستعمار، ليتلوها سيل المنهجيات المتعلقة بالتأويلية والتاريخية الجديدة والتحليل الثقافي ودراسات التابع الذي برع فيه الأكاديميون الهنود وأسسوا لكتابة جديدة لفهم وتفسير التاريخ الهندي، والمنهج الثقافي الذي روج له الناقد السعودي عبد الله الغذامي[٢٨].

اللافت في الأمر أن التوجه المكثف نحو العناية باللغة الإنكليزية خلال بواكير القرن الواحد والعشرين، تذكرنا بالعناية اللافتة التي تبدت من قبل المنورين العرب بأهمية إحياء اللغة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؟! فالجامعات العربية صارت لا تتردد من الإعلان الصريح والمباشر بأن لغة التخاطب الأكاديمي هي الإنكليزية. وهكذا راح الأكاديميون العرب يتخاطبون في اجتماعاتهم بلغة أخرى، فيما لم تتردد القيادات التربوية في جل البلدان العربية من افتتاح فروع للجامعات الغربية العريقة، في محاكاة لتجربة الجامعة الأمريكية في بيروت والقاهرة.

---

[26] Theodore Levitt, The Globalization of Markets, Harvard Business Review , May – Jun 1983.

[٢٧] إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ٢٠٠٣.

[٢٨] النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠١

الذهنية المنظمة

لطالما انشغل المثقف العربي بثنائية الذات والآخر، هذا الأخير الذي يتمثل في الغرب المتحصل على جميع أسباب القوة والنهضة والتقدم والهيمنة والسطوة والمبادرة. هذا الغرب الذي تفاعلت فيه مقومات عصر النهضة الأوربية في المعمار والهندية والفن والفلسفة، وقام على ثورة الطباعة على يد غوتنبرغ الألماني عام ١٤٤٧، والإصلاح الديني على يد مارتن لوثر عام ١٥١٧ وثورة الكشوفات الجغرافية في أسبانيا والبرتغال والتي أثمرت عن اكتشاف العالم الجدديد (أمريكا عام ١٤٩٢، وطريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨).

أوربا التي تمكنت من تفكيك أواصر التحالف بين الكنيسة والإقطاع، بمبادرة نهضت بها الطبقة البورجوازية، تلك التي نمت وتوسعت وقدمت التضحيات وصولا إلى ظهور الدولة القومية في أعقاب حرب الثلاثين التي دارت رحاها بين الكاثوليك والبروتستانت، وصولا إلى معاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨، والتي تم من خلالها ترسيم مدار العلاقة بين القوى الدينية والعلمانية. وهكذا تواصلت مسيرة الغرب في ثوراته التاريخية الكبرى حتى بلوغه الثورة الصناعية خلال القرن التاسع عشر، فاختزال تاريخ البشرية برمته، عبر التفعيل والمبادرة والتطوير والابتكار الذي ساد القرن العشرين والذي تكلل في غزو الفضاء. فالقرن الواحد العشرين القائم على الثورة المعرفية والاتصالية.

لم تتردد جميع الأجيال من المثقفين العرب من التطلع الحثيث نحو النهل عن هذا الغرب الذي ما انفك يبادر ويكتشف ويجدد ويطور. لكن النتائج المتعلقة بالنهل والنقل عن الغرب كانت تأتي عكسية في جميع الأحوال والأوضاع؟! بدأها محمد علي باشا في مشروع تحديث الدولة، فاتجه نحو النظم والقوانين والتعليم والطباعة والصحيفة والمجلة وتأسيس المصانع وافتتاح المستشفيات وتبليط وإنارة الشوارع وارتداء الملابس الإفرنجية والعناية بالمدن، وتحديث الجيش وتم استيراد الأسلحة الحديثة وإرسال البعثات التعليمية إلى البلدان المتقدمة، وجيء بالخبراء الأوربيين، وتم تنظيم الطرق والاتصالات بناء على النظام الأوربي. لكن الفارق الواسع والبون الشاسع بقي كما هو. وبعد قرنين من الزمان ها نحن نتواصل في توسعنا مئات المرات في التوجه نحو التسليح الحديث، وأنشأنا مئات الجامعات على النمط الغربي الحديث، لكن واحدة من هذه المئات لم تستطع أن تدرك مرتبة أو موقعا لها بين الجامعات ذات المعايير العالية. وما عاد منزل عربي يخلو من خدمة الإنترنت، وانتشرت الحواسيب المعقدة والحديثة، وغدت أجهزة الهواتف الذكية من الجيل الأكثر تطورا والأغلى ثمنا لعبة بيد أطفال العرب. لكن الفرق ظل على حاله مع هذا الغرب العصي على الحل؟!

لا يتردد ماكس فيبر عن الإشارة الصريحة إلى أن علم الفلك ظهر في الهند والصين وبابل ومصر لكنه انتظم على يد الإغريق من خلال الرياضيات. وأن علم التاريخ ظهر في الصين لكن المنهجية السببية ظهرت على يد ثيسيديس الإغريقي، وعلم السياسة ظهر في الهند لكن تنظيمه جاء على يد ميكافيلي. وأن أصل الطباعة كانت في الصين لكن الحروف المتحركة وطباعة الكتب ظهرت على يد غوتنبرغ الألماني. وأن الجامعات ظهرت في الصين والعالم الإسلامي لكن تخريج الكادر

كان على يد الجامعات الغربية. وهكذا الحال مع الموسيقى والعمارة وتنظيم العمل. إنها تجليات (البنية النظامية والصيغ الدقيقة)[٢٩] ومن هذا تبرز جدارة السؤال حول دور المثقف العربي في التحولات التاريخية، ومحاولة تمييزه وإخضاعه للدرس، هل يتم بناء على مستوى المنجز الفكري؛ وهو الذي لم يتوان عن إنتاج الأفكار وتقديم الطروحات الجادة والعميقة. أم على مستوى التفاعلات والعلاقات؛ وهو الذي تمكن من تحقيق حضوره وأهميته على سدة الواقع. أم على مستوى المصالح؛ وهو أيضا لم يتوان عن الانخراط في تجليات صراع المصالح والمساهمة في الحراك القيمي والثقافي، عبر مشاركته في القضايا التي تهم الواقع سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. مع أهمية الوقوف على أنماط التحول وتأثيرها على دور المثقف، تلك التي تكون مرتبطة بقضايا تطور وسائل الاتصال والتعبير، والتبدلات التي تبرز في المواقف والمكانة بناء على التحول في العلاقات الاجتماعية. وما يطرأ من تبدل على الذائقة والقيم والمعاني، وطريقة التعاطي مع التحولات المادية تلك التي اقتبسها المثقف العربي على الصعيد العلاماتي والرمزي. فقد انشغل المثقف بالزي الإفرنجي أم التقليدي في القرن التاسع عشر. الطربوش العثماني أو القبعة الأوربية في بداية القرن العشرين؟ وراحوا ينظرون بتفرس وتمعن في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية بشوارب هتلر. حتى أن المزيد من أنصار التيار القومي ونكاية بالبريطانيين المستعمرين لم يتوانوا عن قص شواربهم على طريقته. فيما كان التفاعل مع الهزيمتين المفجعتين في التاريخ العربي وخسارة الأرض العربية الفلسطينية إن كان في العام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧، فقد تم التلاعب البلاغي بهما وغدتا عبارة عن (نكبة ونكسة). على اعتبار أن القوى الطامعة في البلاد العربية أرادت حرف مسار

---

[٢٩] ماكس فيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ترجمة أبو بكر با قادر وأكرم طاشكندي، مكتبة مصباح، جدة ١٩٨٩، ص٦١

الوحدة العربية باعتبارها الهدف الرئيس، من خلال إشغالها في معارك جانبية. وعلى هذا تم استبدال شعار (كل شيء من أجل الوحدة)، بـ(كل شيء من أجل المعركة). والذي غدا وسيلة لقمع المثقف العربي والتنكيل به، عندما يعمد للخوض في قراءة نقدية عميقة للواقع والعلاقات المتشابكة والمعقدة التي تتفاعل تحت ظلاله.

فيما كان انشغال مثقف الخمسينات من القرن العشرين بالفجوة التسليحية، حتى كان التطلع نحو الاتحاد السوفيتي بوصفه النصير والظهير لحركات التحرر الوطني. فيما انشغل مثقف النصف الثاني من القرن العشرين لاسيما بعد نهاية الاتحاد السوفيتي وبروز القطب الواحد الأمريكي، (حيث التبشير بالنظام الديمقراطي بوصفه نهاية التاريخ، بحسب طروحات فوكو ياما)[٣٠] بصراع الشمال والجنوب والغني والفقير والمركز والأطراف، والاستقلال والتبعية وقضايا الهوية والعولمة. والتوقف عند سؤال؛ حوار أم صراع حضارات؟ بناء على طروحات صموئيل هنتنغتون[٣١]. أما مثقف القرن الواحد والعشرين، فمنشغل بإفرازات الفجوة الرقمية.

أسئلة ما انفكت تحضر في الواقع العربي استجابة للمؤثر الخارجي، وليس تفاعلا صميما مع الواقع العربي. وبإزاء كل هذا لا يمكن التغافل عن الفروق الفردية بين هذا المثقف أو ذاك. أو أهمية الوقوف على التمييز بين الوحدات الجماعية وأشكال التحول التي تطرأ على علاقاتها العائلية وتعليمها ونظامها السياسي. أو التحولات التي تتفاعل وسط الجماعات الفرعية في الحاضرة والريف والبادية وطرق العيش السائدة ومعدلات الاستهلاك.

---

[٣٠] فوكو ياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة، القاهرة ١٩٩٣.
[٣١] هنتنغتون، صراع الحضارات وإعادة بناء النظام الدولي، ترجمة عباس هلال، دار الأمل، الأردن ٢٠٠٦.

العقلانية الملفقة

لم يتوان المثقف العربي من ترصد أجواء القصور والوهن التي تحيط بالواقع العربي، حيث الحضور الواسع للتبعية والخضوع الرتيب لما يتفاعل لدى الآخر، حتى بات التفاعل الثقافي في المجال العربي مجرد استجابة ورجع صدى لما ينتجه الآخر. الغربي تحديدا، وفي أحسن الأحوال توجه النظر نحو بعض التجارب التي قيض لها أن تنهض وتحقق لنفسها نموا وحضورا بين الأمم. وهكذا وجه المثقف العربي سؤال المقارنة بين تجربتي التحديث العربية واليابانية، تلك الأخيرة التي جاءت متأخرة عن مبادرة محمد علي باشا في مصر التي بدأها منذ عام ١٨٢٦ في حين أن اليابان ارتبطت بإصلاحات الإمبراطور ميجي عام ١٨٦٨. وبالقدر الذي يتوقف فيه الباحثون عند دلالة الحسم الذي تميزت به التجربة اليابانية، باعتبار اعتمادها على شعار (التحديث الغربي والروح اليابانية)[٣٢]، والتركيز على التنمية البشرية. فإن الأمر في التحديث العربي لم يكن يختلف كثيرا عن هذه التوجهات. لكن الحفر العميق في الواقع يكشف عن المزيد من الحلقات الناقصة في معادلة النمو والتطور التي صاحبت التجربتين. فقد قيض لليابان من الخلاص من إرثها الإقطاعي حين تمكنت من تفعيل الديانة الشنتوية مع التحديث الغربي. في حين أن التحديث العربي جاء وبكل ما فيه من قوة، نحو التأصيل والترصين للمجمل من مقومات السلطة والسيطرة، عبر التركيز على الاحتكار والتحالف مع القوى الإقطاعية.

---

[٣٢] مسعود ضاهر، النهضة العربية والنهضة اليابانية تشابه المقدمات واختلاف النتائج، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٩، ص٢٣٢.

وعبر هذا المعطى تحولت الثقافة من ميدان يسعى نحو تحقيق التحديث والاستنارة، إلى مجرد عتلة تدور في عجلة السلطان – الوالي. وعبر هذا المحتوى تم الإبقاء على المحتوى الدلالي الذي يعمل على إنتاج المعنى، ذلك الذي عقد أواصر تحالفاته الصميمة في صلب المحتوى الديني. سعيا نحو قطع الطريق على القوى المناوئة التي ما انفكت تعمل على التحريض والمناوئة والمنافسة، من خلال الاعتماد على الخطاب الديني المتطلع نحو ملامسة عواطف العامة. وهكذا انطبع التمدين والتحديث والتثقيف العربي بناء على تجربة محمد علي باشا بالفوقية المتطلعة نحو تكريس مزايا السلطان. بل أن روح المناورة كان السمة الغالبة على هذا الاتجاه، الذي تطلع نحو جعل رجال الدين تلك القوة التي كانت تتمتع بالاستقلال الاقتصادي، وتحويلهم إلى مجرد موظفين تابعين لسطوته وإرادته[٣٣].

هذا التفاعل ساهم وإلى حد بعيد في تكريس تسلل التفكير القديم، القائم على تركيز موجهات البحث في الحقيقة المطلقة، والتغاضي عن البحث عند مستوى الحقائق الجزئية. وبهذا غابت عن المؤسسات والمعاهد والمصانع الحديثة، وعلى مختلف الحقب التاريخية التي مرت على الواقع العربي وحتى الراهن الذي نعيش (النزعة التجريبية)، بل وأن المختبرات والمعامل العلمية ومراكز البحث العلمي الماضية والحالية غدت بمثابة واجهات، لا تزيد في أحسن الأمثلة عن كونها ديكورا يتم من خلاله إتمام المشهد. حيث انخراط العاملين فيها في فعاليات التدريب والتأهيل من دون الحصول على النتائج الفعلية والعملية. فالحلقات العملية الدقيقة والفاعلة يتم استقدامها من هذا ا الغرب المتقدم. إن كان في مصانع النسيج أو في مصافي البترول أو في المختبرات العلمية

---

[٣٣] هنري لورنس، المملكة المستحيلة، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٧، ص ٦٢.

التي تزخر بها الجامعات العربية ومؤسسات البحث العلمي الرسمية، من دون أن يكون لها فاعلية تذكر. أما النتاج الثقافي العربي الغزير الذي يقوم على تجليات المنهج الاستقرائي عمقا ومنهجا وتحليلا، فكان حاضرا وفاعلا على صعيد النخب، في حين أن التطبيقات الفعلية التي تتم ممارستها على صعيد العلاقات الاجتماعية تتخذ نزوعا مفرطا في المنهج الاستنباطي القديم[٣٤].

المثقف في صلب التجربة

ثلاث تجارب في ثلاثة بلدان عربية، يمكن من خلالها تلمس دور المثقف العربي في صلب التحولات التاريخية، التي مر بها العالم العربي. حيث جماعة الأهالي في العراق، وجماعة الإخوان المسلمين في مصر، وجبهة التحرير الوطنية الجزائرية. روعي في اختيار هذه النماذج أوضاع التنوع والاختلاف في المحيط والنشأة والتوجه الفكري، فالأهالي العراقية ذات توجه ليبرالي ديمقراطي، والأخوان المصرية إسلامية وسطية، وجبهة التحرير الجزائرية بوصفها ذات توجهات اشتراكية.

نشأت الأهالي بين الطلبة العراقيين خلال فترة عشرينات القرن العشرين. وتميزت توجهاتها في الانغماس بالقضايا الوطنية، حتى كانت المساهم والمشارك الفاعل في العديد من القضايا، مثل إضراب طلبة الإعدادية المركزية في بغداد عام ١٩٢٦، بسبب تطاول أحد المدرسين الإنكليز بحق القوى الوطنية المناوئة والمعارضة للمعاهدة العراقية – البريطانية عام ١٩٢٦، وتكرر موقف الطلبة المركزية وبمشاركة طلبة دار المعلمين عندما نظموا مظاهرة خرجت في وسط العاصمة، تطالب بحرية الفكر في أعقاب تعرض الأستاذ زكريا النصولي للفصل في فبراير – شباط ١٩٢٧ جراء

---

[٣٤] سمير امين، نحو نظرية للثقافة، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٩، ص ٨١.

نشره لكتاب (الدولة الأموية)[٣٥]، لتواصل هذه الجماعة دورها في تنظيم مظاهرة حاشدة بلغ عدد أفرادها حوالي عشرين ألفا بالتعاون مع نادي التضامن ذي التوجهات القومية، تنديدا بزيارة الشخصية الصهيونية الفريد موند عام ١٩٢٨. وهكذا تبلورت الاتجاهات الفكرية على يد الأربعة المؤسسين وهم عبد القادر إسماعيل وحسين جميل، وعبد الفتاح إسماعيل ومحمد حديد. ويعد تاريخ إصدار العدد الأول من جريدة الأهالي في الثاني من يناير – كانون الثاني ١٩٣٢ التاريخ الرسمي لنشأة هذه الجماعة[٣٦]. وكان لها المساهمة المباشرة في المزيد من القضايا التي تهم المواطن، إذ نشط أعضاؤها في مجال محو الأمية حيث توجهت نحو افتتاح العديد من المدارس المسائية لاستقبال فئة كبار السن. وكان لها مواقف صارمة بإزاء الشركات الاحتكارية، مثل شركة الكهرباء التي كانت تبالغ في تسعيرة الوحدة الكهربائية. إلا أن التطور الأهم في مسيرتها تمثل في تحالفها مع السياسي حكمت سليمان والجنرال بكر صدقي، والذي أثمر عن أول انقلاب عسكري في تاريخ العالم العربي عام ١٩٣٦[٣٧].

جماعة الإخوان المسلمين تعود في أصولها، للجهود التي بذلها المدرس الشاب حسن البنا في مدينة الإسماعيلية منذ العام ١٩٢٨. والذي عرف بالتزامه الديني حيث تمكن من استقطاب الجمهور من خلال قدراته الوعظية والخطابية، وشخصيته المؤثرة. فكان تركيزه حول أهمية الاعتماد على الإسلام في بناء تجربة النهضة والتحديث، ومواجهة التحديات التي يفرضها الاحتلال

---

٣٥ ساطع الحصري، مذكراتي في العراق ١٩٢١- ١٩٤١، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٧، ص ٥٥٧.
٣٦ مذكرات كامل الجادرجي، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٠، ص ٢٣.

٣٧ مظفر عبد الله أمين، جماعة الأهالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠١.

البريطاني لمصر. السمة الأهم في جماعة الأخوان أنها قامت على الطابع العملي والتطبيقي[٣٨]. فلم تستغرق في لعبة التنظير ومخاطبة الجمهور من الأبراج العاجبية، بل أنها تفاعلت مع الواقع من خلال افتتاح المزيد من المشاريع الاجتماعية التي تحتاجها الفئات الفقيرة والكادحة. مثل المدارس المسائية والورش الصناعية الصغيرة والصيدليات والمستوصفات التي تقدم خدماتها بأسعار رمزية، بل وفي الكثير من الأحيان مجانا.

استطاعت الجماعة ومن خلال هذا التوجه أن تستقطب المزيد من الفئات الفقيرة والمسحوقة وأبناء الطبقة المتوسطة الدنيا. ومن ثلاثة فروع للجماعة عام ١٩٣١، تضاعف العدد مائة مرة حتى بلغ ثلاثمائة فرع عام ١٩٣٨. لقد تميز عمل الجماعة بالتنظيم الدقيق الممنهج، فكان التطلع نحو التوسع ببرامج النشر والتثقيف، من خلال التوجه نحو إنشاء مؤسسة للنشر والتوزيع، وتأسيس مطبعة وإنشاء شركة سينمائية لإنتاج الأفلام الروائية الطويلة. وركزت الجماعة على أهمية أن يكون للدولة دورها الرئيس في توجيه الاقتصاد ومواجهة القوى البورجوازية والحد من نفوذهم واستغلالهم للطبقات المعدمة والفقيرة. فكانت المطالبة الصريحة بأهمية اعتماد سلاح التأميم، وأهمية التوجه نحو التوسع في تبني النظام المصرفي الإسلامي الذي يقدم القروض الميسرة الخالية من الربا. مع أهمية العناية بالمشاريع الرئيسة التي تهم المواطن مثل الإسكان الشعبي[٣٩] والبرامج الصحية ومكافحة البطالة.

---

[٣٨] عثمان عبد المعز رسلان، التربية السياسية عند جماعة الإخوان المسلمين في الفترة ١٩٢٨ – ١٩٥١ في مصر – دراسة تحليلية تقويمية، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة ١٩٩٠. ص ٣٦.

[٣٩] محمد متولي، الإخوان المسلمون والعمل السياسي دراسة تاريخية، لا ناشر، القاهرة ١٩٨٩، ص ٨٢.

الإخوان المسلمون جماعة تقوم على النهل من العقيدة الإسلامية باعتبارها الموئل والمرجع الرئيس، إلا أن هذا لم يمنعها من التعاطي مع الفكر الغربي بطريقة براغماتية. حتى أن حسن البنا لم يتردد من الانفتاح على الفكر الغربي قراءة وتوظيفا للبعض من المناهج الحديثة في التحليل والقراءات. أو على صعيد توجيه البعض من أعضاء الجماعة للدراسة في الجامعة الأمريكية في القاهرة. المهم أن الجماعة لم تكن تتعامل مع الغرب بوصفه عقدة، بقدر ما هو واقع يجب التعاطي معه، من منطلق التكافؤ فإن كان للغرب معطياته المادية التي يتفوق بها، فإن المسلمين لديهم المعطى الروحي الذي يمثل المكافئ الموضوعي، إن لم يكن الأكثر رجاحة وأهمية لدى منظري الجماعة وقوادها.

على الرغم من تركيز الجماعة على العمل الفكري والاجتماعي، إلا أن الأصداء الشعبية والتفاف الجماهير حولها، أبرز ميلا نحو ممارسة العنف، وهذا ما تجلى في تصاعد أعمال العنف بين الجماعة والحكم الملكي في مصر آنذاك، والذي تمخض عنه اغتيالا مدبرا لحسن البنا في فبراير ١٩٤٩، ولم تكن أحوال العلاقة مع الحكم الجمهوري بأحسن حالا[٤٠]. إذ تفجرت التناقضات في التوجهات والغايات، حتى بلغت أقصاها في إعدام أبرز منظري الجماعة سيد قطب عام ١٩٦٦، بعد اتهامه بقيادة حركة انقلابية ضد النظام الجمهوري.

نموذج جبهة التحرير الوطني الجزائري، يعد تمثيلا للمجمل من نضالات وجهاد الشعب الجزائري بوجه الاستعمار الفرنسي، وهو امتداد لنضال عبد القادر الجزائري وبومعزة وبو زيان وأولاد سيدي الشيخ، وبحلول القرن العشرين تحولت قيادة المقاومة الوطنية من طابعها الريفي –

---

[٤٠] سليمان حكيم، عبد الناصر والإخوان من الوفاق إلى الشقاق، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة ٢٠١٠، ص ٦٧.

القبلي إلى المديني - الحضري، وهذا يعود إلى بروز دور جيل المتعلمين الذي نالوا تأهيلهم العلمي الديني في الأزهر والزيتونة. أو من نالوا تأهيلهم العلمي على الطريقة الغربية لاسيما الفرنسية. كان لهذا التزاوج بين الثقافتين أثره البالغ في إنتاج وعي فريد، وروح شديدة الخصوصية[٤١]، كان لها الأثر الأبرز في تفعيل الحركة الوطنية، وتأهيلها في طرح المزيد من الأسئلة والتحليلات البعيدة عن العاطفية، والتي أثمرت إنتاج مواقف في غاية الأهمية، كان لها الدور الحاسم في تحديد مسار الحركة الوطنية لوجهتها وتحديد هدفها.

تفاعل دور المثقف العربي الجزائري، من خلال التركيز على العمل السياسي، فكانت حركة الأمير خالد وحزب نجم شمال أفريقيا وجمعية العلماء المسلمين وحزب الشعب الجزائري وحركة الكشافة الإسلامية الجزائرية. جميع هذه الحركات والأحزاب كان لها الدور البارز والأهم في تفعيل مسار الكفاح الوطني[٤٢]، ذلك الذي تبلور في تعزيز خيار الكفاح المسلح وإعلان الثورة الجزائرية في الأول من نوفمبر ١٩٥٤.

تشظي المثقف

لم تنج النماذج الثلاث (الأهالي العراقية، الإخوان المصرية، جبهة التحرير الجزائرية) من أعراض التشظي الدلالي Fragmentation of Significance[٤٣] الذي نال من المثقف العربي. جماعة

---

٤١ محمد حربي، وكميل داغر، جبهة التحرير الوطني الجزائرية ١٩٤٥ – ١٩٥٤ الأسطورة والواقع، مؤسسة الأبحاث العربية، الجزائر ١٩٨٣، ص ٣٢.

٤٢ إبراهيم لونيس، الصراع السياسي داخل جبهة التحرير الوطني خلال الثورة التحريرية ١٩٥٤-١٩٦٢، دار هومة، الجزائر ٢٠٠٧، ٤٣.

43 Barry Jones, Peter Jones, Ken Dark and Joel Peters, Introduction to International Relations , Manchester University Press, 2001, p 170.

الأهالي التي قامت على الإعلاء من دور النخبة المتعلمة في التغيير والنهوض بواقع البلاد، من خلال المناداة بشعار الشعبية، والسعي نحو ردم الفجوة الطبقية، والحرص على النهوض بالمواطن من خلال مشاريع محو الأمية وافتتاح عددا من المدارس المسائية. لكن ملامح التشظي والانكسار في المعنى سرعان ما تبدت أعراضها في أحوال التحالف الذي قام بينها والسياسي حكمت سليمان والجنرال بكر صدقي. والذي تمخض عن أول انقلاب عسكري عام ١٩٣٧، كانت ضحيته رئيس الوزراء ياسين الهاشمي، واغتيال الجنرال جعفر العسكري مؤسس الجيش العراقي.

وجماعة الإخوان التي تأسست على المشروع الاجتماعي والمناداة بالإسلام الوسطي، سرعان ما وقعت فريسة للتوجهات السياسية تلك التي تصاعدت، حتى راحت تتمثل في الاغتيالات السياسية، والتي بلغت أقصاها باغتيال رئيس الوزراء النقراشي باشا عام ١٩٤٨. وبالمقابل تم اغتيال حسن البنا من قبل البوليس السري في فبراير ١٩٤٩. ولم تكن أوضاع الجماعة في العهد الجمهوري أحسن حالا. إذ تعرضت جموع غفيرة منهم للسجن والاعتقال، والتي بلغت ذروتها في إعدام سيد قطب عام ١٩٦٦.

أما جبهة التحرير الجزائري والتي قامت على عقيدة النضال والكفاح المسلح، والعمل على تحرير الوطن من نير الاستعمار الفرنسي المباشر. حتى قيض للشعب الجزائري أن يقدم درسا بليغا في التاريخ الحديث والمعاصر في التضحية والوطنية، حين قدم على مذبح الحرية مليون شهيدا. إلا أن انكسار الدلالة سرعان ما تبدى في الصراع على السلطة. فقد تصاعدت حمى الصراعات بين قيادات الجبهة في مرحلة ما قبل الاستقلال، وتفاقم الصراع بعده، حتى أن الهواري بو مدين لم

يتردد عن الإطاحة برفيق نضاله الرئيس بن بلة عام ١٩٦٥، ليطلق على حركته الانقلابية (التصحيح الثوري).

عبر هذه النماذج يمكن الوقوف على التشويه الذي نال من نظام التسمية. فالليبرالية التي تنادت بها جماعة الأهالي، حين تحالفت مع قوة عسكرية ساعية نحو السلطة، نالها المزيد من التحوير والانقلاب في المعنى. حتى راح السؤال حول مدى وجدية هذه العلاقة بين الليبرالية والديمقراطية والدكتاتورية. وفي جماعة الإخوان المسلمين فإن تحميل المعنى راح ينال منظومة المقدس. حتى أن الكثير من الكتابات التي تناولت موضوع الاغتيالات التي قامت بها الجماعة، صارت تتجنب ذكر (المسلمين) وتكتفي بتسمية (الإخوان) للتعريف بهذه الجماعة. فيما تعرضت تسمية الثائر في النموذج الجزائري إلى تحميل معنى مغاير، بعد أن صارت تدل على (السلطوي).

تشظي الدلالة وانكسارها باتت تحضر وبقوة لافتة في مجال التداول العربي، لا بوصفها لعبة بلاغية تقوم على الاستعارة والتورية. بقدر ما صارت تتسلل في صميم المعنى الأصلي، وتضيف عليه الدلالة المتوخاة من قبل المهيمن والمسيطر وصاحب المبادرة. وهكذا صار إنتاج الدلالة يرتبط وبشكل مباشر بالفاعل الرئيس الذي يمسك بمفاتيح المعاني، والذي من خلاله صارت تتم توجيه التهم وتحديد مسار الإقصاءات. مما نجم عن هذا الواقع أحوال الصدام والتناشز والعدائية والانقسام. إنها فعالية التهجير القسري للمعاني، بين الديني والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، والسعي الجاد والحثيث نحو زحزحة المفاهيم ، والتطلع نحو إلباسها أثوابا بألوان محددة.

حمولات التأويل

من خلال ممارسة المثقف لدوره في الواقع تتبدى فعالية الإنتاج من خلال الفعل، وفعالية التأويل من خلال الفكر. تلك الثنائية تكون بمثابة المهاد الذي يتم عبره الوقوف على ترصد مستويات التعبير والمحتوى. فكلمات مثل الديمقراطية والليبرالية والشعبية والنضال، يتم التعاطي المباشر معها بوصفها (دال). لكن البحث العميق فيها يقود نحو البحث عن (المدلول) حيث المحتوى الذي تتضمنه. ومن هذا يكون السؤال الأكثر حضورا يتعلق عادة بالبحث عن المحتوى العميق والأصيل والراسخ الذي يقوم عليه تعبير مثل (الديمقراطية) على سبيل المثال؟ لا شك أن السياق بوصفه المجال الذي يحتوي النسق القيمي والثقافي، ستكون له مساهمته في إبراز المعنى[٤٤]. ولكن يبقى سلسال الأسئلة عالقا حول إنتاج الدلالة وآليات اشتغالها في نسق ما. فلو قيض لنا البحث في (فعل الديمقراطية) و(تأثير الديمقراطية). فما هو الممكن والمتوقع بإزائهما في نسق المعاني العربية، باعتبار التراكم التاريخي للأفكار والعلامات، والتي راحت تشكل طريقة التعاطي مع (الديمقراطية) بوصفه علامة لا يستقيم موضوعها من دون أن يتوافر مؤول لها.

في مرحلة نشؤ الدولة القطرية التي ظهرت في العالم العربي، في أعقاب الحرب العالمية الأولى، ورسم الخارطة السياسية بناء على معاهدة سايكس – بيكو. لم تزد الديمقراطية عن كونها (كلمة – علامة)، كثيرا ما كانت تتعرض للتصحيف (اللفظي والمعنوي). هذا بحساب عجمتها

---

[٤٤] سعيد بنكراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، منشورات الزمن، الدار البيضاء ٢٠٠٣، ص ١٤٥.

والرطانة التي تقوم عليها. فهي علامة لفظية يتم تداولها في نسق لغوي وثقافي مختلف. أما الجانب المعنوي فيها فإنما يقوم على طريقة التمثل للجانب المعرفي الكامن فيها. المثقف الإسلامي استحضر البديل القائم على الشورى المستمد من التراث والهوية الدينية، والقومي شكك بها باعتبارها قيمة مستوردة لا تعدو أن تكون وسيلة للغزو الثقافي، والماركسي اعتبرها من التراث البورجوازي الرأسمالي الاستغلالي.

في قصيدته الغاضبة بإزاء الحكومة العراقية التي أصدرت الدستور، في ظل الانتداب البريطاني. واستبعاد الرصافي (توفى عام ١٩٤٥) من الواجهة السياسية، يقول فيها (أسماء ليس لنا سوى ألفاظها – أما معانيها فليست تعرف). إنه البحث في الحكومة والسياسة والسلطة والنظام والمجتمع، والاقتصاد والدين والثقافة. بوصفه الموضوع الذي يقوم عليه الواقع العراقي. لكن المفهوم يتم تغييبه، حين يشير الشاعر وبشكل مباشر، إلى أن هذا الواقع لا تتفاعل فيه سوى الألفاظ الفاقدة للمعنى. الملفت في الأمر أن ذات الإشكاليات التي طرحها الشاعر معروف الرصافي، قبل ما يقارب على القرن من الزمان، تجدها في راهن العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين، كما هي وبذات الأوصاف والتفاصيل والأسماء والعلاقات، لم يتغير فيها سوى الواجهات، فنموذج الدولة الوطنية الذي تبدى تحت ظل الانتداب البريطاني، تم فيه تقديم المؤهلين من تحصلوا على التعليم في العهد العثماني المتأخر، وتراجع دور القوى الدينية ذات المواقع التقليدية، في حين أن متغيرات القرن الواحد والعشرين، حيث النظام الدولي الأحادي القطبية، وتفاعلات العولمة وتنامي ملامح الثورة المعلوماتية والاتصالية، قد أفرز نمواً لأحزاب الإسلام السياسي، بإزاء الأحزاب الليبرالية. فيما توسطت هذه العلاقة أدوار العسكر في الثورات والانقلابات، لاسيما بعد الحرب

العالمية الثانية، وما تمخض عنها من تحولات رعائية، أسهمت وإلى حد بعيد في بناء الدولة الحديثة، حيث التوسع في التعليم والخدمات الصحية والإصلاح الزراعي وخدمات الإسكان وبناء المدن والتوكيد على الاستقلال الوطني.

إلا أن التآكل فيها تبدى عبر سيطرة القوى الدكتاتورية التي اتجهت نحو نزعة التوريث والسيطرة العامة والشاملة على مقومات الدولة. وتنامي دور العدة القمعية للدولة عبر تكثيف دور أجهزة البوليس السري والرقابة على الثقافة والإعلام، والنهب المنظم لموارد الدولة، وسيادة الروح القرابية والعشيرية للسيطرة على أجهزة الدولة ومفاصلها الرئيسة، والسعي نحو صناعة المواطن التابع، الذي يلهج بالحمد والثناء للزعيم الملهم الأوحد.

صراعات السلطة الرمزية

لا يمكن تمييز الثقافة من دون الوقوف على أوضاع التفاعل، القائمة بين الأفراد ضمن نسق اجتماعي. تفاعل يتم من خلاله تمييز الأدوار والأداء والمواقف والذهنيات. إنه البحث في المجال الذي يحوي ويضم المجمل من الأنساق القيمية التي تحدد مسار الأفعال والتمثلات والسلوكيات المتوقعة من قبل الأعضاء المنضوين داخل المجموعة البشرية. والتي تساهم في إدراك الأفراد والمجموعات لموقعهم وبالتالي طريقة التفاعل في الفضاء الذي يحيون فيه[٤٥].

[٤٥] دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ٢٠٠٧، ص ٨٨.

المثقف العربي بوصفه كائنا يحيا في خضم التفاعلات التي يفرزها الواقع. لا تغيب عن مدركاته أوضاع الصراع المادي والرمزي بين مختلف القوى الاجتماعية (السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية)، صراع يدور حول المواقع التقليدية حيث الهيمنة والحضور والجاه والمكانة، والسعي نحو السيطرة على مقومات وعناصر السلطة القائمة على (النفوذ، المعرفة، الثروة بشكل أقل). صراع لا يني من الحضور الدائب والدائم، حيث الحضور للتكيف الذي يبدر عن المثقف بغية التوافق مع التحولات التاريخية، تلك التي تتبدى في أكثر من شكل، لعل الأبرز من بينها؛ صراع بين القديم المتطلع نحو الحفاظ على المكانة التي يتمتع بها، والجديد الطامح للولوج في دائرة الحضور والتفاعل. أو المسعى نحو إحداث نوع من التوازن بين الطرفين، بناء على المبادرة الصادرة من القوى التقليدية القديمة المكرسة، والتي تتوجه نحو فسح المجال أمام الجيل الجديد، بغية الحفاظ على هيمنتها، وتجنب إحداث صدام مباشر قد يلحق الضرر بامتيازاتها التي تحصلت عليها، من خلال فسح المجال أمام أوضاع التسلل المتدرج غير المباشر[٤٦].

[46] Pierre Bourdieu, Outline of a Theory , Translated by Esquisse D'un, Cambridge University Press, UK 1977, p 159.

المبحث الثاني

إدوارد سعيد؛ الثقافة والأرضية المشتركة

إدوارد سعيد بتكوينه الثقافي الرصين، وعمق تجربته الإنسانية. استطاع أن يحتل مكانة مرموقة في الفكر الإنساني. عبر تمثله الدقيق للمناهج والنظريات الأدبية الحديثة. حتى قيض له الوقوف على منهجية علمية صارمة، استطاع من خلالها التأسيس لقراءة تقوم على التنوع والاختلاف. بعد أن تطلع نحو تفكيك المسلمات والمقولات الجاهزة، وراح يحفر بعقل الناقد الجذري نحو توسيع افق القراءة. عقل توجه بكل ما يملك نحو ترصد مسار العلاقة الشائكة والمعقدة التي راحت تتشابك الدلالة فيها ما بين (المعرفة والأيديولوجيا). وعبر مسار الترصد المنهجي المدقق كان الوقوف على المعطى المعرفي (الإبستمولوجي) النائي بنفسه عن الحلول الوهمية. ومن هنا تحديدا توجه سعيد نحو تحليل الخطاب الاستعماري، من خلال الكشف عن الممارسة الأيديولوجية الغربية الاستعمارية، تلك التي قامت على النهب المنظم، والسعي نحو تهميش الآخر، عبر الترويج للسرديات الكبرى و، تلك التي تقوم على جملة من الأساطير والإدعاءات مثل؛ الشرقي الكسول المخادع المتخلف، بإزاء الغربي النبيل المتمدن صاحب رسالة تمدين العالم.

لم يكن الجهد المعرفي الذي بذله سعيد قد انصب على الإدانة أو الانخراط في تجليات جلد الذات. بقدر ما كان التوجه نحو تخصيب القراءة بفاعلية شديدة الدلالة، والتوجه نحو فرز

وترصد الأنساق الثقافية المضمرة لدى الغرب. ومن هنا تحديدا كان سعيد قد وضع يده على نظرية (**ما بعد الاستعمار**) مسترشدا بالمزيد من القراءات والطروحات الفكرية والنظرية التي اجترحها فوكو في الخطاب، وغرامشي في الهيمنة وديريدا في التفكيك. مستعينا بقراءة نقدية معمقة تقوم على التوفيق الصارم بين الذاتي والموضوعي. والعناية الشديدة بالمراحل التاريخية باعتبار أن لكل مرحلة تاريخية نظامها وعلاقاتها وأنساقها الخاصة. والعمل على التمييز الصارم بين المعرفة والأيديولوجيا.

كتاب الاستشراق لـ إدوار سعيد يمثل لحظة فارقة في الدرس الفكري حول دراسة وتحليل الظاهرة الثقافية. وبالقدر الذي توطدت فيه معالم الدرس الاستشراقي عبر السنوات الطوال من الجهد العملي المضني، والاجتهادات والرؤى والتصورات المختلفة. إلا ن قراءة إدوار سعيد عام ١٩٧٨[٤٧]، جاءت لتضع يدها على المسكوت عنه عبر تفكيك الظاهرة والعمل على وضعها تحت مشرط النقد العلمي المنهجي الصارم. لاسيما على صعيد ترصد أوضاع الاختلاف القائم في طريقة التوجيه والتحديد الذي درجت عليه الدراسات الاستشراقية، ضمن استقرار أحوال النظرة الاستعلائية التي قامت عليه جهود الفكر الغربي في طريقة التعاطي مع الشرق الذي وضع تحت مدار التبسيط للمجمل من مدركاته وتفاعلاته.[٤٨] إنها التمثلات Representations التي تقمصها الفكر الغربي حول الشرق، وراحت تشكل تعمية للصورة المفترضة حول الشرق. وهي المحاولة المتطلعة نحو تمييز ملامح الخطاب الغربي Discourse الذي استغرق في التمركز وراح يشّكل الآخر

[47]. Edward W. Said, Orientalism , Pantheon Books, USA 1978, 368 pages

[48]. Brown, J.D.J. (2010) A Stereotype, Wrapped in a Cliché, Inside a Caricature: Russian Foreign Policy and Orientalism. *Politics*, 30(3), pp. 149–159.

الشرقي وفقا لما استقر لديه من تفاعلات ومشغلات، حتى راحت ملامح التحيزات تتبدى حول هذا الشرق الي تم وضعه في خانة من التخيلات الثابتة غير القابلة لأية مرونة. رؤية تتطابق ومقولة الشاعر كبلنغ Kipling (الشرق شرق والغرب غرب)[٤٩] حيث التنميط لصورة المجتمعات الشرقية لاسيما العربية والإسلامية، والتركيز على الشرق الأوسط ثقافة وعقليات بوصفه مختلفا عن الغرب بالمجمل من العادات والتقاليد والثقافة والرؤى والتصورات.[٥٠]

فرضية القراءة

استثمر سعيد المنهجية الماركسية في تحليل الظاهرة، لكن هذا الاستثمار جاء محملا بالمزيد من روح النقد العلمي المدقق، فقد قيض له الإفلات من الصيغ الجاهزة، لاسيما في ما يتعلق بمفهوم البنية الفوقية وتأثيرها على بنية الإنتاج الاقتصادي، حتى راح يحلق في فضاء من المرونة المنهجية عبر استثماره لدور المثقف في التغيير الاجتماعي، مستفيدا من الطروحات المنهجية التي قدمها لوكاش ولوسيان غولدمان وأنطونيو غرامشي حول مفهوم الهيمنة والعلاقة القائم بين المثقف والسلطة. من خلال العمل على تقويض المقولات التي تبشر بها السلطة السياسية من خلال السيطرة على وسائل الإعلام والتربية والتعليم. ولم يغب عنه استثمار الطروحات التي قدمها الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا حول التفكيكية، الساعية نحو رصد الثغرات التي تمتلئ بها النصوص، والتطلع نحو تمييز الاختلاف في في التفسير والدلالة للأشياء. عبر العمل على ربط النص التاريخي بسياقه التاريخي، لاسيما التطلع نحو

---

[49]. Rudyard Kipling Rudyard Kipling , Sterling Publishing Company , New York 2000. P26.

[50]. The New Fontana Dictionary of Modern Thought, Third Edition, Allan Bullock and Stephen Trombley, Editors. 1993, p. 617.

توظيف مقولات ميشل فوكو حول لكل مرحلة تاريخية نظامها التاريخي ومقولاتها الخاصة بها.[٥١]

قضايا القراءة

من صلب النص يحاول إدوارد سعيد الغور العميق في تفصيلات العلاقة ما بين المعرفة والواقع[٥٢]. ومن دون الوقوع تحت رهان الأهمية والأسبقية التي قد يسبغها البعض على هذه العلاقة التي قد تفجر المزيد من التوتر، يكون الدائب نحو الوقوف الصارم والدقيق على معالم النص الذي تكمن فيه معالم الإنتاج وعلى مستوى طرفي العلاقة؛المعرفة والواقع. ومن الانغماس في صلب التفاعل المنهجي يتم لسعيد الإفادة الصحيحة من التأسيسات التي يضعها الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو، حيث التركيز على مضمون الخطاب[٥٣]، الذي يشكل حضورا ومرتكزا شديد الأثر، من دون الوقوع تحت تأثير منتج النص نفسه. ومن هذا الوعي المستند الى الوعي الصارم بالدلالات وتوزيعات العلاقة، يبرز فكر سعيد في أشد حالاته خصوصية وتميزا، لاسيما فيما يتعلق بترصده الدقيق لدور المؤسسة وكم السلطة الكامن فيها وطريقة تداول المعنى الذي تحاول أن تطرحه وتؤسس له.

لعل المضمون الأبرز في مشروع سعيد الفكري يقوم على البحث التفصيلي في طريقة الوعي بالحقيقة، وهل أن هذه الأخيرة تمثل النتيجة الانهائية في أسلوب التعامل مع مفهوم الخطاب، حيث الانطلاق من المسلمات التي لا تقبل الدحض أو النقد، والاكتفاء بهذه الطمأنينة المفرطة بقوة المرجع وثبات العلاقة فيه، أم أن الإنتاج الفكري يجعل منه متطلعا نحو البحث عن وعي قوامه الخروج من دوامة الانبهار، والاندراج في فعالية التأويل المستندة الى تفكيك عرى العلاقة القائمة بين المرجع الذي تصلب حدّ الثبات، وأنماط الخطاب الذي يحيل الى المزيد من الفعاليات

[51]. Mark Olssen , Michel Foucault: Materialism and Education , Routledge , New York 2016, p 52.

[52]. Bill Ashcroft, Pal Ahluwalia , 2008, Edward Said , Routledge , New York , p 64.

[53]. Hubert L. Dreyfus, Paul Rabinow, 2014, Michel Foucault: Beyond Structuralism and Hermeneutics, Routledge , New York , p 94.

الذهنية والفكرية. ومن هذا المعطى القائم على الحراكية والتفاعل الحي، كان التطلع نحو الكشف عن مدى الصدق والتشويه (القراءة المغلوطة) في طريقة الوعي بالحقيقة. ومن دون الاستغراق في ثنائية الصحيح والخطأ، انصبت الجهود المعرفية من لدن سعيد نحو الاستقصاء الفكري العميق في صلب مسألة المعرفة. والتي لم يتوقف عند مسألة التنظير أو الاندراج في مجال التوصيف لتجلياتها وأشكالها. بل أن الجانب الأساسي في كل هذا، كان قد تبلور في طريقة التطبيق المنهجي الصارم لتجليات الخطاب، حتى كان مشروعه الفكري العميق، الذي أنبأ عن ألمعية مبرّزة تمثلت في كتابه الأبرز والأهم (الاستشراق)، حيث كان الاهتمام قد انصب حول ترصد مجال العلاقة بين النص والواقع(٥٤)، في محاولة مركزية تمثّلت في البحث عن طريقة صنع الواقع، وليس الاندراج في فعالية البحث عن التوصيف أو ترصد التشوهات التي نالت من هذا الواقع الذي جعله موضوع الدرس.

إشكاليات القراءة

وجّه سعيد عنايته نحو الخطاب باعتبار البحث الصميم في صلب العبارات، التي تحيل الى الموضوع والعناية الجادة بسلسلة الترابط القائمة بينها، وصولاً الى ترصد المفاهيم المنتظمة والدائمة. ومن الوعي بالنسق اللغوي والفكري قيض له الوقوف على التشكيلة الخطابية التي يحدد الانتظام منها المنطوق. وعلى هذا يبرز الاهتمام بالممارسة الخطابية من حيث الإنتاج للموضوعات والأنماط السائدة فيه وطريقة العلاقة القائمة بين الموضوعات، من خلال التعامل الجاد والصارم مع المفاهيم، والتي قيضت له الوقوف على الاحتمالات النظرية الواسعة والشاملة. وعبر هذا الوعي

---

54. Michael Bergunder, Heiko Frese, editors, 2011, Ritual, Caste, and Religion in Colonial South India, Primus Books, India , p 13.

الدقيق كان له الاشتغال في صميم البنى الثقافية، عبر الاستناد الى العدة المعرفية القائمة على إمعان النظر في العلاقة القائمة بين الوقائع والتمثل[55].

الجهد هنا ينصب حول طريقة الوعي بالوقائع وطريقة الفهم لها، من دون الانغلاق في تداخلات الوقائع ومشغلاتها الداخلية والإفرازات الناجمة عنها. ومن أجل رفع الالتباسات والتداخلات، يكون الفصل الواضح بين العنصرين المنهجيين، واللذان مثلاّ الوسيلة والأداة الأشد وضوحاً في آلية الاشتغال لدى سعيد.حيث التعامل مع الواقعة باعتبار مجال التفاعل القائم مع المعطيات الأخرى من دون السقوط في فخ الانبهار والإبقاء عليها كوحدة واحدة مغلقة، بل أن الفهم الذي تحصل عليه جعله يتعامل بموضوعية ملفتة، لاسيما حول طريقة تشابك العلاقات الموزعة ما بين الذاتي والجمعي والآثار الناجمة عنها الى الحد الذي تكون نتائجها وقد تجاوزت أهمية الواقعة ذاتها. وعبر هذا التبصر الدقيق كانت العناية بأهمية الوعي بما هو سائد من تصورات، والعمل على استقراء الملامح الكامنة فيها.حيث يبرز الى العيان عنصر التمثل)[56] Representation (والذي يتجلى في جملة من الأطوار والتشكلات، لعل الأبرز هنا تلك الصدورية المنبعثة من عمق التراث الفكري، والذي يرخي بظلاله على طبيعة التمثل الراهن. ومن دون الاكتفاء بالكشف عن أثر التراث ومداخلات الحاضر، نراه يعمد للعكوف نحو الكشف عن الوعي السائد، والبحث في الاشكالات الرئيسة التي يجترحها ويعمقّها. لاسيما في مجال الأزمة الكامنة والتوتر الحاد والشديد في موضوعة الذات والآخر، لتكون الأسئلة وقد تصدرت المشهد عبر مجال مساحة المسكوت عنه واللا

[55]. Amit Chaudhuri , 2003, D.H. Lawrence and 'difference', Oxford University Press, p157.

[56]. Debjani Ganguly, Ned Curthoys, Editors , 2007, Edward Said: The Legacy of a Public Intellectual, Melbourne University Press, p 85.

مفكر فيه. فإذا كان موضوع الاستشراق قد مثل دلالة ذات طابع شديد الجاهزية للتآمر والإلغاء والإقصاء، فانه في منظومة سعيد الفكرية يتحول الى بؤرة رمزية قوامها الترصد العميق في صميم الخطابات التي تعمل من خلال سطوتها وسلطتها على توجيه الوعي وترسيخ معالم المتداول من المقولات والموضوعات. والأمر هنا لا يتعلق بالشائع من المنطوق السائد، بل يتخطاه نحو طريقة التواصل التي تميز جماعة إنسانية بعينها.

منهجية القراءة

ما هي الخصال الرئيسة التي تميز نصوص إدوارد سعيد، لتكون بكل هذا الزخم والقوة التي تنطوي عليها. الى الحد الذي ينشغل فيها العالم بمختلف مجتمعاته وأصوله الثقافية. ومن دون الإفراط في دوامة المديح والثناء الذي لا ينتج عنه سوى الأذى، لا بد من القول الى أن النتاج المعرفي الذي قدمه هذا المفكر الإنساني، يجعل منه متبوأً مكانه الرفيع في صلب المشهد الفكري العالمي، باعتبار الألمعية وقوة التطبيق المنهجي والانفتاح العالي في الدلالات التي تزخر بها الأفكار والتصورات التي يدبجها يراعه، حيث الاستناد الى المسؤولية التاريخية والوعي العميق بكّم العلاقات الفاعلة داخل الواقع. ولعل الثيمة البارزة في نص سعيد تقوم على التطلع المجتهد والدؤوب نحو تحرير المعرفة، من دون الخضوع لهاجس الاكتمال، بل أن قوام الرؤية يستند الى الانفتاح الفكري الذي لا تحده الميول والاتجاهات المسبقة الصنع والتجهيز.

لا تعدم فاعلية القراءة أهمية حضور القارئ، باعتباره المتلّقي الأول للنص. بل أن الموقع المتصدر الذي يحتله، يجعل من منشئ النص خاضعا للتأويلات المتعددة والمتنوعة التي يقوم بتحريرها القارئ، الى حد يفوق جهد المؤلف، كما يذهب في ذلك البعض من كبار منظري (نظرية

التلقي).[٥٧] والأمر هنا لا ينطوي على محاولة تثبيت معالم الفهم وتثبيت مكونات الوعي الخاص، الذي يتشظى بعدد القراء الذين يطالعون النص، بل يتخطاه نحو الولوج في المواجهة المنطوية على المزيد من الحضور بازاء النصوص الكبيرة التي تحصلت على أهليتها، وتمكنت من حفز مجال قلق التأثير داخل الوسط الثقافي.هذا بالإضافة الى عامل الزمن الذي يكون سابقاً لفعل القراءة، باعتبار متعلقات إنشاء النص الذي يتعلق أصلاً بالمؤلف، حيث شرعية الامتلاك للأفكار التي يقدمها المؤلف. إلا أن هذا لا يمنع القارئ من الاندراج في فعل القراءة والتي تتنوع بمستوى تنوع القراء أنفسهم، لتتبدى على سطح الواقع المزيد من القراءات[٥٨]، والتي يمكن توصيفها في عداد ثنائيات من نوع؛ القوي والضعيف، الإيجابي والسلبي، والجيد والرديء.

على الرغم من الإيمان الشديد بالخيارات والفسحة التي ينطوي عليها القارئ، وطريقة استقباله للنص والتي لا يمكن حرفها عن مجال الوعي الخاص وطريقة التداول التي تنطوي على الملكات والإمكانات الذاتية. إلاّ أن البعض من المشتغلين في مجال النظرية النقدية، آثروا وضع بعض الضوابط والمحددات القرائية، انطلاقا من جملة إجراءات تتعلق بالغاية والهدف التي ينطوي عليها النص. فالمسألة لا تتعلق بسعار تأويلي غايته الانفتاح اللامشروط، والانغماس في فعالية لا تعرف التوقف أو حتى التحسّب للقصد الذي يؤسس له النص. فيما يبرز العامل الثاني في ضرورة إمعان النظر عند المرجعيات الثقافية والتاريخية واللغوية التي يقوم عليها. فالشروط

---

[57]. Shunqing Cao 2014, The Variation Theory of Comparative Literature, Beijing Normal University , Springer, p 57.

[58]. Barbara Comber, Anne Simpson, Editors , 2001, Negotiating Critical Literacies in Classrooms, Routledge , New York , p 136.

المعرفية تكون بمثابة المؤشر العميق لفعل القراءة، في سبيل الوصول الى أسس قوامها المعنى المستند الى الفهم والتواصل.

القراءة والتأويل

لا يبارح سعيد منطلقاته المعرفية التي انطوى عليها، لاسيما في مجال نظرية القراءة. إذ يعمل على توسيع مجال التأويل الى أقصى قدر ممكن، لكن هذا التوسع لا يجعل منه مندرجاً في التساهل الى حد التبسيط. وفي هذا يعمد الى الإمساك بتلابيب فعل القراءة، من خلال الوقوف الطويل والتأمل الدقيق في الخطوات التي يقوم عليها ذلك الفعل. في تصنيف مرجعي قوامه الاستناد الى سلطة الناقد ودوره المعرفي في تحديد وجهة النص وغايته وهدفه، عبر التوكيد على جملة من الأسس قوامها؛ خضوع النص لأي تأويل يمكن أن يصدر حوله عن طريق القارئ، من دون الانحياز الى تأويل عن آخر. وفي هذا المفترق الذي يسوده الكثير من العمه القرائي، يكون الناقد في تقاطع شديد الانحراف بازاء الأسس والمرجعيات الثقافية والاجتماعية التي يجب أن يقوم عليها صميم عمله الفكري.

في ظل الجلبة الفكرية التي حشد لها المنظرون المزيد من التصوّرات والأفكار، حول إشكالية المتاهة التأويلية. يحاول سعيد الوقوف المتأمل عند مسألة هجرة المعاني والأفكار وطريقة تداولها في محيط معين أو إطار معرفي بذاته. ومن هنا تحديداً تكون العناية وقد تركزت عند الثلاثية التي تميز وعي سعيد بالنص، وطريقة تفاعله مع خيط الإنجاز والتي يمكن تلخيصها في؛

الإنتاج، التداول، الانتقال[٥٩]. ومن هذه الخطوات الإجرائية البالغة الصرامة، نراه وقد عمد الى الإفادة القصوى من المنجز المعرفي، الذي باشر في تفصيلاته المنهجية العديد من المنظرين. إذ يعمد الى التوكيد نحو أهمية المرجعيات التاريخية والثقافية، التي عمل على ترسيخها (أمبرتو إيكو في تحديد العلاقة ما بين النص والقارئ[٦٠] بالإضافة الى النهل من معين المنهج التفكيكي حول قضية التأويل. ومن دون الانجرار في دوامة الانتصار لتيار أو اتجاه على آخر، نراه يعمد الى تعزيز أسس المواشجة المعرفية بين الاتجاهين، من دون الوقوع تحت إسار التلفيق أو التوفيقية.

اللازمة المعرفية هنا تكون من خلال مسبار الترصد العميق في ثنائية؛ السياق والدلالة[٦١]، والتي تكون بمثابة الراصد الشديد الوثوق في ترسم معالم الظروف والأوضاع التي تحيط بالنص، لاسيما في مجال المعرفة والسلطة والخطاب. ولعل الوقوف عند ترصّد مجال السياق الذي يحتكم لظرف تاريخي محدد الأبعاد والسمات، وحالة التبدل في الدلالات بفعل طريقة التداول للمعاني، يكون التغيير وقد تصدر المشهد، هذا بحساب الوعي بالتطور المستمر الذي تنطوي عليه اللغة، ذلك الوعاء الواسع والشامل الذي يستوعب الأفكار والنصوص. ولعل من المهم الإشارة هنا الى حاكمية التواصل، التي يعتني بها سعيد بشغف ملفت، لاسيما في مسألة استمرارية النص وبقائه، إنما يأتي من تعدد القراءات، حيث لا يكتفي باعتباره دالة على قوة وحيوية النص فقط، بل تكون

---

[59]. Jan Rehmann, 2013, Theories of Ideology: The Powers of Alienation and Subjection, Hotei Publishing , Leiden , The Netherlands, p 39.

[60]. Alessandra Riccardi, Editor, 2002. Translation Studies: Perspectives on an Emerging Discipline, Cambridge University Press , p 31.

[61]. Brennan W. Breed, 2014, Nomadic Text: A Theory of Biblical Reception History, Indiana Universality Press, p 206.

العناية وقد توجهت نحو طريقة تفاعل المعاني في الظروف والسياقات الأخرى، التي تم نقلها إليها، ومقدار القوة والحضور الذي يمكن أن تنطوي عليه.

القراءة المرنة

لم يكن سعيد خاضعاً لقلق التأثير الذي يمكن أن تحدثه العلاقة القائمة بين النص والقارئ، بل أن التمثلات التي جسدّتها مدركاته، إنما استمدت وجهتها من واقع النظر الى اتساع وشمول فعل القراءة، النابذ لكل أشكال الشد والجذب الذي يمكن أن يتم ما بين النص والقارئ.فالمؤثر الأصلي الذي يوجهه يقوم على الوعي الصارم والتفهم الدقيق لمؤثر عاملي الزمان والمكان في تحديد مجال فعل القراءة.هذا بالإضافة الى انطوائه على سياقاته الخاصة، والتي لا تقوم على التوجه نحو تبادل الأدوار بين المؤلف والقارئ، أو الانشغال بردة الفعل المباشر الصادرة عن هذا القارئ أو ذاك بازاء ننص بعينه، بل أن الاهتمام هنا يكون منصبا نحو العناية بطريقة انتقال المعاني وهجرتها من سياقها الأصلي، الى السياقات الأخرى المختلفة والمتنوعة.

قيض لسعيد الخروج من وهن السقوط في دوامة الاستجابات المباشرة، التي يفرضها العامل الزمني الذي يفرض بسطوته على النص. ومن هذا المنطلق نراه يحث السعي نحو توسيع مجال الرؤية من خلال الانخراط في تجليات المؤثرات التي يفرضها العاملان ((الزمني والمكاني)) باعتبار العناية بالسياق والظروف التي أحاطت بمكامن الإنشاء. فالأمر هنا لا يقوم على مجال الأسبقية التي يتم تحديدها ما بين مؤلف وقارئ. بقدر ما يكوون التطلع الجاد نحو الكشف عن معالم الظروف الاجتماعية والتاريخية التي أحاطت بإنشاء النص. لتتبدى بشكل شديد الوضوح

معـالم التكـوين الثقـافي والفكـري لـدى سـعيد، حيـث التطلـع نحـو الخـلاص مـن مـؤثرات القـوة التقليدية، التي فرضتها المرجعيات الثقافية السابقة، والعمل نحو حث الجهاز الإصلاحي في تبرير اللوازم والإجراءات، النابعة من الترصد العميق في صلب العلاقات التي كرستها المكونات القديمة. التي فرضت بحضورها لأعلى مستوى الوعي فقط، بل حشدت جل جهودها من أجل مصادرة الإحساس بالواقع.

الموضوعات التي يتصدى لها سعيد، لم تكن بالجديدة أو الغريبة على واقع الإنتاج الثقافي والمعرفي، لكن موطن الجدة فيها يقوم على التنوع القرائي وتعدد زوايا النظر في توجيه مهماز البحث والقراءة في الظاهرة. ومن هذا المسعى اكتسب نصه المزيد من العناية القائمة على حدة السؤال وقوة الملاحظة، من دون الانخراط في تجليات ردة الفعل الذي قد تحدثه نصوص تقوم على تفجير مواطن الدهشة والغرائبية. ولعل كتاب ((الاستشراق)) يفصح عن هذا الحس المعرفي الذي تقمصه سعيد في ترصّده الحصيف والدقيق للعلاقة القائمة ما بين المكان باعتباره البؤرة التي تستوعب الفعل البشري، والظرف التاريخي الذي يحيط بمجمل العلاقات السائدة. ومن هذا المعطى الذي تحدده التفاصيل المباشرة يكون الوقوف على أهمية الوعي بالسياقات المختلفة، والذي يكون من ثمراتها إنتاج المزيد من القراءات المتنوعة التي تصل في الكثير من الأحيان الى التقاطع الفج مع قصدية النص ومرجعياته الثقافية والتاريخية واللغوية حتى.

الوجهة المعرفية

لم يتوقف مجال الدرس لدى سعيد عند محاولة الكشف عن طبيعة العلاقات المباشرة ما بين الأطراف المتقابلة، لاسيما في موضوع ((الاستشراق)) والتي تتموضع وبشكل شديد الوثوق عند مجالين حضاريين، قوامها المشغلات والسمات الثقافية الخاصة.بل أن العناية والتركيز يتوجه نحو البحث في صلب الخطاب الذي ميّز ملامح وسمات الاستشراق، حيث المصدرية الواضحة من قبل القوى الاستعمارية، وحالة النزوع المهيمن الذي تبدّى في تحديد وتشكيل المعالم والأسس الأيديولوجية والمعرفية(٦٢.) بعبارة أخرى أن الاستشراق في أطروحة سعيد إنما يقوم على اعتباره الوجهة المعرفية للاستعمار، فيما تتمثل الوجهات الأخرى في تشكلاتها التي طبعت الفعل الاستعماري، عند السياسة والاقتصاد والفعل العسكري المباشر. ولا يتوقف الأمر عند مجال تحديد السمات والملامح، بل يتخطاه نحو الغور في تفصيلات المكونات المعرفية للظاهرة الاستشراقية، من حيث تماهيها مع الثقافة الموجهة المستند الى تحقيق الغاية والهدف، حيث القصدية المتجهة نحو تعزيز مجال الهيمنة وفرض ثقافة بعينها، يتم من خلالها التسويغ لفكر السيطرة والخضوع للآخر.

من دون الاكتفاء بترسيم ملامح إفراد النزوع الدال نحو القوة والإيغال في التمركز، نجد الدرس هنا وقد توجه نحو الغور العميق في تفصيلات الظاهرة، حيث الدائب نحو تحليل دلالات

---

[62]. Ismail Noori Mseer Orientalism on Cultural Dispute, Historical Research Letter www.iiste.org, ISSN 2224-3178 (Paper) ISSN 2225-0964 (Online), Vol 5, 2013, p3.

التوجيه، وترصد ملامح العنايات المباشرة في مجالات بعينها.حتى يكون الوقوف على ملمح العناية والاهتمام البالغ الذي صدر عن الجهاز الاستشراقي، في التتبع والتمحيص في مجال دراسة اللغة. ولعل الترصد في صلب الدرس الاستشراقي الذي بحث فيه سعيد، جعل منه يقف وبشكل شديد الصرامة عند محتوى القصدية العالية لتي تلبّست العقل الاستشراقي في طبيعة نظرته الى الآخر.من خلال فرز ملامح التوزيع بين عقلين معرفيين، باعتبار الرسوخ والقوة والأصالة لدى جانب على حساب الآخر. ومن هذا الاندراج في التمييز، كان التأسيس الموغل في الأدلجة باعتبار توظيب مجالات الفصل بين عالمين؛(**المتحضر والمتخلف**).بل أن تكريس ملمح الكسل الثقافي وانعدام روح الإبداع وغياب الأصالة، كانت من الاتهامات الجاز التي تم إلصاقها في طرف محدد، احتساب البحث عن غرس روح الهزيمة والانتكاس لدى الآخر، في سبيل إفراغه من مواطن قوته الذاتية والعمل على تسفيه المحتوى الداخلي الكامن فيه.

قيض لسعيد التفحّص العميق في الثقافة العابرة للبحار، حيث النزوع الشديد والعارم نحو فرض السيطرة العامة والشاملة، والتي لم تتوقف عند نمط بعينه، بل كانت تنزع وبكل مالديها من أدوات ووسائل نحو توسيع مجال الكليانية، والتي طبعت ملامح وسمات الظاهرة الاستعمارية. ولعل الصفة الأبرز في كل هذا تقوم على الدور البالغ والخطر الذي اضطلعت به المؤسسة الاستشراقية، باعتبارها الطلائع الأيديولوجية للتسويغ والتبرير، بل والاحتواء والتشويه، حيث الغاية الكامنة في الهيمنة.

الفاعل الثقافي

لا يتوقف أمر العناية بكتاب "الثقافة والإمبريالية"[٦٣]، عند الإفراط بالاحتفالية التي تثيرها كم الأفكار والمعالجات اللامعة لتقصّي وتفحّص العلاقة القائمة ما بين طرفي العلاقة، واللتان جعل منهما سعيد الأدوات والوسائل من أجل تفكيك عرى العلاقات التي طبعت الظاهرة الكبرى، إلى الحد الذي تكلست فيه عند المقولات المكررة والتقليدية. ولا يتوقف الأمر عند حدود الجرأة والجدية الطافحة التي تميز هذا الجهد الفكري الباذخ، بقدر ما يكون الانطواء على هذه الحدة العميقة في صلب "الوعي التاريخي". وإذا قيض لنا الوقوف على المعطى التاريخي، فإن الأصل هنا لا يتعلق بالاندراج في ترصّد المعلومات أو سعة الملاحظات والمقارنات والمتابعات التي اجتهد فيها المؤلف. ولا يكون التركيز عند مجال المضامين التي يحتويها الكتاب؛ بل أن السعي يتطلع نحو تقصي نظام الخطاب ومحاولة الوعي بآليته، حيث الأهمية الكامنة في تحليله، والتشكلات التي يمكن الدرس في صلبها.

تكشف بنية الكتاب عن الحدة العميقة التي تترسم معالم العلاقة الثقافية، من دون الوقوع تحت براثن التحقيب الساعية إلى الولوج في متاهات التاريخ التقليدي، أو توجيه العناية

[63]. Edward Said , Culture and Imperialism, Knopf, distributed by Random House, Republished by Vintage Books in 1994.

نحـو الوحـدات الكبرى أو الفرعيـة، أو السـقوط في المباشـرة التي تفرضـها تحديـدات وجهـة النظـر والركون إلى موقع محدد، يتم من خلاله توجيه أدوات الاستقراء في الظاهرة. فالخلاص من المواقف الجاهزة، يمثل السمة الرئيسة في جهد "سعيد" المعرفي حيث التوق الصارم نحو التفحص والبحث العميق نحو لذة الاكتشاف. ولعل التحليل المباشر في الوحدات الفرعية المنضوية في وحدة الكتاب الموضوعية، يكون الإفصاح عن العناية البالغة في دراسة الظاهرة الإمبريالية، من خلال إخضاعها لآليات التغيير الثقافي والذي بقي يعاني الإهمال، باعتبار هيمنة العوامل السياسية والاقتصادية في تفسير الظاهرة.

تبرز أهمية الكتاب في قدرته على الخروج عن فضاء الإخضاع والهيمنة التي تفرضها سطوة القوى. والأمر لا يتعلق بتورخة أو السقوط في دوامة البحث عن السلاسل الزمنية الملازمة للنتاج الإبداعي والروائي الصادر عن الوسيط الثقافي الإمبريالي، بل التطلع هنا يبرز من خلال توجيه الرؤية نحو الاتساع في الوعي التاريخي، باعتبار البحث عن دور الفعل الثقافي في صناعة التاريخ. ولا يتوقف الأمر عند تحديد هذه العلاقة بل يتخطاه نحو البحث في دالة التفاعل، مع الفاعل الثقافي بوصفه مكافئاً للفاعل السياسي والاقتصادي في تصنيع وتهذيب وتشذيب الظاهرة الإمبريالية. وعليه فإن عقدة الكتاب تقوم على الوقوف على الثقافة بوصفها فاعلاً رئيساً في حفز الفعل التاريخي داخل المنظمة الإمبريالية، التي قيض لها أن تبسط حضورها على الواقع بكل قوة.

طريقة التفاعل

من أجل الوقوف على ملامح الكشف داخل بنية النص، ينبغي توجيه العناية نحو تقصّي انتظام الخطاب ومحاولة الإفلات من هيمنة تحليل المضمون التي فرضت بحضورها على مجمل القراءات المتعلقة بالوعي التاريخي. ومن هذا المنطلق تبرز أهمية التنبه إلى نظام اليقين الذي يفرض بحضوره على مستوى النصوص المبثوثة داخل الكتاب، حيث يسعى نحو الكشف عن ملامح العلاقة القائمة ما بين الأفكار الرئيسة الداخلية والنظام العام والشامل "الكلياني" الذي يبحث فيه المؤلف. فالأمر لا يتوجه نحو ترصّد وثيقة قابلة للعرض أو حتى التفحص النقدي، باعتبار العناية بدلالة الخطاب أو الأفكار العامة التي تمهد لظهور خطاب ما، كأن يكون أدبياً أم سياسياً، أو حتى اقتصادي. بل أن الغاية تترسم الممارسة الخطابية الخاضعة لقواعد وأسس بحثاً عن الجوهري الكامن فيه. ومن هذا المعطى الفكري قيض لسعيد الإمساك بشرط البحث المعرفي داخل الخطاب الثقافي والعمل على تحليله من خلال الولوج في دراسة شكل أدبي بعينه ممثلاً "بالرواية"، والعمل على التقصي في مجال اللغة وطريقة التفاعل مع الموضوعات التي ميزت جهد المبدعين "الروائيين". والإمساك بلحظة إنشاء الخطاب والنظام الذي يكشف معنى العبارات في إطار الظرف المحيط بصدوريتها.

إنه البحث في الاستغراق الغربي من أجل توجيه الجهود نحو السيطرة على الأقوام النائية المحملة بعبء الإنشاء المستند إلى التخلف – التأخر. وهو التمثيل المستغرق في التوصيف لهذا

الآخر، وتحميله عبء الأفكار التي عنت على هذا الغرب المتقدم، بإزاء مجتمعات بدائية لا تملك من الحضور سوى الفتات المقيت، وعليه فإنها يجب أن تكون خاضعة لفكرة السيطرة من خلال ممارسة جميع أشكال القوة والإكراه والقسر. ومن هذا التوسيع لمجال الفوارق والاستغراق في إنشاء الفواصل، ذات التعيينات الحضارية. يكون الاصطناع للجهاز المفاهيمي، حيث التطلع نحو إنشاء صورة لعقل الآخر، وتوظيبه في نطاق شديد المحدودية.

التنميط الذي استغرق فيه الذات الغربي، باعتبار توسيع مفهوم السيادة باعتبار الفاصل الحضاري، لم يكن يقيه من ظهور المقاومة المباشرة، والتي لم تتوقف عند مجال الاستجابة العسكرية، بل تخطته لتشمل المزيد من أشكال المقاومة على صعيد الثقافة، حيث التطلع نحو التمسك بالهوية الوطنية ورموزها المختلفة، والعمل على إحياء العوامل الداخلية، باعتبار توجيه الاستجابة بفاعلية تكون بقدر حجم المثير والتحدي الذي فرضته حركة المستعمر الزاحف من أقاليم ما وراء البحار. وإذا كان الإصرار على تأجيج حدة التباين الذي لجأ إليه المستعمر، إن كان على صعيد الذات والآخر، أو محاولة توسيع حدة الفواصل داخل المجتمعات التي تم التخطيط لإخضاعها. فإن المقاومة بقيت تعيش المخاضات المتنوعة والأطوار المختلفة.

الاندراج في الفضاء الغربي

على الرغم من الإقرار الشديد الوضوح الذي يضعه سعيد، حول الأهمية الحاسمة للسرد، في ترسيم معالم قراءته لواقع الممارسة الثقافية التي صدرت عن الغرب الإمبريالي. والتوكيد الضافي على ((أن القصص تغدو الوسيلة التي تستخدمها الشعوب المستعمرة لتأكيد هويتها الخاصة

ووجود تاريخها الخاص"))إلا أنه يبقى خاضعاً لاستثارة الاستجابة الأحادية، ذات المصدرية الغربية. فنظام التسمية للشكل الأدبي "الرواية" التي يجعل منها أداة الاستقراء، تأتي في تنويعات متتالية على نمط؛ ((رواية، قصص، سرد، أدب، مرويات)). حيث النظير اللفظي يبقى مندرجاً في الفضاء الثقافي الغربي، هذا بحساب العيش والشعور الذي عاش في كنفه سعيد. فيما يكون الخوض في موضوعة المقاومة والمعارضة واقعاً تحت إسار ذات الفضاء، حيث البحث عن سمات التأثير الفني والوقوف عند الشكل الروائي باعتباره نتاجاً غربياً محضاً، بحساب الترصد في النتاج الثقافي الصادر عن الأصلانيين، بل أن التحدي الثقافي الذي يترصده من قبل الشعوب الخاضعة للسيطرة، إنما تنبع من واقع المنجز الخاضع للشكل المعياري الذي رسمه الغربي، ليكون الإلتحام مع العالم، والاستنطاق في مجال التعريف بالذات.

إذا كان التوصيف قد استغرق في المواجهة الثقافية، انطلاقاً من ترصد ملامح ظهور بعض الأصوات الغربية الجريئة، والتي تحملت وزر اتهام الذات، باعتبار اقتراب البشاعة والعمل على مواجهة الذات، فإن الأمر يبقى دائراً في فلك الإشارات المبتسرة إلى واقع روح المقاومة والانتفاضات التي شملت المزيد من المناطق التي تعرضت للسيطرة الاستعمارية، لكن الإنشاء يكون موغلاً بالتوصيفات ذات النزوع المهيمن، والتي يكون الإنشاء فيها وقد اتخذ توصيفات من نوع؛ "((الاندفاع، الكراهيات، الرجل الأبيض")) حيث يكون التطلع نحو إلى ترسيم معالم الموقف الصادر عن المقاومة المنظمة. ولعل الملفت في الأمر يكمن في التركيز على مجال الاستجابة الصادرة عن المجتمعات التي تعرضت للهيمنة، والتي استمدت المزيد من معالم مقاومتها وأدوات المواجهة،

من خلال النهل من ثقافة الغازي، الذي وجد نفسه وقد أفلت زمام التوجيه من يديه، باعتبار التفاعل الثقافي، الذي لا يمكن التكهن بالعواقب وليس النتائج التي تنجم عنه.

تراث الحرية الغربي، الذي تشرعنه المسوغات الثقافية، يجعل من سعيد واقعاً في تداخلات الخذلان والفقد حول دقة الحس التاريخي بالواقعات وطريقة تمثلاتها، لاسيما عندما يتعلق الأمر بالمواجهة المباشرة بين المجتمع الخاضع الذي راح يستمد موجهات المقاومة فيه من خلال استدعائه للمؤثر الغربي المستند إلى فكرة الحرية. إلا أنه من جانب آخر يعمد إلى المسارعة وبابتسار ملفت للإشارة إلى تراث المقاومة الذي تحمله الثقافات الأصلانية بإزاء القوى الإمبريالية، لكن القاسم المشترك الذي يعمل على استحضاره وسط هذا التشابك يقوم على الأرضية المشتركة التي توفرها الثقافية[٦٤].

إعادة الترميم

من واقع الترصّد للهجنة الثقافية، والتي تكون بمثابة النتاج عن حالة التوكيدات الصادرة عن الذات تحت وازع ردة الفعل بإزاء الآخر. بل أن الاستغراق في ترسيم معالم التاريخي على حساب التاريخ، حتى ليكون الأمر وقد خرج عن مساره المأمول حيث التطلع نحو توكيد التجربة الإنسانية وإمكانية القدرة على التفاعل والتطور. ولعل الانغماس في الفعل المجزوء الخالي من ميكانزمات الفعل والغايات الكبرى فيه، يجعل من الغربيين –الامبرياليين، في موقع شديد الرجحان

---

[64]. Tobias Döring, Mark Stein , Editor , 2012 , Edward Said's Translocations: Essays in Secular Criticism , Routledge , New York , p 50.

بامتلاك التاريخ، إلى الحد الذي تكون جهود النتاج الثقافي الصادرة من قبل الأصلانيين، إن كان على مستوى التنقيح أو محاولة التعامل مع نصوص ذائعة الصيت، إنما تكون واقعة في إسار التأثير السياسي والثقافي لهذا الآخر، الذي تتبدى لمساته في الكشف. ولا يقف الأمر عند هذا المجال، بل يتخطاه نحو مجال تدشين الخيال، إلى الحد الذي تكون فيه نتاجات وإبداعات الأصلانيين وقد تم ترسيخها في نطاق شديد المحدودية والانغلاق. لكن هذا كله بقي يستمد عنصر الفعل فيه، من خلال ملاحظة ثقافة المقاومة والتي قيض لها توكيد الحضور في مرحلة ما بعد الاستعمار. لكن سعيد هنا يبقى يؤكد على المؤثر الماضوي الذي يزعم بأنه "يملك الطاقة على التنقيح وينزع نحو مستقبل ما بعد استعماري[٦٥]. في معالجات يعوزها الاقتراب من وعي الأصلانيين، لاسيما حين تكون الوسائل المنهجية وقد تلبستها الروح الغربي-الإمبريالي، باعتبار؛ تأمل الخلل في ملامح ثقافة المقاومة، تصنيع خيال العالم والذي يكون واقعاً تحت اشتراطات الإبداع الغربي وإنشاءاته ومنجزاته، محدودية النتاج الإبداعي للأصلانيين، حيث الاهتمام وقد انصب نحو توكيد النزعة الهجومية أو الانتقامية. لكن سعيد لا ينطلق هنا من نزعة احتقارية للثقافة الأصلانية، بقدر ما يكون وفياً لمعالم الاستكناه في صلب الأوضاع المتحققة لدى ثقافة الغرب، باعتبار الوقوف على قوة وزخم الخيال القادر على التوجيه المستند إلى طاقة المبادرة. وهو بهذا لا يعمد إلى المفاضلة، أو الوقوع في دوامة التوزيع ما بين الأفضل والأسوأ، بقدر ما يكون مندرجاً في تواشجات الوعي التاريخي حتى ليكون الإقرار المباشر من لدنه: (("وإنه لمن الأفضل بشكل عام أن نكتنه التاريخ ونستجليه

---

[65]. Houston A. Baker, Jr., Manthia Diawara, Ruth H. Lindeborg , Editors, 1996, Black British Cultural Studies: A Reader ,University of Chicago Press, p 6.

بدلاً من أن نقمعه أو ننكره")).[٦٦] فالرهان على التعددية الثقافية والتأصيل للتنوير يكون بمثابة الممارسة التي تقود إلى التكامل وردم مجال الانفصال والتقاطعات، من دون الاستغراق في هذا الخواف والرهاب الذي تخلقه حالة التشنجات والتواترات والتركيز على الاحتماء من النوايا المبيتة التي يستغرق فيها الطرفان، باعتبار سوء الظن المتبادل. أنه التطلع نحو "قوة السرد"[٦٧]: باعتباره وسيلة لاقتراب العقول الساعية نحو إعادة ترميم تاريخ العالم. ينطوي فكر إدوارد سعيد على رؤية معرفية صارمة، قوامها الروح النقدية العلمية النائية بنفسها عن التصورات المسبقة، او الخضوع للنماذج الجاهزة. وهكذا اختار الخوض في ميدان الفكر الغربي مترصدا الجوهر فيه من خلال دراسة (الاستشراق)، ذلك الذي شكل المكمن الرئيس في توجه الغرب نحو الآخر. لم يكن توجه سعيد نابعا من تطلع نحو البحث عن مواجهة أو العمل على تصفية حسابيات من أي نوع، بقدر ما كان الوقوف الدقيق المتأمل لمجمل تفاصيل المعرفة الغربية (نتاجا ومنهجيات ورؤى وتصورات). ومن هذا كانت قراءة سعيد عابرة للجاهزية والتقليدية، حين استطاع أن يحفز جملة من المعاني التي يقوم عليها الفكر والمعرفة الغربية، عبر ترصد مجال (ممارسة القوة)، تلك التي قامت عليها الروح الاستعمارية الغربية.

---

66. Alissa Jones Nelson , 2014, Power and Responsibility in Biblical Interpretation: Reading the Book of Job with Edward Said, Routledge , New York , p 40.

67. Ranjan Ghosh , Editor, Edward, 2009, Said and the Literary, Social, and Political World, Routledge , New York , p 86.

المبحث الثالث

الطبقة الوسطى العربية؛ التاريخ ومصادرة المعرفة

(من يحوز المال يطمح إلى الجاه)

ابن خلدون

ماهو المعيار الذي يحدد الحضور للطبقة الوسطى في المجال العربي؟ هل يمكن التركيز على البعد الاقتصادي، باعتبار الموقع الذي تحتله على صعيد الدخل، والذي يضعها بين فئة الأغنياء القليلة، وفئة الفقراء الكبيرة. أم أن التفاعلات التي يفرضها الواقع الاجتماعي، يجعل منها متبوأة للمساهمة في الحراك الثقافي والسياسي. السؤال الأكثر حضورا يتعلق بطريقة توزيع المصالح والنفوذ، فالوسطية التي تحضر بها، باعتبار الموقع. يجعل من هذه الطبقة واقعة تحت مطرقة (**التاريخ**) من جهة، و(**المصالح**) من الجهة الأخرى. **التاريخ** باعتبار المسعى نحو التغيير، عبر ممارسة دورها في التنوير وصياغة الأفكار والقيم واعتماد التنظيم وتفعيل الحراك الاجتماعي، واعتماد التعددية وترسيخ ثقافة الحوار. أم **المصالح**، حيث التطلع نحو التحالفات الفرعية مع الفئة المسيطرة والمهينة للحصول على أفضل المواقع، وتحقيق المكاسب، وتقديم منطق التبرير والترقيع.

يتوقف عالم الاجتماع العراقي فالح عبد الجبار عند أحوال التطور التكنولوجي، وأثره في التوسع الذي شهدته الطبقة الوسطى في الغرب، بعد أن حوصرت في التعريف الماركسي بين ثنائية (مالكو رأس المال والبروليتاريا) [٦٨]. حيث التحديد الأيديولوجي المستند إلى ترصد أوضاع العناصر المساهمة بطريقة مباشرة في التغيير الثوري للواقع الاجتماعي. وهو بهذا لا يتوقف عند طرفية

[٦٨] فالح عبد الجبار، العمود الفقري، مجلة الدوحة، ع ٣٧، نوفمبر ٢٠١٠، ص ٩٧.

العلاقة بين الثوري الماركسي، أو الكونتي (أوغست كونت) المحافظ المؤكد على أهمية عناصر الاستقرار في المجتمع. بل نراه يتوجه إلى ترصد (**الذهنية المنظمة**) الفيبرية. [٦٩] حيث الترابط بين الظرف التاريخي والظواهر الثقافية، حيث الدور الذي تصدت له الطبقة الوسطى الأوربية في تنظيم العمل الحر العقلاني، القائم على (**التقنية والتنظيم الاقتصادي**)، النائي بنفسه عن أي نزوع اتهامي أو احتقاري يلوذ بالتصميم الجاهز، المستند إلى أوصاف الهشاشة والتلون والانحياز الدائم إلى مصالحها الذاتية، كمصطلح (البورجوازية الصغيرة) ذي الطبيعة الإنكارية في الأدبيات الماركسية.

قوة السلطة الاجتماعية

كان للطبقة الوسطى دورها الفاعل والأكيد في تطور الغرب نحو بلوغ عصر النهضة، حيث الدور الذي تبدى عبر جملة من الأنشطة، الذي قادته النخبة التجارية، فكان الظهور للمدن البورجوازية والتي نمت على حساب القلاع الرومانية القديمة Bourg، ومنها تم اشتقاق التسمية الرائجة Bourgeoisie كطبقة ونظام له مواصفاته وعلاقاته الخاصة المميزة. لتبرز ظاهرة التوسع على حساب القلاع Faubourg، ومن هذا الواقع تصدرت طبقة التجار مسار التغيير لعلاقات الإنتاج والعمل على تغيير البنية السياسية والقانونية للعلاقات السائدة، فكان الحرص للحصول على الحقوق المدنية عبر التصدي الحاسم، للمواجهة مع القوى التقليدية القديمة من كنيسة وإقطاع، ولم تعدم استخدام جميع الوسائل إقناعا وإجبارا، شراء واغتصابا للملكيات والحقوق والامتيازات، فكان مجال النشاط قد شمل الموانئ والأساطيل والمصارف والبنوك، والسيطرة على النقابات والبلديات. لقد ترافقت كل هذه الأنشطة مع توسيع الاتجاه نحو التعليم ونشر المدارس في جل المدن، حتى كان القرن الثاني عشر الميلادي قد شهد حضورا أكيدا وفاعلا للمدرسة، حيث

---

[٦٩] ماكس فيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ترجمة أبو بكر باقادر وأكرم طاشكندي، مكتبة مصباح، جدة ١٩٨٩، ص ٦٩.

الأس المعرفي الذي انطلقت منه العلاقة الجديدة القائمة على ثنائية البورجوازي- الأجير، مقابل النبذ لعلاقة الإقطاعي – القن، ذات السمة الرجعية. وهكذا تصدرت النخبة المتنورة من التطلع نحو صناعة اللحظة التاريخية، عبر تكريس دور الفاعل الاجتماعي المتطلع نحو إصدار القوانين التي تتوافق والواقع الجديد، سعيا إلى توطيد أواصر العلاقة نحو الحكومة المركزية، وبناء نموذج الدولة القومية.[٧٠]، وهكذا ترسخ مدى العلاقة بين المواطن والسلطة في الغرب، من خلال تبين ملامح الحقوق للمجمل من الطبقات الاجتماعية، حيث المشاركة الفاعلة والأكيدة في صناعة الواقع، من خلال المساهمة في إرساء القوانين والأحكام والتشريعات.

على الجهة المقابلة يمكن ترصد أحوال الاستبداد التي تعرض لها المجال العربي، في أعقاب سيطرة إمارات التغلب على الحكم المركزي، والتي بدأت منذ القرن الرابع الهجري على يد البويهيين ٣٣٤ هجرية. أو تفاقم الأوضاع بعد الهجمة المغولية على العاصمة بغداد ١٢٥٦ م، حيث الفوضى والفراغ السياسي الذي ملأه المماليك، حتى عانت البنية الاجتماعية من الهيمنة المطلقة لمجموعة من الحكام الذين عانوا من عقد النقص حول أصولهم، باعتبارهم عبيدا تم شراءهم وحشدهم في معسكرات خاصة، من أجل إعداد قوات محاربة، تدرجت في مراكز القوة والهيمنة، حتى تميزوا بشدة الطباع وانعدام الولاء والبحث الدائم عن الجاه والحكم والسلطة، مما كان له الأثر المباشر على طبيعة العلاقات السائدة، في المجتمع العربي، حيث التقسيم المباشر بين أقلية عسكرية حاكمة باطشة، وأغلبية تم إفقارها نتيجة لسيادة روح الاستبداد، والتطلع نحو تكريس سياسة النهب والسيطرة على الموارد. ولم يختلف الحال بعد التمدد العثماني على الأقاليم العربية خلال

---

[٧٠] كلود دالماس، تاريخ الحضارة الأوربية، ترجمة توفيق وهبة، منشورات عويدات، بيروت لا تاريخ، ص ٢٦، أنظر أيضا، عبد العظيم رمضان، تاريخ أوربا والعالم الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧، ج١، ص٢٦.

القرن السادس عشر، حيث التقسيم المباشر بين طبقة الحكام؛ (**الوالي، الجيش، الموظفون**) وطبقة المحكومين؛ (**الفلاح، التاجر، الحرفي**).[٧١]

هل يتعلق الأمر بعقد مقارنة بين جهتين أو طرفين، باعتبار محاولة الترصد لدور الطبقة الوسطى في المجالين الغربي والعربي. هل ينطوي الموضوع على تحديد مستوى انجاز ما، باعتبار الأهمية التي تتبدى عليها الطبقة الوسطى في المجال الغربي، مقارنة بالطبقة الوسطى العربية. ولماذا هذه الأهمية؟ مم جاءت ومن أين؟ لعل التوقف عند (**صناعة الحدث الاجتماعي**)، تكون بمثابة المحدد الموضوعي للحضور وتكثيف الدور، حيث قوة التفاعل في صميم الممارسة الاجتماعية. انطلاقا من قوة المبادرة المالية عبر السيطرة على الفعالية الاقتصادية، والاستنارة العقلية حيث الولوج في صلب المواجهة مع القوى الرجعية المتحصنة بمواقعها القديمة، فكان القياد بالأصول المعرفية والاقتصادية، والذي هيأ لها مجال القدرة على الانجاز. هكذا تتبدى الأهمية التاريخية لدور الانجاز عبر التفاعل الصميم في صلب الواقع الذي تصدت له النخبة التجارية الأوربية عبر المنظومة الثنائية المستندة إلى (**قيادة التغير الاجتماعي**) في صميم (**الممارسة الاجتماعية**) ومن هنا جاء التغير النوعي الذي قيض له مواجهة العلاقات التي كانت تقودها القوى القديمة من إقطاع وإكليروس كنسي.[٧٢] أو أحوال التوزيع الطبقي القائم بين الارستقراطية النبيلة من ذوي الدماء الزرقاء، وطبقة العامة من الرعاع الفاقدين للحقوق، والمنغمسين في تقديم الخضوع للسيد النبيل. فيما جاءت الطبقة الوسطى العربية لتجد نفسها وسط لجة من التفاعلات والممارسات العصية والمركبة والمعقدة، والتي يعسر تمثلها وهضمها، حيث جاهزية النموذج والتسمية والأحوال، حتى كانت الولادة المشوهة، حيث الارتباط الصميم بالسلطة، والخضوع لإرادتها والخوض في

---

[٧١] هاملتون جب وهارولد بوين، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة عبد المجيد القيسي، دار المدى، دمشق ١٩٩٧، ج١، ص ٢٤٨.

[٧٢] عطا بكري، الديمقراطية في التكوين، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٥٢، ص ٤٢.

تجلياتها، تلك التي استتبعتها ثنائية (**الاستهلاك والتلقي**) والتي غدت بمثابة الأس الذي قامت عليه[٧٣] واستمرت فيه وخضعت لآلياته. حتى صارت تصحو بصحوتها وتغفو بغفوتها.

بين التعّفر والتمّرغ

تفصح الممارسة الاجتماعية عن إبراز المضمون العميق والدال لنظام التسمية، حول(الطبقة الوسطى) في الغرب ولدى العرب. ولعل التوصيف المباشر المتداول في المجالين يفصح عن طريقة التعاطي مع الواقع، فالـ (المعفرة قدمه) Dusty Foot [٧٤] من التجار الأوربيين الذين تنقلوا بين مدن نهر الراين والألب والأودر وفستولا، لم يترددوا عن ممارسة دور الوسيط بين القوى المنتجة (الإقطاعي- الفلاح)، حتى قيض لهم أن يتوجهوا نحو الإمساك بقياد التغيير، عبر التوجه نحو التنظيم، والذي أثمر عن نشوء العصبة الهنسية Hanseatic League [٧٥]، والتي تركز نشاطها في ألمانيا وإيطاليا، مشكّلة اتحادا تجاريا وحربيا، بلغ مداه الأقصى خلال القرن الرابع عشر عبر اتحاد اثنان وخمسين مدينة، قيض لها السيطرة على توزيع النتاج الزراعي لشمال أوربا[٧٦]، والهيمنة على مصائد السمك في بحر البلطيق والتجارة الأوربية مع إنكلترا. لقد سعت النخبة التجارية إلى تنظيم نفسها من خلال إنشاء المحاكم ومواجهة ملك الدنمارك عبر الحرب التي بلغت توقيع معاهدة Stralsund عام ١٣٧٠، والتي أتاحت لها السيطرة على مضيق السوند والإشراف على مصائد السمك وحق التدخل في اختيار ملك الدنمارك. مقابل حلم (التمرغ بتراب الميري) ذو المرجعية المصرية، الذي بات مثلا سيارا ينطقه الجميع في المجال العربي، حيث الرغبة الجامحة في الحصول على فرصة التوظف لدى الحكومة بوصفها الراعي الأكبر والسلطة الأعلى والمهيمن الأهم

[٧٣] نورمان فاركلوف، تحليل الخطاب، ترجمة طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ٢٠٠٩، ص ١٣٤.

[74] White Edward, Legal Antiquities A collection of Essays Upon Ancient Laws and Customs.London 2009, p90.

[75] Paul Eric Norwood, The Hanseatic League, Publish America Inc 2004, p 32.

[76] Fernand Braudel, Civilization and Capitalism 15th- 18th Century, university of California press, 1992, p 105

والأوحـد على مصـادر المـال. الفاصـل الزمني بـين النمـوذجين واسـع، والسـياق الاجتمـاعي حافـل بالتناقض الصارخ بين النموذجين. المعفرة قدمه ظهر خلال القرن الثاني عشر في أوربا، فيما برزت بـوادر حلـم التمرغ بتراب الحكومة في أعقـاب مشروع التحديث الـذي بـدأه محمـد علي باشـا قائد الفرقة الألبانية في مصر عام ١٨٠٥. بعد قيام الانتفاضة الشعبية المصرية بدعم من قبل نقيب الأشراف عمر مكرم. والقدرة التي أبداها محمد علي في إلحاق الهزيمة بالأسطول البريطاني عام ١٨٠٧، والقضاء على المماليك عام ١٨١١.إنه حلم الحصول على المرتب الذي يتقاضاه الموظف من خزينة الحومة، وما يستتبعه من ارتهانات وممارسات، تجعل من أحوال العلاقة وقد رسخت بين طرفين رئيس ومرؤوس، مهيمن ومسيطر وصاحب أمر، وآخر عليه الخضوع والامتثال لهذا الجهاز الكبير، الـذي تمثلـه الحكومة، بكل عـدتها (**المالية والمعرفية والعسكرية**)، إنها الأخ الأكبر حسب توصيفات الأدبيات الناقدة للأنظمة الشمولية، العالم بكل شيء والمسيطر على كل شيء. الملاحظة الأهم التي يترصدها هنري لـورنس تقـوم على عقد المقارنة بين النمـوذج الغربي الـذي حصل على التمدن من خلال الـدور الـذي قامت به الشـعوب، والشرقي حيث جاء تمدن مصر من فـوق، عبر الدور الذي اختطه الحاكم الأعلى من خلال وسائل (الجيش، المدرسة، الإدارة)، وهي عدة الدولة للتحشيد والتنظيم وغرس الاستبداد، عبر صناعة الرعية. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل نجد محمـد علي، وقـد ركـز نظره للسـيطرة على القـوة الفاعلـة والمهمـة، خـلال تلـك الحقبـة، والمتمثلـة برجـال الـدين، ليـتم تحـويلهم إلى مـوظفين خاضـعين للدولـة، بعـد أن كانوا يتمتعـون بالاسـتقلال الاقتصادي[٧٧].

[٧٧] هنري لورنس، المملكة المستحيلة، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٦٢.

سر التحولات

يمكن ترصد أحوال **(الانتقالية)** بحسب توصيف ديفيد هارفي، التي راحت تنتشر في المجال الغربي، بل أن سياق العلاقات السائد صار يُفسّر من خلال مضمون التغيير الذي شمل المعنى والحقيقة والتاريخ، وهي المواجهة القصوى بين ثنائية **(القطيعة والاستمرارية)**، حيث غطت القطيعة على كل شيء، فلم يعد الواقع ذلك خاضعا لامتثالات الاستمرارية التي تفرضها هيمنة القوى القديمة، بل راح التغيير ينسج المزيد من المعاني حول الذات نفسها، التي ولجت في صخب من التغيير الذي لا يعرف الانقطاع، حيث التحولات التي راحت تطال الزمان والمكان، فيما بقي الانسجام في وحدة التشكيل الغربي قائما وحاضرا وفاعلا. لقد جاء مشروع التغيير الغربي منسجما مع وقع التغيير، عبر التطلع إلى الإعلاء من شأن المعرفي النائي بنفسه عن تجهيزات العلاقات القديمة القائمة على الخضوع والولاء لاستمرارية القيم الرائجة والمعروفة، فكانت القطيعة مع المنظومة التقليدية، عبر بوابة الخلاص من الظل الثقيل الذي كانت تمارسه السلطة بحق القوى الاجتماعية. ولم تكن تلك القطيعة قد أظهرت الرفض للسلطة من حيث محاولة تدبير مواجهة، بين طرفين بقدر ما كان التطلع نحو تشذيب هذه القوة المهمة ذات الأثر البالغ في التنظيم، عبر تحرير السلطة من الاستبداد الكامن فيها، والتطلع الحثيث نحو رفض الخرافة، والتوجه العميق نحو تنظيم المجتمع على الأساس المنطقي والعقلاني. إنها المنظومة المتكاملة والشاملة، التي حثت بها النخبة الأوربية خطاها للإمساك بقياد التغيير، عبر ثنائية(المعرفة والتنظيم) [٧٨] والتي شكلت جلّ الجهد نحو ترسيم معالم الآليات الاجتماعية التي ميزت الغرب في مسيرته نحو بناء نموذجه التحديثي. الذي أنتج الحرية والمساواة وقيمة العمل وقوة السوق.

---

[٧٨] ديفيد هارفي، حالة ما بعد الحداثة، ترجمة محمد شيا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ٢٠٠٥، ص ٣٠.

التحول الخلاق

كان لإرادة الفعل الذي ميز عمل النخبة التجارية الأوربية، دورها الفاعل في إبراز أحوال الترابط بين القانون والمصالح والعادات الاجتماعية. وهكذا تبدت ملامح طريقة النظر إلى علاقات السلطة، تلك التي كانت تقوم على الهيمنة المطلقة للقوى الإقطاعية والدور المناط بالكنيسة، ليصار إلى إبراز قوة السوق بوصفها الجوهر الذي يحفز السلطة الجديدة النابعة من المجتمع، باعتبار الممارسة المستندة إلى قوة المبادرة، وعبر هذا المضمون، استطاع المجتمع أن يأخذ زمام المبادرة نحو صناعة التاريخ، عبر بوابة إخراج السلطة من مكانتها التقليدية، لتغدو جزءا من العلاقات السائدة في مجتمع يقوم على أهمية الدور الذي يلعبه الفاعل الاجتماعي.[٧٩] وهكذا حلت العلاقات الجديدة، المستندة إلى التغيير الخلاق في طرق التسويق القائمة على روح المنافسة، فيما حلت ثقافة الحصول على المكاسب بإزاء اللفظ لثقافة الاستهلاك، حتى غدا العمل بوصفه قيمة اجتماعية قصوى، يتم من خلالها الحصول على المكانة والحظوة والسلطة، إنها روح المبادرة التي لا تنتظر المساعدة من أية قوة، ولا سلاح لديها سوى العقلنة والتطلع نحو المساهمة الفاعلة والأكيدة في التقدم الاقتصادي، الذي راح ينشر آثاره على المجمل من الحقول الثقافية والاجتماعية والسياسية[٨٠].

تتوقف نللي حنا عند ترصد أوضاع ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية، وتحديدا القرون الممتدة من القرن السادس عشر حتى الثامن عشر. الملفت في الأمر أن الدراسة تتعلق بحقبة جاءت بين عصرين؛ المملوكي ١٢٥٠- ١٥١٧ وعصر محمد علي الذي بدأ منذ العام ١٨٠٥،

[٧٩] ميشيل فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، ترجمة الزواوي بغوره، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٧، ص ١٧٥.

[٨٠] ماكس فيبر، المصدر السابق، ص ١٠٣.

والتابعية هنا للدولة العثمانية، حيث الولاة عثمانيون والقوى المحلية الفاعلة جلها من المماليك. لكن ترصدات الباحثة الإيجابية تقوم على؛ عدم تدخل الدولة العثمانية العلاقات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية في مصر، واعتماد النظام الإداري السائد فيها، وتأمين أوضاع البحر المتوسط والبحر الأحمر مما جعل الأوضاع آمنة ومستقرة، والانفتاح على التعامل مع السوق الأفريقي والأوربي والآسيوي، حتى غدت مصر في صميم التجارة الدولية، بالإضافة إلى تضافر جهود التجار العرب لاستعادة دورهم في التجارة العالمية بعد الغزو البرتغالي للمنطقة في أعقاب اكتشافهم لطريق رأس الرجاء الصالح. لكن سلبيات تلك الحقبة بحسب ترصد نللي حنا، لها تقوم على أحوال الصراع بين العسكر على السلطة، وتفشي المجاعات والأوبئة، والنهاية الملفتة لدور الحكومة في تقديم الخدمات.[٨١] ويبقى الترصد الأهم لدى الباحثة يقوم على توجه تجار المدن نحو الإفادة من تنشيط النشاط التجاري وتنظيمه، في ظل الأوضاع التي كانت تعيشها مدينة مثل القاهرة خلال العام ١٦٦٠ والتي قدر عدد سكانها بـ ربع مليون نسمة، توزع فيها النشاط الاقتصادي بما نسبته ٣٨% للحرفيين، و٣٣% للتجار، و٢٠% للخدمات و٦% للترفيه، والسيادة الواضحة لإنتاج المنسوجات التي شكلت خمس الصادرات. إن توزيعا بهذا الحجم مهد لمنح الطبقة الوسطى أن تمارس البعض من دورها، لكنه الدور المحدود، باعتبار انعدام الوعي الذاتي لدورها، بدليل أن الأزمة الاقتصادية التي ظهرت خلال تلك الحقبة سرعان ما قضت على الطبقة الوسطى. في أعقاب توجه الطبقة الحاكمة نحو العناية بالإنتاج الزراعي والتوجه نحو تكثيف دورها في السيطرة على الضرائب، حتى تبدت الهيمنة من قبل النخب المسيطرة والتي تملك الحظوة لدى السلطة الحاكمة في استحداث التزامات أخرى، أثقلت على مسار التفاعل الاقتصادي في البلاد.[٨٢] هذا بالإضافة إلى السيطرة العامة والشاملة للقوى الأوربية، التي استفحل دورها في تسيير منافذ الاتصال التجاري وتوسع استثماراتها.

---

[٨١] نللي حنا، ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية، ترجمة رؤوف عباس، لا ناشر، القاهرة ٢٠٠٥، ص ٧٦.

[٨٢] المصدر نفسه، ص ١٠٠.

من التوزيع إلى الفعل

كيف يمكن الوعي بدور الطبقة الوسطى في المجال العربي. هل الأمر ينطوي على توزيعات للشرائح الاجتماعية التي تعيش في نطاق محدد، أم أن الأمر يرتبط بالدور والفاعلية التي تقوم بها هذه الطبقة أو تلك، حيث الارتباط بنمط الإنتاج والعلاقات الكامنة فيه. فالتطلع من قبل جلّ الشرائح الاجتماعية بقى يدور في فلك السلطة، باعتبار الرعاية الصادر أصلا من عمليات التوزيع المرتبط بنمط الإنتاج الريعي، وليس العمليات القائمة على العمل المنتج. ومن هذا فإن التوقف الأهم يبقى يدور عند الخيارات الغائبة؛ (**الحكم العادل- الثقافة المدنية الحضرية**) ومن واقع الوقوف الطويل عند نموذج الحاكم العادل، والبحث الدائب عن ذلك النموذج الذي قدمته دولة المدينة خلال عهد الرسول الكريم(ص) والخلافة الراشدة، فإن صورة السلف الصالح بقيت ماثلة في المخيال العربي، وراح التذكير يتم عادة بنموذج عمر بن عبد العزيز بوصفه الخليفة الراشدي الخامس، وهي إضافة فيها المزيد من الحنين إلى العدالة المفقودة. فيما تقلص دور الفعل الحضاري والنموذج المدني، الذي راح يتم إليه باسترابة وقلق وعدم ارتياح. نعم لقد ظهر نموذج الطبقة الوسطى في المجال العربي، ذات الدخل الثابت والاستقرار المادي، والتي يرتفع مستواها الاقتصادي عن الطبقة العامة، لكنها ارتبطت بشريحة موظفي الدولة، من قضاة وقادة شرطة وجباة وكتاب الدواوين وعمال البريد.[٨٣] لكن السؤال يبقى عالقا حول المآل الطبقي للمزيد من الشرائح العاملة في المجال العربي خلال تلك الحقبة، حيث الفقهاء والأدباء والمفكرون وصغار التجار والحرفيين. فهل يبقى الأمر منوطا (**بالمعاش**) أو المرتب الثابت والقار الذي تقدمه السلطة العليا، ممثلة بالحكومة. أم أن الفاعلية الاقتصادية تبقى بمثابة المهماز لترصد الحراك الطبقي في المجتمع.

---

[٨٣] عبد الله خليفة، الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية، بيروت، ٢٠٠٥، ص ٣٥١.

لا ينطوي الأمر على تحديد مسار سباق أو أولويات بين نموذجين، بقدر ما يكون الاهتمام منصبا على البحث في الأسباب، التي جعلت من أحد النموذجين أن يكون له الاستمرارية وتحقيق الحضور التاريخي البارز، حتى غدا بمثابة الأس الذي تقوم عليه الحضارة الغربية.حيث التطور التاريخي للدور الذي مارسته النخبة التجارية الأوربية، والذي كانت بوادره قد تبدت خلال القرن الحادي عشر، لكن التبلور الواضح كان قد برز خلال القرن الثاني عشر، وهكذا تجلى المسار التاريخي عبر جملة من المواجهات الحاسمة. أما على صعيد نشوء الطبقة الوسطى في المجال العربي، فإن الأمر يرتبط وبوثوق بمرحلة الفتوحات الإسلامية. والتي أشارت إلى السيطرة الواسعة على الطرق التجارية الرئيسة، فكان التجار العرب قد سيطروا على التبادل السلعي بين الشرق والغرب، ليبرز دور التجار والصيارفة والممولين والحرفيين والكتبة، وكان لهذا الازدهار أثره في تنامي المزيد من المهن والحرف التي تفرضها أحوال الرفاهية فظهر المستثمرون، والمشتغلون في المجالات العلمية كالطب والهندسة والعلوم العقلية. حتى انعكس هذا الأمر على المجمل من النشاطات، ليبرز التنامي للطبقة الوسطى، التي شادت حضورها على دور التجار، الذين نشطوا في دعم الإنتاج الزراعي، وإنشاء المدن ورصف الطرق والحرص على توفير الخدمات والحماية لها. لكن هذا النشاط لم يكتب له الدوام والاستمرارية بفعل أحوال الاختلال السياسي الذي ظهر خلال القرن الثالث الهجري، [٨٤] لاسيما في أعقاب ظهور الإمارات المستقلة، التي كان لها الأثر في تنامي الثورات ضد الدولة المركزية، وقطع الطرق التجارية الرئيسة، فكان التراجع الذي طال الطبقة الوسطى، بعد أن تعرضت فعالياتها إلى التوقف والمبالغة والشطط، التي راحت تتعرض لها التجارة والفعاليات المرافقة لها على يد الحكومات الفرعية، من ضرائب ومصادرات. وبالقدر الذي تعرضت فيه الطبقة الوسطى العربية إلى نهاية الدور على الصعيد الرسمي، فإن دور التفعيل بقي حاضرا وفاعلا، ، فقد تحول دور الطبقة الوسطى من التجاري إلى الثقافي في قيادة المجتمع، والذي تبدى في رفض أحوال إمارات التغلب التي راحت تنشر بحضورها على السكان، وما نجم عن خراب

---

[٨٤] محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، دار الانتشار العربي، بيروت ٢٠٠٠، ج ٢، ص ٧٧.

للمدن وهجرات سكانية، كان لها الأثر البالغ في تراجع الحياة العلمية، وسيادة التيار التقليدي المحافظ.

شهد القرن الرابع الهجري نهوضا للفئة التجارية العربية، في أعقاب ظهور الدول اللامركزية، مثل الدولة الفاطمية في مصر والدولة الأموية في الأندلس، وهي قوى دولية قيض لها أن تلعب دورا بالغا في استعادة دور التاجر العربي للسيطرة على التبادل السلعي. وقد تنامى هذا الدور حتى شكلت التجارة العربية عصبا رئيسا في الحياة الاقتصادية العالمية، إن كان على صعيد التبادل البضائعي، أم على مستوى عقد المعاهدات التجارية مع بلدان أوربا، أم في قوة العملة، وعلى هذا برز من جديد دور المدن العربية كمراكز تجارية، كان لها الأثر البالغ في تنشيط وتفعيل طريق الحرير البري الذي يربط الشرق والغرب، أو السيطرة على طرق البحار العالمية. ولم يغب عن هذا المشهد الجهود التي بذلتها النقابات الحرفية في التنظيم والتوظيب للدور، الذي لعبته فئة العلماء والمثقفين في النهوض العملي والمعرفي.حتى وصف هذا القرن بعصر النهوض العقلي، والذي ابرز المزيد من الأسماء الكبرى، مثل ابن الهيثم والبيروني وابن سينا، وثلة كبيرة من المبدعين والأدباء والشعراء والفلاسفة. وفي هذا يشير محمود إسماعيل إلى تضافر الجهد الذي بذله قطبا العلاقة(التاجر – المثقف) في التنامي البارز لدور الطبقة الوسطى. لكن هذا النمو سرعان ما تعرض للضمور في ظل تنامي الإقطاع العسكري خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، الذي كرسته إمارة التغلب السلجوقي، والذي تمدد زمنيا حتى طال العصر الحديث، [٨٥] حيث التنامي لدور الدولة في احتكار جل الفعاليات الاقتصادية. والذي ترافق مع سياسة المصادرة وفرض الضرائب وتصاعد الهيمنة من قبل الجهاز البيروقراطي الذي ارتبطت مصالحه مع أصحاب السيف.

---

[٨٥] محمود إسماعيل، دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي، لا ناشر، الدار البيضاء ١٩٧٩، ص ٤١.

تنميط الواقع

بقيت الطبقة الوسطى في المجال العربي، تدور فلك الدور النمطي الخاضع لجملة من العوامل لعل الأبرز فيها، توجه الرأسمال فيها للاستثمار في مجال الأرض، ومن هنا ظهرت البورجوازية العربية أشد ارتباطا بملكية الأرض والتي تقارب دورها وإلى حد بعيد بالنمط الإقطاعي، فيما بقي النشاط الحرفي مستندا إلى الفعاليات التقليدية القائمة على العمل اليدوي، والموّجه لسد الحاجات المحلية، ولا يغيب عن كل هذا أحوال التراجع العلمي، فقد بقي التعليم يعاني من التأخر في المناهج والقصور الفاضح في استيعاب روح العصر، وهذا ما يكشفه العجز عن تخريج الكفاءات القادرة على قيادة التغيير. و لم يتوقف هذا التسلل عند مجال التعليم، بل تخطاه إلى التسيد على مجمل الأوضاع العامة في الجامعات العربية، التي عقد عليها الأمل في تخريج الكوادر المؤهلة، فإذا بها تتحول إلى تخريج الدفعات الهائلة من العاطلين والناقمين والمحبطين. لقد أضحت هذه المؤسسة بمثابة الساحة التي يتم فيها تعطيل القوى الفاعلة المستنيرة، وتقديم جميع الظروف الموضوعية التي تساهم في تصدر القوى الرجعية والظلامية للمشهد العام. وهذا ما يتجلى في الإعلاء من إحلال الثقافة الجديدة القائمة على؛ تقديس ثقافة الاستهلاك وجعل الكسب السريع بمثابة القيمة العليا، والتأكيد على الواجهات والانهمام بها، حتى غدا اللقب العلمي، بمثابة الهدف الأعلى والأسمى والأغلى. وهكذا راحت الظاهرة تبشر بظهور جيل جديد، لا هم له سوى الحصول على (شهادة التخرج)، تلك التي فقدت حتى قيمتها الرمزية، بسبب التطلع الهائل من قبل المجتمع نحو شراء الألقاب العلمية، وتزويرها، ومن هذا الواقع المترع بالوهن والانفلات والضعف، لم تجد تلك الفئات التي تعاني من الخيبة والتراجع وقلة الحيلة، سوى الالتحاق بركب القوى السياسية والمالية، ومن هذا تبدى الوهن المعرفي والعلمي، حتى عجزت الجامعات العربية أن تتبوأ مكانة في قائمة الجامعات العالمية المائة الأوائل، فيما غدت البعض منها بمثابة الحلقة التي يتم فيها تداول ثقافة المرارة واللاجدوى، وتنامي حس الإخفاق والإحباط لدى الشباب. فيما تكرس الإلحاق من قبل القوى المهيمنة والمسيطرة، لتغدو مجرد تابع ذيلي عاجز عن تقدير ذاته، فكيف له أن

يتصدى لأداء دور قوامه التغيير والتفعيل؟! وبقيت الدولة تمارس حضورها المهيمن على جميع القطاعات والحقول الاقتصادية، ممارسة بحق المجمل من الأنشطة، حيث سياسة الاحتكار وما يتبعها من تقييد لحرية العمل وقمع لروح الابتكار والتغيير.فيما لعب الجهاز البيروقراطي المرتبط بها على تكريس التبعية وتقديم ثقافة الخضوع.(٨٦)

الحامل التاريخي

بالعودة إلى البحث في ثنايا الدور الذي مارسته الطبقة الوسطى، خلال الحقبة العثمانية يمكن الوقوف على البعض من الملامح في مجال المساهمة في صناعة التغيير الذي تبدى على صعيد المنظومة السياسية، وهذا ما يتبدى في الدور الذي لعبته النخبة العربية، وعلى صغر حجمها، في توجيه أنظار السلطة العثمانية نحو أهمية التطلع نحو النهوض بمشروع التحديث، الذي جاء بناء على الإرادة الغربية، وبضغط وتصميم وتوجيه منها، فكانت حركة الإصلاحات، والتي تمثلت في الخطوط الشريفة كولخانة ١٨٣٩، وهمايون ١٨٥٦، وهكذا جاءت مطالب التحديث، واعتماد القوانين الحديثة الساعية نحو إلغاء العلاقات الاقتصادية القديمة، كنظام الالتزام، والدعوة إلى اللامركزية والاعتراف بحقوق القوميات التي تؤلف الجسد الإمبراطوري.

تجسدت فاعلية النخبة العربية في التطلع نحو الدور الاجتماعي، عبر التأكيد على مشروع اليقظة الذي تطلعت إليه عبر تأسيس الجمعيات، والتي كانت بمثابة النواة لانطلاق الحياة الحزبية.، تلك التي قيض لها من قيادة المشروع الوطني في مواجهة القوى الاستعمارية، حيث ولادة جيل الاستنارة الذي تصدى لمشروع بناء الدولة العصرية، عبر الصياغة الواعية والهادئة لمشروع الاستقلال الوطني، وهكذا انخرط في تجليات هذا المشروع جل القوى الاجتماعية، من (صغار التجار، والمتعلمين، والمهنيين، والمثقفين، والبورجوازية الصغيرة)، إنها الاستنارة القائمة على ثنائية

---

[٨٦] محمود عبد الفضيل، التشكيلات والتكوينات الطبقية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت١٩٩٧، ص ١٣٣.

(المدينة- التعليم). ومن هذا كان التطلع نحو بناء نموذج الدولة الحديثة القائمة على ثقافة المؤسسة والتقاليد الإدارية، فظهرت التوسع في بناء المدارس، وإنشاء المدن، وإنجاز البنى الأساسية والخدمات، وقيام الجيش والشرطة الوطنية، وظهور نواة الجامعة، كل هذا والتوجه كان متطلعا بثبات نحو حلم قيادة مشروع الدولة المستند إلى الديمقراطية الدستورية، والتعددية السياسية وتكافؤ الفرص، وتأسيس مجتمع العدالة القائم على القانون وحقوق المواطنة، وريادة مشروع التحديث الاقتصادي، القائم على الحرية والديمقراطية والدستورية، والتعددية الحزبية. إنه مشروع الدولة الوطنية والذي جاء بناء على الرعاية المباشرة الصادرة من لدن القوى الاستعمارية، في أعقاب الحرب العالمية الأولى. وفي هذا كان التكريس لتوجيه أصابع الاتهام، نحو الطبقة الوسطى، التي حملت على أكتافها قيادة هذا المشروع، لما تملكه من استنارة عقلية واستقرار اقتصادي.

في الشرعية الثورية

في أعقاب الحرب العالمية الثانية، ظهر **جيل الثورة**، الذي تصدى نحو إنجاز مشروع الاستقلال، عبر التطلع الحثيث للخلاص من هيمنة الرأسمال الأجنبي، وتأميم المصالح الوطنية، فكانت تجربة الثورة المصرية بقيادة جمال عبد الناصر، بمثابة النموذج الذي سارت عليه أغلب التجارب الوطنية في الوطن العربي، والتي أخذت على عاتقها القيام بمشاريع التغيير لبنية العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، حيث البروز لمشاريع الإصلاح الزراعي والرعاية الاجتماعية والصحية، والتوسع بالتعليم المجاني، وتخطيط المدن ومشاريع الإسكان، والعناية بالصحافة والنهوض الثقافي. إلا أن هذا كله راح يواجه بروز القوى الصاعدة؛ (**العسكر، القوى العشائرية، الأحزاب**)، والتي لم تتوان من عقد التحالف فيما بينها، تحت دواعي مواجهة التحدي الاستعماري- الصهيوني، حتى كان شعار (**كل شيء من أجل المعركة**)، [٨٧] الذي تم توظيفه لخدمة الأغراض

[٨٧] حسين العودات، انهيار الطبقة الوسطى العربية، مجلة حوار العرب، العدد ١٠، سبتمبر ٢٠٠٥، ص ٣٤.

الفرعية، وهكذا تم عسكرة المجتمع وتريف المدينة وظهور نموذج الحزب الواحد الذي استند إلى تعزيز ثقافة التخوين، ليتم الإطاحة بالطبقة الوسطى، تلك التي راحت تعيش لحظات الإخفاق والتراجع منذ مطلع سبعينات القرن العشرين. حين أصبحت المعوقات تطال الدور الذي أنيط بالدولة الراعية، فقد صار الخضوع لمشروع التصحيح الهيكلي الذي راح يفرضه البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، على البلدان ذات المديونية العالية. ولم يكن أمام تلك الدول سوى التوجه نحو تقليص الإنفاق العام، واعتماد التطلع نحو تحويل القطاع العام إلى خاص، ومن هذه الخصخصة التي قدمت إلى البلاد العربية بنموذجها المتوحش، تم تسريح الأعداد الغفيرة من العمال والموظفين، فيما تعرض خريجو الجامعات إلى مواجهة البطالة، بعد تخلي الدولة عن توفير فرص العمل لهم، والدخول في دوامة السوق الحر القائم على اقتصاديات السوق والتنافسية، من دون الاستناد إلى العلاقات الإنتاجية القادرة على استيعاب مجمل العلاقات والسياقات التي يفرضها مثل هذا النموذج، القائم أصلا على الرؤية الرأسمالية. ومن هذا تتبدى أحوال التناقض حين يتم التطلع إلى التطبيقات الرأسمالية في سياق يقوم أصلا على نمط الإنتاج الريعي.

يبقى مفهوم الطبقة الوسطى، يعاني من التداخل وسوء الفهم في المجال العربي على وجه الخصوص، ومبعث هذا يعود إلى الخلط المفهومي في طريقة التعاطي مع مصطلحات(**الطبقة، الفئة**)، فإذا كان الطبقة الوسطى تقوم على طريقة التوزيع للدخل، والقوام البيني ما بين الأعلى والأدنى، بين الفقير والغني، وأنها غير مستقرة على اعتبار أوضاع التحول في الوضع الاقتصادي، وما ينجم عنه من دخول فيها وخروج عنها بحكم الخضوع لمعيار الدخل، واحتوائها على المزيد من الفئات(بورجوازية صغيرة، تجار صغار، موظفون، مهنيون) [(٨٨)]. والأمر هنا يتقارب وإلى حد بعيد مع مفهوم الإنتلجنسيا intelligentsia، والذي يشمل فئة المثقفين والمتعلمين، حيث التأكيد على الاستقلالية المعرفية من خلال ريادة المشروع الفكري، من خلال تكريس دورها النقدي، النائي

[٨٨] فالح عبد الجبار، الديمقراطية المستحيلة والديمقراطية الممكنة، دار المدى، بيروت ١٩٩٨، ص ٤٧.

بنفسه عن الخضوع لأي ولاء فرعي، فلا ولاء لها سوى لفكرة التقدم الإنساني، ولا محرك لها سوى **(الحرية والمساواة والعدالة).**

المبحث الرابع

أن تأكل جيدا؟![٨٩]

فيبر والعقلانية الألمانية

(مصير عصرنا يتسم بالترشيد والعقلانية، وفوق كل ذلك بنزع الوهم عن العالم) ماكس فيبر[٩٠]

مقدمة القراءة

الترشيد والعقلانية ونزع الوهم عن العالم والأنماط المثالية، تلك هي الوسيلة المنهجية التي ميزت عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر. حيث الإيمان المطلق بقيمة الفرد، القائمة على الفهم الذاتي، والتي تعد الوسيلة نحو تفسير الظاهرة الاجتماعية. وبما أن الفرد يعد كائنا عاقلا قادرا على التمييز، فإن الفردية لدى فيبر تحتل الأسبقية على الفكر الجماعي. وأن الواقع يسير بناء على المقاصد والنوايا التي تميز الفاعل التاريخي الذي يتماهى مع الواقع.

---

[89] Max Weber (2001) The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism , Translated by Stephen Kalberg , Roxburg Publishing Company , London , p 7. يشير فيبر هنا إلى أن الفرق بين الكاثوليك والبروتستانت يقوم على أن الأول يسعى أن ينام بسلام، أما الثاني فيتطلع أن يأكل جيدا، مستمثرا المثل الشعبي السائد الذي يقول: “ One can either eat well or sleep peacefully”.

[90] Anthony J. Cascardi (1992), The Subject of Modernity, Cambridge University Press, p16.

ماكس فيبر Max Weber ١٨٦٤-١٩٢٠، الفيلسوف والمؤرخ وعالم الاجتماع الألماني [٩١]، الذي كان له الأثر الأبرز والأهم في إرساء القواعد المنهجية للتاريخ الاقتصادي والثقافي، وتوطيد الإطار الفلسفي لعلم الاجتماع. تأثر فيبر بتيار الكانطية الجديدة Neo – Kantianism [٩٢] وما أفرزته من مواجهات فكرية والتي عرفت بـ (**الجدل المنهجي Mthodenstreit**) في الوسط الأكاديمي الألماني حول **العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية**، حتى أن التعريف بهذه القضية صارت تقدم باللغة الألمانية[٩٣]، والتي أبرزت التأثير المباشر على فكر فيبر، لاسيما في صياغة مفهوم الأنماط المثالية Ideal Types، التي استثمرها في صياغة كتاب الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية. أو في التوجه نحو حسم مسألة الفصل بين المنهجين (العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية)، عبر التركيز على أن الطبيعي يقوم على الخبرة والقوانين العامة، فيما الإنساني يستند إلى مدى العلاقة القائمة بين الدلالة والقيم. وهكذا قيض لـ فيبر صياغة مفهوم: **الفهم - التفسير** Interpretation (يصوغها فيبر باللغة الألمانية Verstehen). على اعتبار أن العلوم الإنسانية تقوم على المعاني المركبة التي تستدعي الفهم الخاص، النائي بنفسه عن الإدارك الحسي المباشر.

---

[٩١]. ولد ماكس فيبر في الثاني والعشرين من شهر نيسان/ابريل عام ١٨٦٤ في مدينة إيرفورت الألمانية. درس علوم الحقوق والفلسفة والتاريخ والاقتصاد القومي. عمل في جامعة فرايبورغ، انتقل إلى جامعة هايدلبرغ.، أصيب عام ١٨٩٧بمرض نفسي جعله ينقطع عن الحقل المعرفي والعلمي فترة اربع سنوات. ليعود إلى حقل الإنتاج المعرفي مقدما كتابه الأشهر (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) عام ١٩٠٥. عام ١٩٠٩ شارك فيبر في تأسيس الجمعية الألمانية لعلوم الاجتماع، يعد من المؤسسين للحزب الديمقراطي الألماني عام ١٩١٩. Fritz Ringer (2010) Max Weber An Intellectual Biography, University of Chicago Press,

[٩٢]. ظهر هذا التيار في ألمانيا عام ١٨٦٠ على يد المؤرخ كونو فيشر، حيث استطاع أن يستميل العديد من المفكرين الألمان البارزين من أمثال فردريك لانجه، هنريك ريكرت، ويلهم فندلباند، ويلهم ديلتي. من أجل مواجهة تسرب مناهج العلوم الطبيعية في العلوم الإنسانية والاجتماعية. ويقوم هذا التيار على معطيين، الأول: وجود عالم قابل للإدراك حيث المعرفة الظاهرة. وعالم الشيء في ذاته حيث الجمال والحرية والفضيلة والأخلاق. أما المعطى الثاني فيقوم على: السعي نحو تحليل الشروط المنهجية للمعرفة الموضوعية المتعلقة بالجهاز المفاهيمي الخاص بالعلوم الإنسانية. Paul Honigsheim and Alan Sica (2003) , The Unknown Max Weber, Transaction Publisher, New Jersey , p 102.

[93]. Geisteswissenschaften and Naturwissenschaften

من أجل فهم العالم

توقف فيبر عند العلاقة القائمة بين **الفهم والتفسير**، متطلعا نحو التمييز بين الفهم القائم على الوصف الظاهري المباشر، والفهم القائم على التفسير الواسع والشامل. منطلقا في نظرته هذه، إلى الإشكال القائم بين **الفعل والمعنى**، بناء على الرؤية المستندة إلى الفرادة Ideographic والاتجاه المتطلع نحو التعميم Nomothetic، حيث التأكيد على أن منهج العلوم الإنسانية، إنما يقوم على الفرادة التي تتمتع بها الظاهرة الثقافية. فيما يكون التركيز الفيبري منصبا على الفاعل الاجتماعي والأهداف التي تعن عليه. وعلى هذا كان التطلع نحو تفسير الظاهرة الاجتماعية عبر التفحص العميق في الفعل الصادر عن الفرد وليس عن الجماعة. باعتبار إمكانية ترصد وتفحص وعي الفرد، هذا الأخير الذي يشكل السمات والفرادة التي تتميز بها الحقبة التاريخية، بناء على الأهداف والغايات والمقاصد التي يتبناها الفرد. في حين وجه أسهم نقده إلى التفسير من خلال النشاط الجماعي، باعتبار التداخل الذي يقود إلى التعميم المضلل والمخل.

هذه الرؤية التي ألحّت على فيبر، إنما جاءت متوافقة مع نظرية الفعل Action Theory، تلك التي وجهت جلّ مرتكزاتها حول الفعل الإنساني، والبحث في جوانبه المختلفة من حيث المعنى والتفسير وطبيعة الفعل. فيما شكل (المعنى الذاتي للفعل) مقوما رئيسا في ترصد السمات الرئيسة التي يقوم عليها الفعل. ومن هذا وضع فيبر الأنماط الأربعة للفعل تلك التي تمثلت في؛ (**التقليدي، العاطفي، القيمي، الرشيد**). على اعتبار البحث عن تفسير لأفعال وعلاقات وأفكار الأفراد،

بالإضافة إلى الخصائص والسمات التي يتمتعون بها، حيث الفردية المنهجية Methodological Individualism. وتتبدى المعالجة المنهجية في صياغة مفهوم فرص الحياة Life Chance، الذي تم توظيفه في موضوع الطبقة والمكانة والموقف الطبقي، باعتبار أن الفرد ومن خلال فعله الاجتماعي، يتم ترسيم حدود فرصه من خلال توزيع الثروة في الجسد الاجتماعي، عبر مجال توافر الثروة والسلع والخدمات داخل السوق.[٩٤]

تكمن نظرة فيبر إلى علم الاجتماع، بوصفه المسعى نحو فهم الفعل الاجتماعي من خلال دراسة السلوك البشري الفردي، عبر ربطه بالمعنى. حيث التركيز على دراسة الأهداف المقاصد التي توجه ذلك السلوك، وتجعل منه فعلا اجتماعيا. وهكذا يكون الفهم Verstehen الذي ركز عليه فيبر قائما على؛ مجمل التفاعلات والعلاقات التي تتم بين الأفراد. أنه التركيز على الفعل الفردي الذاتي، الذي لا يمت بأية صلة للجماعي العام، على اعتبار أن الفعل الإنساني لا يقوم على الانتظام والترابط. أو أن ثمة حتمية يمكن لها أن تحدد مسار تاريخ البشرية. وعلى هذا فإن مهمة العلوم الاجتماعية إنما تتلخص في؛ **الوصف، التحليل، التصنيف**. التمييز الأهم يمكن ترصده في أحوال الفصل بين؛ **القيم والمعرفة**. وإذا أريد للبحث الاجتماعي من أداء دوره العميق والفاعل في التحليل والتفحص، فإن التطلع يجب أن يتحدد في مجال محفزات القيم والدوافع التي تحدد مسار السلوك الفردي على صعيد الواقع. فيما تبقى الأهمية حاضرة حول ضرورة نأي البحث عن التحيزات والأسبقيات. ومن أجل بلوغ فهم الواقع فإن من المهم التطلع نحو إعمال العقل في دراسة

---

[94] R. Dahrendrof(1979) , Life Chances, Weidenfeld and Nicolson, London. See also, John Urry, Nicholas. See also, Wendy Bottero(2005) Stratification: Social Division and Inequality, Routledge, New York, p 38.

الفعل الاجتماعي من خلال التفاعل الحي مع الواقع.، إذ لا يمكن تعميم ظاهرة وإسباغها على ظاهرة أخرى ، فلكل ظاهرة فرادتها وظروفها ومحدداتها الخاصة بها. ولكل مجال وحقل اجتماعي له سلوكه الذي يمكن تصنيفه بناء على المحددات الحاكمة له.

القصدية والتوجيه

يقّر فيبر إلى أن الفعل الإنساني إنما يقوم على أحوال التداعيات النفسية والاجتماعية والتاريخية. لكن هذا التداعي يمكن مواجهته من خلال إمعان النظر في رصد مساره، سعيا لفهمه وتفسيره، وبالتالي الوقوف على استشراف مستقبلي له. ومن هذا المنطلق كان التوقف الجاد عند التمييز بين المفاهيم العامة والوقائع التجريبية. عبر اجتراح رباعية الأنماط المثالية لفعل الاجتماعي المستندة إلى؛ النمط المثالي الموّجه بالعقل حيث العلاقة القائمة بين السبب والنتيجة. والنمط المثالي الموّجه بالقيم الأخلاقية والعقائدية، والنمط المثالي الموّجه بالعاطفة، والنمط المثالي الموّجه بالتقاليد التي تفرضها اشتراطات المؤسسة وتقاليد العمل والعلاقات السائدة فيها.

لقد بحث فيبر في صلب مستويات الفعل الاجتماعي متتبعا، مستوى (القصد والغاية)، ومستوى العلاقات الاجتماعية التي تدور بين أكثر من فاعل اجتماعي.، ومستوى العلاقات القائمة على النظام الاجتماعي الذي يحدد مسار التفاعل الاجتماعي. وعبر هذه المستويات قيض لفيبر من الوقوف على (**مضمون الفهم**)، والذي يتعلق بأن السوسيولوجي لا يروم التوقف عند أهداف الفاعل الاجتماعي، بقدر ما يكون التطلع نحو تفسير هذا الفعل. إنه المسعى نحو الفهم الفدري، باعتبار أن الفعل إنما يقوم على (الخبرة القائمة على التجربة). فيما كانت الوقفة المتأملة عند

(**مضمون الفعل الانساني**) بوصفه سلوكا يقوم على الغاية والمعنى. فيما يرفع الحوادث العرضية من قائمة اهتمامه، بوصفها سلوكا لا ينطوي على فعل مقصود أو يحمل معنى. أما (**مضمون الفعل الاجتماعي**) فهو يقوم على القصدية المتعلقة بسلوك الآخرين. حيث الحضور الطاغي للمعنى المشترك. لكن هذا المشترك لا يقبله فيبر بالمطلق، بل سرعان ما يضع اشتراطاته المتعلقة بقيمة الفعل، من خلال ارتباط السلوك بالواقع.

التحرر من القيمة

يصوغ فيبر مفهوم التحرر من القيمة Value- Freedom، بناء على الفكرة التي تقول إن المفاهيم المستخدمة في العلوم الاجتماعية والإنسانية، لا يمكن لها أن تغطي المجمل من التفاصيل التي يزخر بها الواقع المركب والمعقد. وبالقدر الذي تقوم فيه المفاهيم والمصطلحات في المجال الاجتماعي على المزيد من المعاني والقيم. فإن اختيار الموضوعات إنما يخضع لـ دلالة القيمة Signify of value، والتي تمثل الموجه في اختيار الوقائع للموضوعات، عبر إبراز وإظهار المضمون المضمر الذي تكتنز به الظاهرة. هذا مع أهمية الأخذ بنظر الاعتبار أن زوايا النظر تبقى قائمة على الاختلاف والتنوع الذي لا يمكن حصره. حيث حالة الاقتراب من اللحظة الحرجة، تلك التي تتمثل فيها، اتجاه الباحث صوب صياغة الفكرة، ليقع شاء أم أبى في فخاخ (**التحيز الموضوعي**)، باعتبار اعتماد تقنية البحث على العلاقة السببية، تلك التي تقوم أصلا على دلالة القيمة الكامنة فيها، والظروف المحيطة بالموضوع أصلا.[٩٥]

[95] Joshua Deman (2012) Max Weber in Political and Social Thought; From Charisma to Canonization, Cambridge university Press, p 71.

انصبت جهود فيبر على الفصل بين العلم والقيم، على اعتبار أن هذه الأخيرة لا عقلانية. وهكذا كان التوجه نحو تشذيب علم الإجتماع من عناصر اللاعقلانية من خلال استبعاد القيم المتعلقة، بالأيديولوجيا والسياسة ورؤية العالم. فالقيم يمكن أن تكون موضوع بحث، إلا أن الروح العلمية حين تتعاطى مع منظومة القيم، تتعرض إلى فقدان المزيد من العقل والحقيقة، هذا بحساب أن منظومة القيم إنما تقوم على الرغبة والاعتقاد. وبناء على هذا جاءت دعوة فيبر الصارمة والواضحة حول أهمية فصل العلم عن السياسة.

الترشيد وعقلنة العالم

مرتكز رؤية فيبر تقوم على أن التطور الذي شهدته المجتمعات المعاصرة، إنما يقوم على الترشيد Rationalization الساعي نحو نزع الوهم عن العالم Disenchantment، باعتبار أن نموذج الدولة المعاصرة القائمة على القانون والعلاقات الرأسمالية والإدارة البيروقراطية، إنما جاء عبر ترشيد الحياة اليومية، بناء على التوجه نحو استثمار المعرفة بشكلها الخلاق الفاعل. وتعزيز مسار العلاقة القانونية النائية بنفسها عن الإطار الشخصي، والتطلع نحو السيطرة على البيئة واستغلال الموارد. بما يحقق الرفاهية والتطور لمجمل التفاصيل المتعلقة بالمجتمع الحديث. إلا أن فيبر يضع يده على المفارقة الموضوعية في عملية الترشيد هذه، عبر بوابة ترصد ثنائية؛ الغايات **والوسائل**. فإذا كانت القوانين والرأسمالية والبيروقراطية تعّد وسائل، الغاية منها التنظيم والعمل على زيادة الرفاهية وتحسين أوضاع المجتمع، فإنها بتحولها إلى غايات وأهداف، استحالت إلى قيود تعطل مسار المجمل من أنشطة المؤسسات العاملة في الحقل الاجتماعي. بل أضحت عملية الترشيد،

بمثابة القواعد التي ينبغي على المرء الانخراط في تجلياتها، والتبعية المطلقة لأهدافها وغاياتها المرسومة. ومن هذا فإن الخلاص من كل هذا التداخل إنما يمر عبر الدور الذي تضطلع به الشخصية الكاريزمية.[٩٦]

لقد حصر فيبر مفهوم الترشيد بوصفه وسيلة منهجية لتحليل المجتمع الرأسمالي، حيث التمييز القائم على جملة المعطيات التي يقوم عليها، إن كان على مستوى التنظيم والعلاقات والعقيدة والسياسة والثقافة. ومن هنا فإن مقياس رشد النظام إنما يتم عبر ارتباطه بنجاعة أدواته في تحقيق أهدافه. فيما تبقى أحوال الخلاص من قيود الأعراف والتقاليد، أو سطوة القيم، أو هيمنة العلاقات الشخصية على الواقع، بمثابة السمة الرئيسة التي تميز رشد نظام أو مؤسسة عن أخرى.

الكاريزما والبحث عن المنقذ

لقد شخص فيبر ثلاثة أنماط للسلطة (**التقليدية، الكاريزمية، الرشيدة**). فيما توقف عند السلطة الكاريزمية Charisma القائمة على سمات الفرادة التي يتمتع بها القائد، والإلهام الذي يميزه. إنها السلطة التي تقوم على التأييد الجماهيري الواسع حيث التعاطف الكبير والشغف الهائل بشخصٍ مُنح صفات، يعّدها الجمهور فوق البشر العادي. إنها صورة المثال الذي ترسمه الجماهير في مخيلتها، من أجل بلوغ أهداف قصوى وطموحات واسعة تتعلق بالآمال والخيالات التي تعّن على الأمة في مرحلة ما، باعتبار البحث عن المنقذ القادر على قيادة المجتمع نحو تحقيق الأحلام والآمال

96. Anthony Kronman (1983) Max Weber: Jurists Profiles in legal Theory , Stanford University Press, p 50.

المنشودة. إنها أحوال العلاقة بين قائد وأتباع تحكمها اللاعقلانية واللا مألوف. وهي مظهر من مظاهر التغير لمجمل العلاقات التقليدية، عبر إلهام الجماهير روحا من العاطفة الجياشة، التي تصل في الكثير من الأحيان في التأثير في سيكولوجية الجماهير، أو ما يقارب التنويم المغناطيسي. لكنها في النهاية تبقى تسير لصالح المتبوع، فيما يتمتع القائد الملهم بجميع المزايا. أو كما يعلق فيبر نفسه حول هذه العلاقة؛ (إنه مكتوب، ولكني أقول عليك) [٩٧] والواقع أن توقف فيبر المدقق والمعمّق في السمات المتعلقة بالشخصية الكاريزمية، جعلت العديد من دارسيه وشارحي نصوصه، يشيرون إلى أنه قد بشّر بظهور شخصية هتلر، التي تعاطف معها الشعب الألماني في أعقاب الهزيمة المذلة، التي تعرضت لها ألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى.[٩٨] وتبقى السلطة الكاريزمية رهينة بشخص القائد، وعلى هذا فإن مجال استمرارها يبقى محدودا، باعتبار ما يتعلق بالتغيرات والأحوال والأوضاع التي تحيط بالقائد، أو حين يتعرض للنهاية الطبيعية والمتمثلة بالموت. لتبقى تلك الظاهرة عالقة بين النمطين (الرشيد أو التقليدي).[٩٩]

يتوقف فيبر عند الكاريزما بوصفها حالة استثنائية، تتعلق بالشخصية القيادية، التي تنهل عن النموذج البيروقراطي، حيث تمأسس العلاقات، على اعتبار أن الدولة الحديثة إنما جاءت نتيجة لمؤثرات الكاريزما، بوصفها الموهبة التي تتمتع بها الشخصيات الاستثنائية ، القادرة على حشد الأتباع. من خلال القدرات المتميزة، والتأثير في الجمهور، واستيعاب روح التاريخ. وهكذا فإن

---

[97]. Max Weber(1968) , On Charisma and Institution Building, Edited by Eisenstadt, University of Chicago Preess, p 51. " It is written … but I say unto you".

[98]. Joseph Nyomarkay (1967) , Charisma and Factionalism in the Nazi Party, University of Minnesota, p. 9.

[99]. Max Weber, Economy and Society , Ed by Guenther Roth and Claus Wittich, University of California Press, p 1114.

الشخصية الكارزمية تقوم على فكرة تحويل الأفكار والآمال والطموحات إلى ممارسة واقعية، عبر المجابهة المباشرة مع التقاليد، والقدرة الفائقة على تفجير المشاعر وحفزها، والوعي العميق لروح العصر.

تتجلى ملامح الشخصية الكارزمية خلال الأزمات التي تتعرض لها الأمة، ويبرز دورها في أوضاع الاختلال وتنامي الحاجة إلى البحث عن الحلول الاستثنائية. وفي هذا لا يتوان فيبر من وضع المعادلة القائمة على أن تفاعل العلاقة بين الكاريزما والبيروقراطية، إنما يقود إلى خلق حالة من التواصل التاريخي لدى الأمة. عبر القدرة غير المحدودة على مواجهة الخلل، والقابلية على انجاز المواقف غير المالوفة. بل أن اشتدلاد الأزمة يجعل من الجماهير تسعى جاهدة للاستنجاد بالشخصية الكاريزمية، وإن كانت خارج نطاق العلاقات التقلدية المستقرة التي تنتجها البيروقراطية أو العلاقات الطبقية القائمة على السيد الإرستقراطي القائم على النبالة والمكانة الاجتماعية التقليدية. إنها الفرادة الخارقة القائمة على الابتكار والتجديد، والمتطلعة نحو النهل عن النموذج الذي تتوقف عنده الأمة بوصفه الأوج والألق، والمسعى نحو بث شحنات التجديد فيه والعمل على تحديثه، بما يتوافق والمزاج النفسي الجمعي. إنها الاستجابة القائمة على التميز لحاجات المجتمع، استجابة يتداخل فيها العقلي والعقائدي والنفسي.

حمولات البيروقراطية

يقول فيبر: **(الإدارة البيروقراطية في أصلها، تمثيل للهيمنة من خلال المعرفة)**.[١٠٠] وهكذا فإن السلطة الرشيدة الساعية نحو إدارة الموارد وتنظيم مستوى العلاقات عبر الإفادة القصوى من المعرفة، إنما تمر عبر بوابة النمط البيروقراطي، وهو من الأنماط المثالية التي توقف عندها فيبر، وشغلت المساحة الواسعة من جلّ فكره وانشغالاته المعرفية. إنها الإدارة القائمة على الجهاز الوظيفي الذي يشّكل همزة الوصل بين النخبة القائدة والجمهور، بناء على العلاقات اللاشخصية القائمة على نجاعة القانون. إنه المسعى نحو تطوير الوسائل والأدواة من أجل تسويغ الهيمنة والسطوة والسيطرة. حيث الحضور الطاغي والحاسم لفعالية الترشيد.

و هكذا تقوم البيروقراطية على السلّم الوظيفي، المستند إلى التدرج الهرمي، في نوع الواجبات ومستويات الاتصال، والاعتماد المتزايد على الخبرة والكفاءة في تنظيم العمل الإداري والوثائقي، مع الحفاظ الصارم والدقيق على تقاليد العمل والكتمان والسرية. بالإضافة إلى تبني خطة عمل واضحة تقوم على جدولة الأولويات وترسيم ملامح الأهداف، والمسعى نحو الحفاظ على السيطرة، من خلال التوافق الدقيق مع القواعد الساعية نحو التمييز بين الرسمي والشخصي. إنه الكادر الوظيفي الذي يمثل النمط المثالي، عبر تحصله على الوظيفة من خلال الخبرة والكفاءة.

100 Op cit, vol1 , p 225.

والتي تكفل له التواصل في عمله ومنحه الرتبة والمكانة والوجاهة في مجتمعه، لينعكس ذلك في خلق فئة تنتمي إلى مجالها وحيزها المميز.

قيمة البيروقراطية تتبدى في قدرتها الواسعة على تحقيق الهيمنة، فيما يبقى مقياس الرشد فيها مرتبطا بقدرتها على تحقيق الأهداف. إلا أن هذا كله يبقى رهنا بشروط تتمثل في توافر العلاقات الديموقراطية القائمة على المساواة أمام القانون. وقدرة الإدارة وإمكانيتها في رسم الخطط ومعالجة المشكلات العالقة، والتطلع نحو الممارسة الفاعلة المستندة إلى الاضطلاع بالمهام بكفاءة ومهارة، وتواصل لا يعرف الوهن أو الفتور. فيما تبقى فعالية البيروقراطية مرتبطة بالعلاقات الرأسمالية والحراك الذي يفرضه اقتصاد السوق والتفعيل الذي تستلزمه حرية التجارة.

على الرغم من حمولات النقد الثقيلة التي يتم توجيهها إلى البيروقراطية، إلا أنها تبقى الوسيلة الأكثر نجاعة في تسيير متطلبات الدولة الحديثة. فهي الحاجة التي لا يمكن الاستغناء عنها. نعم قد يترهل الجهاز الإداري وتبرز أعراض الإتكالية، ومحاولات الإفلات من المسؤولية ويغدو عبئا على الدولة والمجتمع. وقد يتعمق الروتين في صلب العلاقات، ويعمل على تعطيل المزيد من الإجراءات والقرارات. وقد تتبدى ملامح استغلال المنصب والفساد الإداري والمحاباة. ويمكن أن يتحول الجهاز الإداري غلى أداة تعطيل حين يتم التمسك بالشكل على حساب المضمون والجوهر العميق الدال. إلا أن هذا النموذج تبقى أهميته حاضرة وفاعلية في صميم العلاقات التي تفرضها حاجات الدولة والمجتمع. البيروقراطية يختصرها في فيبر في رباعية (الإنجاز، **العلاقات، القوة، الخلل في الأداء**). إنها ملامح قوة التنظيم الذي يبقى يشير إلى تنامي البيروقراطية بحسب فيبر،

فيما كان معاصروه يبشرون بأن المستقبل يبقى فاردا ذراعيه للحرية والديموقراطية.[١٠١] مثل فيبر مصدر إلهام للمزيد من الفرضيات والنظريات، لاسيما على صعيد نظرية التنظيم Organization Theory، التي استلهمت من النمط المثالي في تنظيم الدولة، المكانة التي يشغلها الموظفون العاملون في بنية التنظيم، وما تفرزه تلك المكانة من واجبات، وطريقة التحكم في مجريات العمل والسيطرة والتوجيه على القرار جوهريا.[١٠٢]

المثال اللا مثالي

يمثل النمط المثالي Ideal Type مفهوما مركزيا في فكر ماكس فيبر وقد يأتي وصف المثالي هنا مضللا، فليس القصد بالمثالي هنا المتكامل الخالي من العيوب، بقدر ما هو تعبير عن وضع أو حالة[١٠٣]. يتم من خلالها تمييز نظام اجتماعي، يكون المثال هنا بمثابة الوسيلة التي تضطلع بمهمة تمييز سمات هذا النظام، وتوفير وسيلة تطبيقية للباحثين من أجل فرز المكونات، وحصر مجال البحث والتدقيق، مع المرونة التي يتم اسباغها على البحث، عبر القابلية على التعديل. إنها المحاولة

---

[101]. Frank Elwell , Verstehen: The Sociology of Max Weber , Rogers State University, 1996.

[102]. Richard Swedberg (2000) , Max Weber and the Idea of Economic Sociology Princeton University Press, p 169

[103] Rolf E. Rogers , (1969) , Max Weber's ideal type theory , Philosophical Library, Social Science , p90.

المعرفية المتطلعة نحو فهم الواقع، من خلال التوجه نحو كل ما يتعلق بالأفراد من؛ أفعال وعلاقات.

نحن إذن بإزاء وسيلة منهجية، تقوم أصلا على وجهة النظر الناتجة عن ترصد الفعل الاجتماعي داخل الواقع وما يحيط به من سمات. والتوقف عند النموذج بوصفه فكرة تتمثل فيها هذا الفعل. لكن هذا التوقف يبقى يدور في فلك الفعالية العقلية، وعلى هذا فإنه من الصعب أن تجد تطابقا ما بين المثال والواقع. إنه وسيلة تحليل وأداة مقارنة، سعيا نحو فرز العلاقات السببية الكامنة في النموذج. وليس التطلع نحو بناء أو صياغة نموذج. بل أن الأمر يقوم على التصور العقلي الذي يتبناه الباحث ومدى العلاقة القائمة بين هذا النموذج والواقع. من خلال تمييز ملامح العقلانية في الظاهرة. إنها المحاولة المتوجهة نحو الوقوف على نقاط المطابقة المتوفرة في النماذج القائمة في الواقع، والتي يجمعها مسار؛ الوسائل والأهداف.

نموذج فيبر المثالي إنما يقوم على؛ التطلع نحو رصد الواقع من خلال صياغة النموذج المثالي، عبر تركيز الفعالية العقلية بوصفها سمة إنسانية عامة، والقائمة على التفكير والممارسة المستندة إلى الترشيد، في سبيل الوصول إلى تنظيم العالم، وبالتالي الوقوف على الطريقة التي يتحرك بها العالم، من خلال عقد المقارنة ما بين النموذج المثالي والواقع.

روح الرأسمالية

يؤكد فيبر إلى أن الرأسمالية لم تكن اكتشافا غربيا محضا، بل أن العلاقات التي تميزها مورست من قبل المزيد من الحضارات والثقافات، لاسيما على صعيد السعي نحو تحقيق الأرباح.

إلا أن الملمح المنهجي الذي طغى على كتابه الأشهر (**الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**). كان قد تطلع نحو اختبار المقولة الماركسية التي توقفت عند أثر العامل الاقتصادي في إبراز وإنتاج الظواهر الثقافية والاجتماعية. باعتبار أن الوجود سابق للوعي، وهو المسؤول عن تشكيل الاتجاهات والتطلعات والرؤى والتصورات. لم يكن فيبر راغبا بالدخول في حجاج مباشر مع النظرية الماركسية، بقدر ما توجه نحو اختبار الأثر الذي تحدثه القيم الاجتماعية والثقافية في رسم معالم العلاقات، لاسيما حين يتم التطلع نحو عقد المقارنة المباشرة بين الرأسماليات التي ظهرت في الثقافات المختلفة، والرأسمالية الغربية التي قامت على (**العقلانية والترشيد**). الواقع أن الفاصل بين النموذجين (**الماركسي والفيبري**) لم يقم على جدل بيزنطي حول البيضة أم الدجاجة؟! بقدر ما تمثل في طريقة التعاطي مع زاوية النظر وطريقة القراءة في قراءة الواقع، فإذا كان ماركس قد حلل الواقع من خلال علاقات وو سائل وقوى الإنتاج، فإن فيبر قد عمد إلى بناء نموذجه المنهجي، بناء على التبادل الذي يحكم السوق. المستند إلى (**الترشيد، الثروة، الفصل بين الاقتصادي والاجتماعي**). فيما تقوم النظم الرأسمالية على؛ (**النظام النقدي، ناتج العمل، الملكية الخاصة، البحث عن المواد الأولية، العمل الحر**).

وهكذا يشرع فيبر في التوجه مباشرة نحو تقديم نموذج (**التقشف الكالفني**) الذي كان له الأثر الأهم في تنامي البروتستانتية، والتوجه مباشرة نحو النهل من الواقع، من خلال الإشارة المباشرة إلى الأحوال الاقتصادية الجيدة التي يعيشها البروتسانت في ألمانيا مقارنة بمواطنيهم الألمان الكاثوليك. استنادا إلى تحليل عناصر **البروتستانتية** القائمة على؛ (**العقلانية، التقشف، الفردية**). و**الترشيد** المستند إلى؛ (**الواقعية، الإنتاج، العمل**). وعبر هذه العلاقة القائمة بين الطرفين

(البروتستانتية والترشيد)، قيض للرأسمالية أن تنمو وتنضج وتؤتي ثمارها، عبر بروز دور المؤسسة البيروقراطية. والتي قامت على التطلع نحو السيطرة على الواقع من خلال المعرفة. إنها المعرفة الرشيدة القائمة على ثنائية السيطرة على الموارد، والقدرة على التخطيط المستقبلي للموارد. وهكذا كان الربط بين الرأسمالية وطريقة التعاطي مع الإنتاج، عبر تنامي دور الرقابة الإدارية، من خلال بروز المؤسسة البيروقراطية، والتي افسحت المجال لا حتلال الطبقة الوسطى، من أداء دورها في المجمل من الفعاليات التي ترافقت مع النمو الرأسمالي، لاسيما في بدايات القرن العشرين. بالإضافة إلى التوسع الذي شهده قطاع المؤسسات المالية، لاسيما على صعيد تمويل المشاريع وزيادة أهمية البنوك في الإقراض والتأمين.

العقيدة والمشروع

ربط فيبر بين القيم التي تقوم عليها العقيدة البروتستانتية القائمة على (**العمل، تنظيم الوقت، الزهد**) حيث الالتزام الذي يطبع المجمل من توجهات المؤمن، سعيا لبلوغ الخلاص ومرضاة الله. فيما تقوم روح المشروع الرأسمالي على بالإعلاء من شأن الربح، من خلال (**العمل، تنظيم الوقت، الانضباط**). الربط هنا يقوم على جملة من التقاطعات بين النموذجين، بين نموذج زاهد عقيدي ديني، وآخر ربحي تجاري يقوم على التعاطي المباشرؤ مع الماديات. إلا أن الصلة الفكرية Elective Affinity[١٠٤] التي ميزها فيبر إنما تقوم على أن الرأسمالية لم تكن نتاجا

---

[104]. Marisol Lopez Menendez, Mr Fanon Howell, Professor David Chalcraft , Hector Vera (Editors) , (2012) , Max Weber Matters: Interweaving Past and Present, Ashgate Publishing, P 152.

للبروتستانتية، بقدر ما مثلت هذه الأخيرة مهادا روحيا وقيميا وثقافيا لنموها وتطور علاقاتها في الغرب تحديدا. لاسيما على صعيد التلاقي الحاسم بين (**الزهد والانضباط**). وهو ما يمثل جوهر فكرة الترشيد، التي مثلت الأصل الفكري في المجمل من المعالجات المعرفية التي ميزت أعمال فيبر. إنها أحوال التسلل للقيم بين النموذجين عن غير قصد، بقدر ما كانت الصلة تقوم على تمييز مفاصل (**الأفعال والمعتقدات**) وقدرة البروتستانتية في تشكيل روح المشروع الرأسمالي.[١٠٥] عبر بوابة الترشيد الساعية نحو بناء النموذج الخالي من المظهريات، وتوجيه أرباح العمل نحو التراكم وتنظيم الحياة، والإفادة القصوى من مكتسبات الأرباح. حيث التوجه نحو الإنتاج من خلال بناء نموذج المؤسسة المستندة إلى العقلانية في إدارة المشروع الرأسمالي.

إنها المؤسسة القائمة على صرامة النظام البعيد عن العلاقات الشخصية، والساعية نحو استثمار كل ما هو متاح وممكن، وهكذا تضافرت مراحل النمو عبر بوابة الرأسمالية التجارية والتي أثمرت ظهور وتنامي الطبقة البورجوازية على حساب طبقة الاقطاعيين. أو الدور الذي لعبته طبقة الأرستقراطية في الرأسمالية الزراعية في إنتاج المحاصيل النقدية. أو الدور الذي لعبه البورجوازيون في ملكية وسائل الإنتاج في نموذج الرأسمالية الصناعية، حيث تقسيم العمل والفصل بين العمل المنزلي والعمل الصناعي واعتماد نظام العمل الحر. بالإضافة إلى الدور الذي اضطلعت به الرأسمالية المالية، حيث التوسع في مجال المضاربات والتمويل والإقراض والمضاربات والسندات والأسهم. الرأسملية إنما هي تمثيل لوعي يتوجه نحو استثمار رأس المال من خلال

[105]. Sara R. Farris (2013), Max Weber’s Theory of Personality: Individuation, Politics and Orientalism ,Danvers , USA, p77.

مؤسسة تقوم على التنظيم الرشيد القائم على الانضباط والصرامة، واعتماد مبدأ العمل الحر. ويعمد فيبر لاقتباس مبادىء الرأسمالية عن بنيامين فرانكلين[١٠٦] عبر الإشارة المباشرة إلى قيمة المال بوصفه (**وقت، ثقة، مولدا للمال، دافعا للحصول على مال الآخرين**) بالإضافة إلى (**الحصول على ثقة الآخر والقناعة والشرف**). وهكذا يتوقف فيبر عند روح الرأسمالية، باعتبار الوقوف عند فكرة المنفعة، عبر تفعيل الحافز الديني وجعله موجها قيميا في صلب العلاقات الاقتصادية، حيث البحث عن الالتزام الأخلاقي والقيمي، حيث الأفكار التي تضطلع بدور المحرك التاريخي، والموجه الفاعل في السلوك الإنساني الفردي، وما يمكن أن يؤديه من تأثير على مستوى الفعل الاجتماعي.

[106] Gordon S. Wood (2004) , The Americanization of Benjamin Franklin, Penguin., London , , p 7

الفصل الثاني

السبرانية والواقع التقاني

المبحث الأول

الذكاء الاصطناعي والشبكة العنكبوتية

(النصوص تبدو بسيطة، لكنها معقدة بشكل لا يصدق) لوري لوتمان

مقدمة القراءة

وجوه تعلقت بالجهاز المحمول، هذا يبتسم لنكتة يقرأها في Facebook، وذاك يتفرس في مقولة تصدرت موقع Tweeter، وآخر يتملى رسالة وصلته على برنامج WhatsApp ، وسائق راحت السيارة تتمايل بين يديه في الطريق، بعد أن ترك كل شيء وراح يركز في لقطة وصلته عبر برنامج Instagram. الناس من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في عصاب الهواتف الذكية المحمولة، تغيرت أشكالها وطريقة تعاطيها مع الواقع. تغير كل شيء فيها، ردات الفعل وطريقة استقبال الآخر. التحية وطريقة النظر إلى المجال الذي يجلس أو حتى يسير فيه. العالم وقد تعلق في شاشة المحمول الكفية، بدءا من زعماء العالم الذين باتوا يأتون بمحمولهم إلى أهم وأدق الاجتماعات التي تحدد مصير العالم، ولا ضير من لقطة Selfy يتم من خلالها الإعلان عن نهاية الاجتماع. وصولا بالمدراء ورؤساء المؤسسات الكبرى وطلبة المدارس الذين يمنعهم صرامة النظام المدرسي من استخدام المحمول، فيما يتحينون أول لحظة لتلقف أجهزتهم والانطلاق سابحين في هذا الفضاء الافتراضي.

إنها وطأة شاشة المحمول تلك التي غيرت طريقة مسير الناس في الشوارع، وجلوسهم في المنازل، في المقهى، في قيادتهم للسيارة، في رد التحية، في طريقة إدارة الحديث وأدب الحوار مع صديق أو أفراد العائلة. في طريقة أداء العمل وحتى البحث عن فرص العمل. في صميم المناسبات الشخصية. وهكذا تجد العريس أو العروسة لا تفتأ تسرق اللحظات، كي تتأكد من بريدها الإلكتروني أو إتمام دردشة مع الأصدقاء. وصاحب العزاء وهو في أحلك ساعات حزنه لا يتردد من

فحص جهازه. ليتأكد من تواصل المعزين به، أو حتى نشر صورة مراسم الدفن. بل والمسارعة على نشرها في الـ Facebook. إنه عصر حمى الهواتف الذكية، تلك التي راحت تهدد الذكاء الإنساني في الصميم، بعد أن أوكل الجنس البشري مهمة التذكر إلى السيد Google، فيما راح يتكاسل في تذكر أرقام الهواتف، حتى لم يعد المرء يتذكر رقم هاتفه الشخصي؟!

العالم وقد فقد تركيزه في العالم الواقعي، فيما صار الافتراضي متسيّدا لكل شيء. حتى راح العالم الراهن يعيش أزمة المعنى؟! أحوال تعبر عن صياغات لأسئلة جديدة لم يُفكر بها سابقا. فيما الالتباس والتداخل صار يحضر وبقوة لافتة في الواقع المعاش. حول جدوى وقيمة وأهمية التقانة. وهل هي غاية أم وسيلة. فيما راح العالم تتناهبه المنافسة اللاهثة واللاهبة بين عملاقين هما؛ Samsung وPhone I. تسابق محموم صار يشكل عبئا واضحا وفاضحا على ميزانية العائلة. فيما أضحى أمر اللحاق بالموديل الجديد، أمرا لا غنى عنه للكبير أم الصغير. حيث الحضور الأهم لثقافة الاستهلاك، فيما قيمة التقانة وأهميتها ووظيفتها الأصيلة والحقيقية صارت في طي النسيان، بدليل أن معدل استخدام الوظائف التي يقوم عليها الجهاز المحمول، لاسيما جيل الهواتف الذكية لا يرقى إلى ١٠% في أحسن الظروف. فيما النسبة العظمى لا تستهلك من تلك الوظائف سوى الأقل القليل والذي لا يتجاوز ٢%.

العصاب الجماعي الذي حلّ بالعالم، صار مقياس الزمن فيه يقوم على مدى كفاءة الـ Charge، وقابلية بطارية الجهاز على الصمود لفترة أطول. والبحث عن شركات الاتصال التي توفر خدمة الإنترنت الأسرع، والانشغال اللافت والهستيري بحماية شاشة المحمول واستجابة الجهاز السريعة، دفعا للسأم والملل الذي قد يتسرب في نفس المستهلك، بعد إجراء لمسة واحدة. وان تأخرت الاستجابة فإن الويل والثبور سيحلان على الجهاز المسكين، وربما سيكون مصيره سلة القمامة. دون أن يرف للمستخدم جفنا.

فرضية القراءة

بين النخبوي والشعبي، الراقي والرديء، الرفيع والمتدني، الرصين والاستهلاكي، السامي والفج، الثمين والرخيص. بقيت الثقافة تدور في هذا الفلك من الثنائيات. حيث الارتباط المباشر والصميم بالواقع الموضوعي. فمن لا يتلقى ثقافة رفيعة لا يمكن أن ينتج أحكاما رفيعة بحسب ما يقول Pierre Bourdieu [١٠٧]. باعتبار أن الثقافة نسق System من التراكم التاريخي للمجمل من الأفكار والعلامات، يتفاعل بين ثناياها السياق Context حيث المجال الذي يتم فيه تمثل الأنساق القيمية والثقافية. وهكذا يتبدى واضحا طريقة التعبير الثقافي الذي يميز مرحلة تاريخية بعينها، أو فضاء اجتماعيا ما. فيما تتمثل أحوال التداخل عندما يتم تمثل نسق غربي ومحاولة زجه في سياق عربي على سبيل المثال. أو أحوال الخلط الفادح عندما يتم الامتثال لنسق العصور القديمة، والعمل على تفعيله في السياق الراهن، بكل تعقيداته وشروطه وتحدياته ورهاناته وإراداته.

المنظومة الثقافية نسق كلي شامل من العلاقات والرؤى والتصورات والمعتقدات والعلامات والشفرات، التي تميز مرحلة تاريخية أو فضاء اجتماعي[١٠٨]. لكن ثمة تسربات تبقى تفرد بحضورها على هذه المنظومة. فهذا النسق الكلي الشامل، لا يعني أنه كتلة شديدة الصلادة لا تتضمنه المرونة. ولعل المثل الأكثر حضورا في هذه المرونة، يتبدى حاضرا في الصراع الدائم بين الثقافتين التقليدية والحديثة. حيث صراع الأجيال وأوضاع التغير التي تطرأ على النماذج السائدة،

[107] Elizabeth Silva, Alan Warde , (Editors) 2010, Cultural Analysis and Bourdieu's Legacy: Settling Accounts and Developing alternative , Routledge , New York, p 12.

[108] Geoffrey B. Saxe , 2015 , Culture and Cognitive Development: Studies in Mathematical Understanding , University of California , p 22.

بفعل التحول في العلاقات وظهور الأوضاع الجديدة التي تفرض نمطا جديدا من الاستجابة للواقع المستحدث. وهكذا جاءت مراحل التاريخ طرّا حاملة معها منظومتها الثقافية التي تميزها.

لكن هذه المنظومة حملت بين ثناياها مستويات من التغير، كانت بمثابة المؤشر المباشر على الاستجابة الفاعلة، للمجمل من العلاقات التي تحفظ لها تناميها واستمرارها. فيما تكون لحظة الظهور لحقبة تاريخية جديدة أثرها المباشر على إزاحة النموذج القديم، لكن هذا لا يعني هدمه أو القضاء عليه. نعم تظهر وبوضوح شديد احوال الصدارة للحقبة الجديدة. لكن التراكم للأفكار والعلامات يبقى في المجمل من العلاقات. حتى الجديد منها. إنه الترسب التاريخي في العقل الاجتماعي (**جمعيا وفرديا**). وإذا كانت تحقيبات Karl Marx قد انطلقت من المشاعية فالرعوية والزراعية وصولا إلى المجتمع الصناعي[١٠٩]. فإن هذا لا يعني انقراض الثقافة الرعوية، أو حتى المشاعية؟! وبقدر ما استندت تحقيبات Alvin Toffler إلى الموجات الحضارية الثلاث[١١٠]، وانطلاق موجة العصر الرقمي والمعلوماتي منذ منتصف خمسينات القرن العشرين. فهذا الأمر لا يعني نهاية مؤثرات الحقبة الزراعية أو الصناعية، بل وحتى الرعوية.

إنها أحوال التمثل للواقع والموارد والمتاح والسائد، حيث لم يعدم العالم الراهن من تقديم نماذج؛ الزراعة الرقمية والري الرقمي لدى بلدان لم توضع على خارطة الرفاهية أو التقدم التقني؟! فيما جاءت تجربة الدنمارك، في بناء اقتصاد مزدهر يقوم على التوفيق بين نمط الإنتاج الرعوي والاستثمار الدقيق والفاعل لمقومات نمط الإنتاج الصناعي، والتمثل العميق لما أفرزته الثورة المعلوماتية في إدارة الموارد والإنتاج، حتى قدمت للعالم نموذج (**الرعي الرقمي**) والذي يقوم على شعار (دلل بقرتك)، حيث أحوال الثقافة الفاعلة. فيما يستثير هذا الشعار المزيد من ردات

---

[109] Søren Kjeldsen-Kragh ,2007, The Role of Agriculture in Economic Development: The Lessons of History ,Copenhagen Business School Press , p 131.

[110] Howard F. Didsbury, Jr ,Editor , 2004, Thinking Creatively in Turbulent Times , World Future Society , Maryland, p 103.

الفعل الساخرة لدى مجتمعات، ما عادت تعرف بوصلة الطريق أو حتى تمييز الاتجاه، فلا هي مجتمعات رعوية ولا حتى زراعية.

قضايا القراءة

ما الذي حلّ بالحياة التي نعيش؟! ماذا يدور من حولنا؟ كيف يمكن لنا أن نعيش وسط هذا اللهاث من التسارع الذي راح يطال نمط الحياة. فيما تحضر الأسئلة الأهم تلك المتعلقة بطريقة التعاطي مع التقانة الرقمية، وما الذي أضافته على الممارسة الاجتماعية. الجميع صار يسمع عن المكتب الافتراضي والإدارة قليلة التكلفة، والتمكين والحوكمة والإدارة الرشيدة. فيما الواقع يكشف عن نمط العلاقات الراكدة، لاسيما في مجتمعات التلقي، النائية بنفسها عن فعالية الإنتاج، والمنغمسة حد الإفراط في استهلاك التقانة الرقمية، وجعلها ماراثون في هدر الوقت والترفيه والتسلية.

لقد فشلت المجتمعات الريعية في تحقيق علاقات إنتاج، يمكن لها أن ترقى إلى المستوى الذي أفرزته قوى الإنتاج الرقمي. بل أن **البنية الفوقية** (القانونية والسياسية) ما زالت تعاني من الانعزال وأوضاع عدم الاكتراث، بالمجمل من التحولات التي أفرزها العصر الرقمي [١١١]. وهذا ما يكشف عنه طريقة التعاطي مع الإشكالات والتعقيدات التي راح يفرزها واقع التعاطي مع برامج التواصل الاجتماعي. حيث الفوضى تضرب بأطنابها، إن كان على مستوى السب والقذف الذي يمارسه المستخدمون بحق بعضهم البعض. أو جرائم السرقة الفكرية تلك التي تتبدى في قرصنة البرامج والاعتداء على المؤلفات والأبحاث التي ينتجها المفكرون والباحثون والمبدعون. فيما راحت تتوسع الهوة بين الوعي وأشكال العلاقات الاجتماعية السائدة، لاسيما على صعيد التعاطي مع التقانة الرقمية، لا بوصفها وسيلة يمكن تطويعها نحو استخدامات وإشباعات متنوعة، بقدر ما

[111] John V. Pavlik 2012 , Media in the Digital Age , Columbia University Press , p 9.

صار التركيز على الجانب الترفيهي، والذي راح ينشر بقلوعه وهيمنته وسطوته على المجمل من العلاقات الاجتماعية، تلك التي راحت تطال بنية العلاقات الأسرية، وحتى طريقة تعاطي الفرد مع المجتمع الذي يعيش فيه.

القضية الأبرز هنا تقوم على أن (**الترفيه الرقمي**) صار المؤثر الأبرز والأهم في تشكيل وعي الأفراد والجماعات، داخل مجتمعات الاستهلاك. فيما صار **الوجود الاجتماعي** مجرد ملحق تابع لكل هذا التسارع الذي راح يفرض قوته على المجمل من العلاقات، إلى الحد الذي شكل فيه جدارا عازلا، صارت وظيفته الأهم والأبرز تقوم على محاصرة الوعي وعدم منحه فرصة لجذب الأنفاس أو حتى التفّكر بكل هذا التراكم المعلوماتي، الذي يأتي على شكل موجات تسونامي، لا ينجم عنها سوى المزيد من الإغراق بالمعلومات حد التخمة، والتي غدت تشكل عائقا أمام هضم واستيعاب وتمثل الأفكار.

قوى الإنتاج المادية التي يقوم عليها نمط الإنتاج الرقمي، صارت تمارس السطوة العارمة على المجمل من علاقات الإنتاج الاجتماعي [112]، وإذا كانت التقانة الرقمية قد شكلت حافزا نحو التقدم والتحول في المجتمعات المنتجة والفاعلة، فإن المجتمعات الريعية وبحكم خضوعها للسلوك الاستهلاكي وسيادة نزعة التلقي السلبي، قد جعلت من هذه العلاقة وسيلة للعزل والتقييد والانقباض. وإذا كانت الثقافة في الحقب التاريخية السابقة قد تم تمييزها بناء على المعايير التي تضع التمايز بين النخبة والعامة، فإن ثقافة الراهن وبفعل أحوال التوفر والجاهزية للمعلومة والخدمة، صارت تقوم على (**التقمص الناقص**). فما أسهل أن تقوم باستحضار المعلومة، والعمل على توظيفها في مجال ما. فدروس YouTube التعليمية جاهزة وحاضرة، تلك التي تبدأ تعليمك الطريقة المثالية لسلق البيضة، وصولا إلى شرح أعقد وأصعب المسائل العلمية. إلا أن هذا

---

[112] Neil J. Smelser , Editor , 1973 , Karl Marx on Society and Social Change: With Selections by Friedrich Engels , University of Chicago Press , p 5.

التوظيف يبقى يعاني من الابتسار والنقص الحاد في التمثل. ليكون الواقع وقد غمرته لوثة التداخل في المعنى.

إشكاليات القراءة

كيف يتشكل المعنى؟ هذا هو السؤال الحاضر بشكل دائم، فيما تبقى البنية الاجتماعية مستقبلة للمزيد من التغيرات. تغيرات لا تنفك تتفاعل باعتبار التواصل الذي يشكل الأصل في الممارسة الاجتماعية. تواصل يحدث في سياق النسق القيمي والثقافي. إلا أن درجة التمييز فيه تتبدى في ظهور المؤسسة الإعلامية، تلك التي اتخذت مكانتها المميزة والأثيرة منذ بواكير التحضر الإنساني، لاسيما في طريقة التواصل الكتابي، الذي اعتمد الكتابة المسمارية في ٥٠٠٠ قبل الميلاد، والأختام الأسطوانية في ٣٥٠٠ قبل الميلاد. ليكون التواصل عبر اختراع الصين للحروف المتحركة عام ١٠٤٦، والتوسع في استخدام الأيقونات والصورة التي اعتمدت القوالب الخشبية الثابتة في طباعة صور الرموز الدينية منذ عام ١٤٢٣، حيث تم تداول صورة سانت كريستوفر. فيما جاء اختراع الطباعة عام ١٤٤٠ على يد الألماني غوتنبرغ [١١٣]، ليصار نحو شعبية وسائط الاتصال الثقافي، وليكون التمهيد نحو تركيز أسس المؤسسة الإعلامية بشكلها المعروف الراهن، بدءا من طباعة الكتاب المقدس عام ١٤٥٦، الذي كان له الأثر في نهاية هيمنة رجال الدين على المعرفة الدينية، والمساهمة الفاعلة والأكيدة في تنامي **شعبية الثقافة** وتيسير وصول المعلومة إلى العامة، بعد أن كانت حكرا على السراة والوجهاء والأثرياء، ليبزغ عصر الجريدة منذ القرن السادس عشر، تلك التي وصفها Hegel بـ صلاة الصبح الجديدة. [١١٤] حيث العالم الذي يتم تقديمه إلى القارئ العادي بخدمة تكاد تقرب إلى المجانية.

---

[113] Roy Smith, Imad El-Anis, Christopher Farrands , 2014 , international Political Economy in the 21st Century: Contemporary Issues and Analyses. Routledge , New York. p 68.

[114] John Keane , 2013 , Democracy and Media Decadence , Cambridge University Press , p 7.

الوسائط الاتصالية التي عرفها البشر بعد اختراع الطباعة شكلت ثورة معرفية كبرى، ساهمت في نقل البشرية إلى مستوى آخر من العلاقات وتشكلات الوعي. فيما جاء القرن العشرين الذي اختصر تاريخ البشرية، بإنجازاته العلمية المبهرة، حتى تجاوزت الأرض لتبلغ السماء، حيث توجت أعمالها وانجازاتها بالهبوط على سطح القمر. وزرعت سماء الأرض بالمئات من الأقمار الصناعية.

وبالقدر الذي شهد منتصف القرن العشرين بداية لظهور عصر العاملين في حقل المعلومات Cognitariat وبداية النهاية لعصر العامل اليدويProletarian [115]، إلا أن هذا التغير الذي طال المجمل من مفاصل العالم، راح يحث التأثير في صلب كينونة الإنسان وطريقة تفاعله مع العالم الواقعي. [116] حتى كان التسلل الفاضح للماديات في صلب العلاقات الاجتماعية، بإزاء التراجع للقيم الروحية. وإذا كان البعض يربط بين انبعاث الأصوليات والحياة الروحية. فإن تجليات التعبير لهذه الحركات إنما تلبستها أحوال التمثل المادي، بدليل نزوعها المباشر نحو الإرهاب والتكفير والترويع، والشغف اللاهب نحو السلطة، حتى أن القيم الروحية تحولت على يد تلك الحركات إلى وسائل مادية للتدمير ومعاول لهدم المجمل من قيم التسامح والتعايش والحوار.

طوفان المعلومات الذي تنتجه آلة العصر الرقمي، جعل من الفرد يعيش حالة الاغتراب وضياع الهدف والبوصلة. معلومات تدخل في روع الفرد بكميات مهولة من المعرفة، لكنها **المعرفة الملتبسة**، التي تقف عاجزة بإزاء مواجهة الواقع. ومن هذا التداخل في المعطيات، يكون الفرد وقد وقع ضحية لوطأة النمط الذي تفرضه القوى المسيطرة على وسائل التوجيه والتحكم. معطيات بحجم هائل تبدو وكأنها تحت تصرف المستهلك العادي، حتى ليظن أن جنّي الفانوس السحري لا

---

[115]Alvin Toffler , 1984 , Previews & Premises: An Interview with the Author of Future Shock and The , Black Rose Ltd , Montreal , p 112.

[116] Herbert Marcuse , 2002 , One-Dimensional Man: Studies in the Ideology of Advanced Industrial Society , Routledge Classics , New York , p 79.

يفتأ خارجا وهو ينادي؛ (شبيك لبيك)؟! فيما الواقع الأصل في تلك الفعاليات إنما تقوم على منابع السيطرة تلك التي تتحكم بها، كبريات شركات البرمجيات. تلك التي جعلت هدفها الرئيس يقوم على تنميط العالم في القالب الاستهلاكي الذي يصب مزيدا من الأرباح الخيالية، والتي تتجاوز ميزانيتها مجموعة من الدول المنضوية في الأمم المتحدة، والمزيد المزيد من السيطرة والهيمنة. إنه التطلع نحو مداعبة رغبات الناس وميولهم والسيطرة على أحاسيسهم، والتركيز على مخاطبة الغرائز والعواطف لديهم. حتى تم العمل على نقل صالات اللعب والترفيه إلى غرف النوم وغرف المعيشة. صار الفرد يمارس شغفه بطوفان الألعاب التي راحت تسيطر على حواسه، حتى صار العالم ميدان لعب للصغار والكبار عبر جهاز الهاتف الذكي، الذي تم اختصار أجهزة العالم كلها فيه. فهو الكومبيوتر والتلفون والآيباد وجهاز التسجيل، ولوح الكتابة والكاميرا الرقمية وجهاز الفديو والساعة والمنبه والتقويم والحاسبة والبوصلة.

منهجية القراءة

عالم الراهن يعيش اوضاعا شديدة التعقيد، حيث الإنسان الذي راح يعيش أحوال سلب الإرادة، بعد أن تم وضعه في دائرة العالم الافتراضي. عالم ما عاد فيه من السهل أن يتم تمييز الوهم والخيال من الواقع والحقيقة. فقد استطاعت شركات البرمجيات أن تجعل من الإنسان العادي Superman. فبرامج الألعاب راحت تجعل منه طيارا وبحارا وقائدا لمركبة سريعة ودراجة نارية، وهداف كرة قدم من الطراز الرفيع، ينافس مهارات ميسي ورونالدينو وبراعتهما. فيما تنافست برامج التواصل الاجتماعي، حتى قربت عليه المسافات، وجعلت العالم بين يديه، فهو القادر على إتمام المحادثات المجانية، واللقاء بالصورة والصوت مع أفراد يعيشون في قارات العالم. فيما راحت محركات البحث توفر له الإجابات التفصيلية، حول إعداد الوصفات الغذائية، وتسهل عليه التجول في مدن العالم وتوفير خدمات مكاتب السفر، عبر حجوزات الطيران والفنادق وتقديم أدق المعلومات التفصيلية عن المدن التي يرغب بزيارتها. وانجاز الفروض المدرسية والمحاضرات الجامعية، وزيارة المكتبات والمتاحف، وحضور الحفلات والمناسبات الكبرى في العالم.

بإزاء هذا الكرم المجاني أو المحدود التكلفة، يكون السؤال وقد تركز حول الغاية والهدف والجدوى؟ فهل الأمر يقوم على الربحية والتنافسية التجارية، أم أن ثمة صراع من نوع آخر يدور حول كل هذا؟ وإذا كان النجاح قد ابرز اتجاها معينا في كل هذا الزخم من العلاقات. فإن تحليل القوى لا بد له أن يكون له الحضور، لاسيما وأن التحولات المتسارعة في العالم تقوم على آليات تحفزها قوى تعتمد (السيطرة والتحكم).

تحاول القراءة استثمار طروحات التحليل الثقافي حول مسألة الاقتراب من فهم الواقع، والتطلع نحو تحديد المسار العام لطبيعة العلاقات. والتوجه نحو تمييز المكونات الثقافية من خلال محاولة ترصد أحوال التغيرات التي تطرأ على الواقع والتكيفات التي تصدر من المجتمع، وطرق الاستجابة الصادرة بما يتوافق والهوية المميزة للمجتمع. إنها المحاولة الساعية نحو فرز العناصر الثقافية التي تميز مجتمع بعينه، والتفاعلات ضمن المجال القيمي والثقافي، والسعي نحو تحليل العناصر لتلك الثقافة، مزاجا ورغبات وأهواء، استمرارية وانقطاع، وجدية وكسل، حماسة وفتور. أنه التوجه نحو قراءة الثقافة والعمل على تفسيرها[١١٧]، بدلا من التوقف الطويل عند الثقافة بوصفها ممارسة تستدعي السخط والتبرم والهجاء. فالتوجه نحو النقد العلمي يعد أكثر منفعة وأجدى من الهجاء السياسي.[١١٨]

التحليل هنا يتوجه نحو محاولة رصد التمايزات الطبقية لدى المنغمسين في (**تقانة الترفيه**) عبر استثمار المقولات النظرية التي قدمها Louis Althusser حول مسعى الطبقة المسيطرة نحو نشر الوعي **الوعي الزائف**، من أجل اتمام هيمنتها وسيطرتها على المجتمع. وبالتالي ترصين مكانتها وضمان مصالحها. [١١٩] ومحاولة الإفادة من مقولات Foucault حول (المعرفة وعلاقات القوة في سياق

[117] Jean-Michel Rabate Editor , 2012 , Writing the Image After Roland Barthes , University of Pensylvania , p 247.

[118] David J. Chalcraft , Editor , 1997. Social-scientific Old Testament Criticism , Bloomsbury , Academic Press , Sheffield, p 240

[119] Stuart Sim , 2010 , The End of Modernity: What the Financial and Environmental Crisis is Really Telling Us , Edinburgh University Press, p 64.

تاريخي معين). ومكان الباحث المستحيل في أن يكون بعيدا عن تأثيرات الزمان والمكان في قراءة وتفسير الظاهرة الثقافية.(١٢٠) فالأمر لا يقوم على مجرد رصد الظاهرة والانغماس في الوصف، بقدر ما تتبدى أحوال تسرب آثار الظاهرة في وعي الباحث والدارس.

تتطلع القراءة نحو استثمار طروحات Yuri Lutman في شعرية الحياة اليومية (١٢١)، حيث التوجه نحو قراءة التكوين الثقافي العادي والمتداول وليس الخصوصي. لاسيما وأن الظاهرة قيد الدرس لا تشكل بعدا نخبويا، بقدر ما تقوم على التفصيل اليومي، الذي يمس وبطريقة مباشرة المجتمع بأسره. مع الإفادة من مقولة Clifford Geertz في الوصف السميك (١٢٢)، والقائمة على ربط الظاهرة بالسياق الاجتماعي الأصلي لها.

احمل موبايلك واتبعني؟!

لم يعد نسيان المحمول أو تركه بعيدا أمرا يمكن أن يمر دون عواقب؟! فقد أضحى هذا الجهاز بمثابة الحاسة السابعة للإنسان. لاسيما بعد أن اتجهت المؤسسات والإدارات إلى استبدال المخاطبات الورقية بالبريد الإلكتروني والتعميمات التي يتم إرسالها من قبل الإدارات من خلال الرسائل النصية وعبر البرامج المختلفة لاسيما WhatsApp على سبيل المثال.، والتي غدت بمثابة الوسيلة الرئيسة التي تعتمد عليها سكرتيرات الأقسام من أجل تنظيم مواعيد لقاءات الموظفين، وتبليغهم بآخر التوجيهات الصادرة عن الإدارة. ولم يغب استفادة المزيد من الأساتذة في جمع طلبة

---

[120] Arpad Szakolczai , 2009 , Max Weber and Michel Foucault: Parallel Life-Works Routledge , New York , p 30.

[121] Éamonn Ó Ciardha, Gabriela Vojvoda , Editors , 2015 , Politics of Identity in Post-Conflict States: The Bosnian and Irish Experience, Routledge , New York , p 162.

[122] Elizabeth A. CLARK, Elizabeth A Clark , 2009, History, Theory, Text: Historians and the Linguistic Turn , Harvard University Press, p 297.

الصف الواحد في مجموعة يتم من خلالها فتح الحوارات حول المقرر الدراسي، وتبادل الآراء حول مواعيد الامتحان والمشاريع الدراسية. وغدا بمثابة البرنامج الذي لا يستغني عنه أولياء الأمور في متابعة شؤون دراسة أطفالهم، إن كان على مستوى الاتصال المباشر بمعلم الصف، أم على صعيد تبادل الآراء مع أولياء الأمور الآخرين.

ومن هذا صار الحرص الشديد على اقتناء المحمول بمواصفات تضمن كفاءة الأداء. فيما صار الحرص على تفحص الجهاز، ومتابعة الإشارات والتنبيهات الصادرة عنه. لم يعد المحمول أمرا كماليا أو إكسسوارا يثير الإعجاب والتباهي، بقدر ما غدا حاجة أساسية للانضمام إلى دورة الحياة العادية والممارسة اليومية. فلا يمكن للمرء أن يتواصل مع بيئة العمل أو انجاز تفاصيل حياته أو التعرف على الفواتير والسحوبات المالية، أو حتى التواصل مع العائلة والأصدقاء. إلا من خلال هذا الجهاز، الذي غدا بوابة الإنسان لولوج الحياة العادية والطبيعية. وإذا كان المحمول قد شهد في بواكير استهلاكه، تطلعا من قبل البعض لجعله وسيلة للتمايز الطبقي، من خلال التركيز على الثمن المرتفع أو إضافة الإكسسوارات الغالية والثمينة. إلا أن التسارع في التطوير البرمجي، والإضافات التقنية التي راح يتم إدخالها على السعة والسرعة والاستجابة والكفاءة، وبطريقة تنافسية بين الشركات، جعل من ظاهرة التمايز الطبقي هذه تذوي تحت مطرقة حاجة الحياة اليومية. حيث التفاصيل اليومية التي تمس وبطريقة مباشرة حياة العامة وليس النخب.

الحضور الطاغي والمهيمن لجهاز المحمول، يجعل منه علامة رئيسة تميز المرحلة الراهنة من عصر البشرية، بل هو (**نص العالم**). بمعنى أنه لو أريد فهم العالم والبحث عن المعنى الكامن فيه. فإن السبيل يمر عبر التوجه نحو (نحو تفسير هذا النص). وهذا بحساب أنه حامل (**المعنى**) لـ اللحظة التي نعيش؟! هذا باعتبار أن العالم الراهن صار يُقرأ باللحظات والثواني ! في ظل القفزات المتوحشة والمفزعة، تلك التي يتم تحقيقها على يد مختبرات تحالف الشركات المتخصصة بالشأن الرقمي والبرمجي والمعلوماتي.

تركز معنى العالم الراهن بهذا (**المحمول**) بعد أن غدا عنصرا رئيسا في نظام الفعل الاجتماعي. حتى صار هو المصدر لإنتاج الفعل في الكثير من العلاقات والممارسات. بل أن كثافة الحضور جعلت منه منتجا للمزيد من العلامات والرموز، والتي راحت تنسج نسقها الفكري والقيمي في صلب السياق الاجتماعي. لم يعد المحمول مجرد آلة أو جهاز يتم حمله، بقدر ما أضحى الأصل الذي تقوم عليه الثقافة السائدة، والذي من خلاله يتم قراءة وتفسير العالم. (١٢٣) كما يذهب Roland Barthes في وصفه للثقافة. فيما لا ينفك تواصل زخم المعلومات، والذي راح يساهم في تقارب الثقافات المختلفة وزيادة الاعتماد المتبادل فيما بينها، وغدت أحوال الوعي بالاختلاف هي الأكثر شيوعا وتداولا، فيما راحت الفواصل تذوب ما بين المجتمعات والثقافات المختلفة.

الممارسة والمعنى

انتشار المحمول والاعتماد المتزايد عليه في تيسير المجمل من التفاصيل التي تزخر بها الحياة. جعل منه (نصا **اجتماعيا**)، أثمر عن تمثيلات Representation ثقافية، صار لها الدور البارز في توزيع العلاقات، بل والمساهمة المباشرة في إعادة صياغة الممارسات الثقافية. ومن هنا تحديدا تبرز أهمية المسعى نحو الوقوف على فهم تركيب هذه الثقافة، التي يحركها جهاز محمول لا يزيد عن حجم الكف. الأمر هنا يقوم على البحث في جوهر الظاهرة، سعيا نحو محاولة تحليل السياق الاجتماعي والثقافي، الذي بات مرتهنا لهذا المحمول. فيما يتواصل بث المعاني التي غدت الأكثر شهرة ورواجا في عالمنا الراهن، بل وغدت أيقونات التداول الثقافي، مثل: العولمة، الاحتباس الحراري، البيئة، حقوق الإنسان، الشرعية الدولية. وقضايا الهجرة وصراع الشمال والجنوب، وتصدر أخبار الكلاسيكو بين برشلونة وريال مدريد، بوصفه الحدث الأهم والرئيس.

---

[123] Mark Jayne , 2006 , Cities and Consumption, Routledge , New York , p 153.

إنه الخطاب الذي يعيد صياغة ذهنية الإنسان حول القضايا الجادة والتافهة، والعمل على خلط المعاني، حتى يظهر العالم وقد اختلطت فيه الموازين، ليتصدر المشهد العالمي، ما كان يعد ثانويا وتافها، بإزاء الذواء والانزواء لكل ما كان يعد قيّما ومهما وغاليا. إنها إعادة تعريف الثمين والعزيز والمهم، بإزاء تسّرب الرث والثانوي والرخيص، وجعله قابلا للتداول والحضور، وبالتالي القبول به كأمر شائع ومسلم به. وإلا كيف يمكن لنا تفسير قيام أشهر وأرقى دور الأزياء العالمية، بتقديم السراويل الممزقة والقمصان المجعدة، والأحذية الملوثة بالألوان، وتقديمها على أنها الموضة الرائجة؟! هذا على سبيل المثال لا الحصر.

وكيف أضحى من لا يمتلك صوتا جميلا، أن يغدو النجم الأهم في تصدر قائمة المبيعات على مستوى العالم، فيما هو لا يمتلك الحضور أو الكاريزما. وكيف تحول أحد المطربين المجهولين في كوريا الجنوبية، إلى الرجل الأشهر في العالم، بعد أن قدم على YouTube أغنية Gangnam Style، تلك التي لم يتلقفها الشباب على مستوى العالم فقط، بل غدت محط أنظار وتركيز قادة العالم من وزن David Cameron رئيس وزراء بريطانيا وBarak Obama رئيس الولايات المتحدة، وBan Ki-moon الأمين العام للأمم المتحدة، حتى أنهم لم يتوانوا عن تقليد حركات المطرب. وكيف صار التطلع نحو جعلها رسالة لنشر السلام والمحبة والتسامح بين شعوب العالم.

و هكذا يتبدى حضور المضمون السياسي في صميم الممارسة الاجتماعية، فيما يكون العالم في أمسّ الحاجة نحو ترصد أوضاع الهيمنة والسيطرة من خلال بوابة التفرّس والتمعن اليقظ والمدقق في البنية الاجتماعية، وأهمية التطلع نحو قراءة الممارسة الثقافية بوصفها الأصل الذي يقوم عليه النظام العالمي. هذا الأخير الذي يتجلى عبر منافذ المعرفة والقوة والثروة، لكن هذا التجلي يبقى بحاجة إلى الإفلات من قيود الوصفات الجاهزة والتنميط، ومن هذا يكون التوجه نحو التعاطي العالم بواقعية ومرونة. إنها الـممارسة Praxis والذي حددها الفيلسوف الإيطالي

Antonio Gramsci عبر الربط الذي تتوجه نحوه الطبقة سياسية كانت أم اجتماعية أم ثقافية ما بين (**المصالح والمصير**) (١٢٤).

في إعادة صياغة الحياة

لا يمكن التغاضي عن الأثر الذي أحدثه جهاز المحمول في تيسير الحياة المعاصرة. والمجالات المتعددة التي ارتبطت به، لاسيما على صعيد حث روح الابتكار لدى الجيل الشاب، وتوفير مناخ اتصالي، ساهم وغلى حد بعيد في تغيير طريقة النظر إلى الحياة والعالم. إلا أن الأثر الإيجابي هذا يبقى يلازمه المزيد إنتاج الممارسات ذات الأثر المباشر بالمخيال الاجتماعي. والأثر الذي يمكن أن يحدثه على مستوى طريقة التعاطي مع أنماط العيش، والمعايير المستحدثة تلك التي تستلزمها الممارسات الجديدة. الأمر لا يقوم على أحوال صراع بين قديم وجديد، بقدر ما ينطوي على تقدم الممارسة الهامشية وتصدرها للمشهد الاجتماعي، وقيامها بإنتاج ممارسة خالية من المعنى، لاسيما وأن أحوال التسارع الذي راح يطغى على المجمل من العلاقات. جعل الوعي الإنساني الراهن يعيش في أزمة حقيقية، حول الوجود الإنساني ومستقبل البشرية. في ظل التحول الذي راح يطال المراكز الاجتماعية وتوزيع السلطات. وإذا كان العالم قد توقف عند المقولات المركزية، فإن علاقات الراهن صارت تتطلع وبكل ما فيها من قوة نحو البحث في الهوامش، بعد أن تسيد على الواقع العلاقات التقانية، تلك التي أفردت لها المساحة القصوى والكبرى، حيث انصبت الجهود على الجانب الترفيهي، بعد أن وفرت التقنية المساحة الواسعة من خيارات التعاطي مع الجماعة البشرية، ومتطلباتها وحاجاتها المباشرة.

[124] Zeus Leonardo , 2013, Race Frameworks: A Multidimensional Theory of Racism and Education , Teachers College Press, Columbia University , New York , p 47.

الرمزي والحقيقي

ارتبط الجهاز المحمول بجملة من الأفعال السلوكية، والتي راحت تشكل مجالا قابلا للمقارنة بين السلوك القريب الماضي والسلوكيات الراهنة، تلك التي راحت تطغى على سدة الواقع. حتى صار الواقع مسرحا يزخر بالكم الهائل من الرموز المتعلقة بالتقانة، بحضور الجهاز، بتسيد ثقافة الترفيه. البرز في كل هذا أن الرمزي راح يتسلل نحو الحقيقي المباشر. حتى ليمكن القول أن القيم باتت في العالم الراهن تتجسد وبشكل مباشر بمجرد النظر إلى (**الجهاز المحمول**). حيث أحوال الاستدعاء للنماذج بطريقة مباشرة، فالمحمول يشكل وسيلة تفاعل ضمن منظومة القيم السائدة. إنه المدخل والمفتاح نحو التواصل مع الجماعة، وهو الوسيلة التي يتم عبرها تنظيم مدار العلاقة مع البيئة المحيطة والواقع المعاش، عبر السعي نحو تبسيط التفاصيل التي تزخر بها الحياة.، إنه الطريقة التي يتم بها التعبير عن الانتماء لروح العصر، وهو التعبير الحاضر لمعنى العصر الرقمي، والاستحضار الواضح الدلالة على النشاط الإنساني المرتبط بالرقمية والمعلوماتية. إنها فكرة التقانة بقيمتها المباشرة والتمثيل للمجمل من العلاقات المرتبطة بالراهن المعاش. وهكذا يكون الحضور لطريقة الاختيار للجهاز، البعض يختصرها في انتقاء ماركة بعينها، فيما يتطلع البعض الآخر نحو البحث عن الجهاز الذي يلبي حاجاته ومتطلباته. فيما يتوجه آخر نحو حشد مجموعة من الأجهزة وتحميل الأمر أكثر مما يطيق، حتى ليجعل من الأمر وكأنه حلقة سباق. فيما يتم الغياب للموضوع الأصل الذي تقوم عليه فكرة (**التقانة**)، وعلاقتها في إنتاج موضوعات قابلة للتداول والاستعمال والاستهلاك.

في التحليل الوظيفي

الحديث عن المحمول بوصفه ثقافة، يوحي بأن ثمة عزل يراد له أن يكون بين ثقافة عامة وثقافة فرعية. الواقع أن القراءة هذه لا تسعى نحو العزل بين النماذج، ولا تروم قراءة ثقافة المحمول بوصفه Paradigm يقوم على احلال نموذج على حساب تراخي وضمور آخر. بقدر ما يكون التطلع نحو تحليل العلاقات الاجتماعية في لحظة تفاعلها كما هي في نسقها الفكري والعلاماتي. ومحاولة الوقوف على لحظة التغير الثقافي، من خلال تتبع ظهور أحوال الممارسة الجديّة وتفاعلها وطريقة انتشارها في السياق الثقافي والاجتماعي. [١٢٥]

جاء جيل الهواتف الذكية ليشكل حضورا راسخا على صعيد الاستجابة لحاجات الإنسان الاتصالية. فالهاتف والبريد الإلكتروني والرسائل النصية وبرامج التواصل الاجتماعي، باتت تشكل ركنا أساسيا من حاجات الإنسان الراهن. فيما غدت الثقافة الرقيمة ترسم ملامح ما هو أساسي ومهم ورئيس وضروري في الحياة. ولم يقف الأمر عند التحديد، بل أن العلاقات الرقمية راحت تسعى وبجدية نحو توفير البيئة المنظمة التي يتم فيها تداول مثل هذه الجهاز، بدءا من توفير خدمات الصيانة والإكسسوار، وصولا إلى توفير النصائح والإرشادات والتطبيقات، التي تعمل على تسهيل عملية الإفادة القصوى لصالح الاستخدام الفردي.

[125] I.C. Jarvie , 2010 , Revolution Anthropology Ils 69, Routledge , New York , p 182.

عصر الاتصال

عالم الراهن وهو يعيش سطوة حمى الهواتف الذكية، تلك التي جعلت من الناس يقفون في طوابير بالمئات ولأسابيع عديدة، من أجل الحصول على الموديل الجديد الذي أعلنت عنه هذه الشركة أو تلك؟! فيما انشغل الناس بالسؤال حول الأفضلية ما بين موديل الـ Plus والـ Edge. إلى الحد الذي جعل من قضايا الثورات الشعبية والحروب والإرهاب والتهجير وموجات الهجرة المليونية والمآسي التي تتعرض لها منطقة الشرق الوسط، والأزمات الاقتصادية المتلاحقة التي يغص بها العالم والتدهور الذي راح يطال أسعار البترول، بعد أن تم تقديم النفط الصخري إلى الأسواق بمثابة الأمر الثانوي. وإذا كانت المجتمعات القديمة اعتقدت أن العالم يستقر على قرن الثور، وأن الهزات الأرضية التي تطال الأرض، إنما تتم بفعل تحريك الثور لرأسه؟![126] فإن عالم اليوم الراهن صار يستقر على أطراف موديلات الهواتف الذكية، وما يمكن سيقدمه من ابتكار يتعلق بالنحافة والأناقة وسرعة الاستجابة ودقة الوان الشاشة، ومواصفات الكاميرا الرقمية وتوفر البرامج المصاحبة. تلك التي جعلت أجهزة كان الحضور الرئيس والفاعل في المنزل، في غياهب النسيان. فقد اختفى الهاتف المنزلي والراديو وجهاز التسجيل والكاميرا والفيديو. بل أن التهديد راح يطال الجهاز الأكثر ألفة في تاريخ الإنسانية (التلفزيون). وهو اليوم يعد المرشح الساخن للاختفاء، على الرغم من الجهود الحثيثة التي تبذلها شركات التصنيع في تطويره والإبقاء على حياته.

وبالقدر الذي راهنت فيه الحكومات على الأهمية القصوى التي تتمتع بها وسائل الإعلام في السيطرة على العقليات والذهنيات، والتوجه نحو جعل المؤسسات التربوية والثقافية والسياسية والدينية، خاضعة لموجهاتها ومدركاتها.

---

[126]. Ariele P. Kozloff , 1981 , Animals in Ancient Art from the Leo Mildenberg Collection , Cleveland Museum of Art , Cleveland , Vol 1 , p 6. كان هذا الاعتقاد شائعا في الإمبراطورية الحثية ١٤٠٠-١٢٠٠ قبل الميلاد.

العالم في جيب القميص؟!

لم يعد مصطلح القرية الكونية global village الذي نحته Marshall McLuhan في ستينات القرن العشرين (١٢٧)، يتناسب والتحولات التي يشهدها العالم الراهن. بعد أن تم اختصار العالم برمته في جهاز الهاتف المحمول الذي راح يزيد من عزلة الفرد عن المحيط الذي يعيش فيه. جهاز بحجم الكف البشري لكنه يحمل من المزايا ما يؤهله أن يكون موجزا لتاريخ المخترعات العلمية التي ابتكرها الإنسان الحديث. وهكذا تم وضع العالم في جيب القميص، وغدا جزءا رئيسا من مفردات الحقيبة النسائية. وصار بمثابة التعويض عن الكثير من لعب الأطفال. وبالقدر الذي يتقاطع مصطلح McLuhan مع الواقع الراهن. حيث العالم لم يعد قرية بل تم وضع العالم في القمقم الزجاجي؟! إلا ان استشرافه النظري يبقى أكثر وقعا على صعيد التعاطي مع مفهومي (**الوسيلة والمحتوى**) في طريقة النظر إلى الرسالة الإعلامية. حيث الإشارة الصريحة والواضحة إلى أهمية **الوسيلة** والتي يعدها بمثابة الرسالة الإعلامية، مقارنة **بمحتوى** الرسالة الإعلامية (١٢٨) على اعتبار أن الجمهور يعمد إلى تكييف أوضاعه مع الوسيلة الإعلامية (١٢٩) ومن هذا تتبدى أهمية الوسيلة في تكوين طريقة استجابة المجتمع (١٣٠). وهكذا تشكلت ذائقة الجمهور وطريقة التعاطي

---

[127]. Marshall McLuhan , Bruce R. Powers , 1989 , The global village: transformations in world life and media in the 21st century , Oxford University Press , 220 Pages

[128] Leila Gómez, Asunción Horno-Delgado, Mary K. Long, Núria Silleras-Fernández , Editors ,2015, Teaching Gender through Latin American, Latino, and Iberian Texts and Cultures , Sense Publishers, University of Colorado , p 214.

[129]. Tatiana Bazzichelli , 2008, Networking: The Net as Artwork , Digital Aesthetics Research Center , Aarhus University , p 11.

[130] Gary Genosko ,Editor , 2005, Marshall McLuhan: Critical Evaluation in Cultural Theory, Volume 1 ,Routledge , New York , p117.

مـع الوسـائل، فبعـد أن كـان الراديـو سـيدا لغرفـة الجلـوس، سـرعان مـا تمـت إزاحتـه لصـالح التلفزيـون، هـذا الأخير الـذي راح يترنح اليـوم تحـت وابل الهجمات التي لا تعرف الهـوادة من قبل الإنترنـت والتطـور اللاهـث الـذي لا يعـرف الانقطـاع للبرمجيـات. والتقـدم المتسـارع لجهـاز الهـاتف المحمـول الـذي لـم يكتـف منتجـوه بوضـع سلسـلة الأرقـان عليـه، بـل راحـوا يضيفـون حروفـا ورمـوزا متعددة.

سوء الفهم

في ظـل التيسـير والتبسـيط للأجهـزة الرقميـة، وسـهولة الولـوج إلى المواقـع الإلكترونيـة، والحضور الطاغي لوسائل الاتصال الاجتماعي، وانتشار مواقع التحرير Blog. ساد الظن لدى عامة المستخدمين أم العالم بات يعيش الفضاء الاتصالي الحر. الخالي من التعقيدات التي كانت تفرضها أجهزة الرقابة على وسائط التعبير. حتى أن لكثير من الإعلاميين الكبار من ذوي الصيت والشهرة والخبرة، وقعوا في فخ الاعتقاد أن زمن الرقابة والحراسة على الأفكار والتعبير قد ولى وانتهى، تحت زعـم أن عصـر التعبير الحـر قـد جـاء وبقـوة لا تعـرف الـردع أو التوقـف؟! فيمـا يشـير الواقـع إلى أن المجتمع الإنساني قد وقع ضحية لأكبر فخ تم نصبه له على مدى تاريخ البشرية. حيث الإغـواء والإغراء قد بلغ أشده من خلال، تقديم هذه المتعة التي لا تعرف الانقطاع أو التوقف من البرامج التي م تترك شاردة أم واردة إلا وتدخلت فيها، وراحت تقدم المزيد والكثير والغزير من الوجبات البرمجية الدسمة، التي راحت تتخم عقل وذهن الإنسان المعاصر حتى لم قادرا على الإفلات من براثن شراك تلك الشبكة.

إنها الفخاخ التي لا تفتأ تتناسل بتكاثر أميبي لا يعرف الهوادة أو الانقطاع، ما بين زخم من البرامج والتطور المتلاحق من السرعة لقوة بث الشبكة العنكبوتية، والتحسين والتجديد لأجيال الأجهزة المحمولة، والإضافات المتعلقة بها. وبإزاء هذه الخدمات التي راحت تتوافر بخدمة المستهلك. انغرس الوعي الإنساني في لجة من التفاعل الحميم الذي بلغ حدود الإدمان. حتى راحت مركبات

النقل تتمايل يمينا وشمالا في عرض الطريق. فيما اندرج الناس في فعالية Hashtag وTweet وChat ونشر الصور الأكثر والأشد حميمية، تلك المتعلقة بالحياة الشخصية والأسرار الخاصة. فيما يكمن جهاز الرقابة متربصا بهذا العالم الذي غدا تحت سطوته وسيطرته المطلقة. ولم يقف الأمر عند عامة الناس حول نهاية مقولات نظرية حارس البوابة Gatekeeper Theory تلك التي أسس لها Kurt Lewin المتخصص في علم النفس الاجتماعي عام ١٩٤٣ [١٣١]. بل أن الأمر بلغ حد تسلل تلك الرؤى والتصورات إلى العديد من المنظرين والمشتغلين في مجال الإعلام والاتصال. بعد أن تصدرت الواقع فعاليات صحافة المواطن Citizen Journalism. حيث ساد الزعم لدى تلك الأوساط أن حراسة البوابة لم يعد لها ما يبرر وجودها، فيما الواقع الأصل يبقى يشير إلى أن هذه النظرية إنما تقوم على فعالية (تنقية المعلومات من أجل بثها ونشرها) وعبر مختلف الوسائط المتاحة [١٣٢].

تقوم فعالية حراسة البوابة على تبويب وترشيد وتنظيم عمل الإعلام في الحياة المعاصرة، حيث الغزارة والكم الهائل من المعلومات، والسعي نحو الفرز والانتقاء والصياغة والتقنين للرسائل الموجهة للجمهور[١٣٣]. الأمر هنا لا يتوقف عند ترصد المعلومة، بقدر ما ينطوي على العناية المركزة

[131]. Karen E. Fisher, Lynne McKechnie , Editors , 2006, Theories of Information Behavior , Information Today , Inc, New Jersey , p 247. See also , Jrarkko Paavalo & Harri Jalonen , An Approach to Detect and Analyze the Impact of Baised Information Sources in the Social Media , Turken University , Finland , Nasser Abouzakhar , Editor, 2015 , ECCWS2015-Proceedings of the 14th European Conference on Cyber Warfare and Security , University of Hertfordshire , Hatfield , UK 2-3 July 2015 , p 214.

[132]. Frank William. Jefkins , 1987 , International Dictionary of Marketing and Communication , Blackie , Glasgoe & London , p 117.

[133]. By Matthew Eshbaugh-Soha, Jeffrey Peake , 2011 , Breaking Through the Noise: Presidential Leadership, Public Opinion, and the News Media , Stanford University Press , p 59.

والشديدة على المحتوى والقالب الذي يتم فيه تقديم المعلومة (١٣٤). الواقع أن بداية الاشتغال والتطبيق المباشر كان قد انصب على طريقة تقديم الاخبار إلى المتلقي. حتى أن فعالية الفرز والانتقاء كانت تطيح بالمزيد من الكميات الكبيرة من الأخبار(١٣٥). لكن انتشار استخدام الشبكة العنكبوتية، جعل من نظرية حراسة البوابة الإعلامية في موقف دقيق. إذ أصبح امر السيطرة والتقنين أمرا في غاية الصعوبة والتعقيد، لا على مستوى التقنية المباشرة، والتي يتم من خلالها السيطرة والتوجيه. بقدر ما راحت تنتشر في الوسيط الاتصالي، المضامين والمحتويات المنتجة من قبل المهيمن والمسيطر على التقنية والتطبيقات الخاصة بالشبكة العنكبوتية (١٣٦). الأمر الذي جعل من فعالية حراسة البوابة تتخذ مسارا مختلفا. يقوم على أهمية الأخذ بنظر الاعتبار التكيف مع التحولات الجديدة والطارئة. لاسيما بعد أن راح يتم من خلال تطبيقات Facebook وTweeter وSkype والمجمل من التطبيقات وو سائل الاتصال الاجتماعي، تلك التي لم تقف حدود تأثيراتها على تغيير نمط الحياة المعاصرة، بل راحت تتدخل في رسم ملامح وقسمات نظام العلاقات الدولية وسيادة واستقرار الأنظمة السياسية. وهكذا رحت هذه البرامج أو المؤسسات إن صح التعبير تطيح بأنظمة سياسية لها كيانها ومؤسساتها الراسخة. وليس ادل من الدور المباشر الذي قام به موقع Facebook في أحداث الثورة المصرية. بل والقيام بدعم الثوار من خلال إدامة زخم التواصل عبر بث خدمة الإنترنت وبالمجان في الفضاء المصري. فيما راح البعض من الأنظمة السياسية يوظف هذه الخدمة للإطاحة بثورات، كما حدث في تجربة الانقلاب التركي، حين عمد الرئيس التركي رجب

---

[134]. Don W. Stacks, Michael B. Salwen Editors , 2014, An Integrated Approach to Communication Theory and Research, Routledge , New York , p 446.

[135]. Lynda Lee Kaid, Christina Holtz-Bacha, Editors , 2007, Encyclopedia of Political Communication , SAGE Publication , p 511.

[136]. Wojciech Cwalina, Andrzej Falkowski, Bruce I. Newman, 2015, Political Marketing: Theoretical and Strategic Foundations , Routledge , New York , p 57.

طيب أردوغان إلى استخدام برنامجSkype ، في إنهاء انقلاب ١٥ يوليو ٢٠١٦، والعمل على بث رسالة بالصوت والصورة، تشير إلى أن الرئيس في مكان آمن؟!

على الرغم من تركيز نظرية حارس البوابة على الجانب الإعلامي، إلا أن مجال البحث فيها لا يقتصر على هذا الحقل، بل يتخطاه نحو استثمار مقولاتها في الحقول العلمية المعرفية مثل علم الاجتماع والسياسة[١٣٧]، فيما راحت تتأكد مساهماتها الراهنة في قراءة العلاقات والمواقف التي تنتجها شبكة الإنترنت[١٣٨].لاسيما ما راح يتبدى في طريقة انتقاء المتلقي للأخبار والموضوعات ومدى استخدامها في البريد الإلكتروني أو في المدونات أو بثها على شبكات التواصل الاجتماعي[١٣٩]. ومن هذا الواقع لم يعد حارس البوابة متوقفا عند وجهة النظر الأحادية، بقدر ما صار التنوع والتعدد في الاختيار والانتقاء، مع اهمية التوقف عن اختلاف التوقيت. لكن أحوال الصراع تبقى حاضرة في طريقة البث، لاسيما وأن الاختلاف القائم بين رؤى وتصورات القائمين على الاتصال [١٤٠] صار لها القدح المعلى. ولنا في ذلك ترصد احوال انتشار ظاهرة الـBlock من قبل موقع Facebook بحق من يسيء استخدام الموقع. لاسيما فيما يخص بث الرسائل العنصرية أو الإساءة للأديان أو خرق القواعد والمعايير الأخلاقية. وتلك الفعالية يكون للمستخدمين الدور الأكبر فيها، عبر الاتصال المباشر بإدارة الموقع.

137. Karin Wahl-Jorgensen, Thomas Hanitzsch , Editors, 2009, The Handbook of Journalism Studies , Routledge , New York , p 85.

138. Wilma de Jong, Erik Knudsen, Jerry Rothwell , 2014 , Creative Documentary: Theory and Practice , Routledge , New York , p 309.

139. Holli A Semetko, Margaret Scammell , Editors , 2012, The SAGE Handbook of Political Communication , SAGE Publication , London , p 120

140. Tamara Witschge, C. W. Anderson, David Domingo, Alfred Hermida , Editors , 2016, The SAGE Handbook of Digital Journalism, SAGE Publication , London , p 99.

الخاتمة

لم تضع القراءة في حسابها أن تكون منشور هجاء لثقافة الترفيه، تلك التي جاءت نتيجة لتداول أجهزة الهواتف الذكية، وطريقة انتشارها ورواجها، حتى غدت ركنا أساسيا لا يمكن الاستغناء عنه، لدى المجتمعات المختلفة، غنيها و فقيرها. ولم يعد هذا الجهاز دلالة على الرفاهية بقدر ما صار الربط المباشر يتطلع نحو تلبية الحاجات. حيث الهاتف الذكي بشاشته الأثيرة، تلك التي راحت تضيء المزيد من الزوايا. وتبشر بالمستقبل الذي يحمل المزيد من الاستبصار للنوع البشري. و هكذا تتبدى أصالة الحضور من خلال قوة التفاعلات الفردية، وتمييز الدلالة الثقافية للتداول.[١٤١] حيث يتنامى حضور هذا الجهاز الأصم في صميم البنية الثقافية. حتى غدا جزءا لا يتجزأ من الفضاء العمومي. ومن هنا كانت أهمية الوقوف على آليات تفاعل هذا الجهاز داخل الوسط الاجتماعي، وما أثمر من إنتاج أنساق تبادل للعلامات والرموز والإشارات، يمكن ترصدها عبر الوقوف على سياقات التفاعل. وليس أدل من ظهور سلوكيات اجتماعية كانت نتاجا لثقافة الهاتف الذكي، تلك التي تبدأ بـ لقطات Selfy ولوازمها من مط الشفتين وعقد الإصبعين، مرورا بانحناء الرؤوس على الشاشة، في مشهدية تطال شرق العالم وغربه انغرس الهاتف الذكي في التفاصيل الدقيقة لوعي الإنسان المعاصر، حتى غدا مكوّنا رئيسا من وعيه. حتى أن هذا الجهاز صار بمثابة المسؤول عن رسم الطريقة التي تعيش بها المجتمعات، بعد أن ارتبطت مجمل الممارسات السلوكية به. وبالقدر الذي ارتبط به هذا الجهاز بالمزيد من المعطيات العلمية والتقنية، وعدّ نقلة نوعية في تاريخ الابتكار والإنجاز الإنساني. إلا أن الممارسة المباشرة كشفت عن المزيد من التفاعلات النائية عن المعنى، والتركيز على الأنشطة الهامشية البعيدة عن جوهر الإنتاج الاجتماعي.

[141] Edward Sapir , 1968 , Selected Writings of Edward Sapir , University of California Press , p 399.

المبحث الثاني

أخلاقيات استخدام التقانة الحديثة

(صناعة المعلومات، هي المادة الأولية للمستقبل)

دانييل بل

في السنة الأولى من الدراسة الجامعية، عمد الطالب الثري إلى تسريب شائعة مفادها، أن النظارة الشمسية التي يقتنيها، تحمل مواصفات شديدة الخصوصية، قوامها اختراق الملابس ومشاهدة الأجساد عارية. حينها دب الذعر وسط الزملاء، والزميلات بدرجة خاصة. الأمر الذي استدعى تدخل إدارة الكلية، وتعرض ذلك الطالب إلى عقوبة شديدة الصرامة، لم يشفع له فيها ثراؤه أو حتى قرابته من أصحاب القرار السياسي. زمان الحكاية بداية الثمانينات من القرن العشرين، حيث التقانة المتداولة لم تتجاوز جهاز الفيديو، والذي كان حكرا على الطبقات الميسورة. المكان يحكمه نظام شمولي يقوم على الترصد الدقيق، والتقنين والانضباط الأيديولوجي، وترسيم صورة الشخصية المثالية، المعّدة عبر الصرامة المنهجية، التي يصنعها جهاز الرقابة الماثل في المجمل من تفاصيل الحياة. فيما كان هذا الطالب قد انتحى جانبا، وراح يقوم بحركات لافتة، تذكر وإلى حد بعيد بـ (Norman Wisdom) كوميدي السينما الإنكليزية إبان الأربعينات والخمسينات من القرن المنصرم.

لم يزد دور الفتى عن نقل فكرة شريط الفيديو السينمائي، الذي توفر له وحده، في ظل الانعزال الذي كان يعيشه المجتمع. فوظفه من أجل متعة اللحظة الراهنة، حيث الإمعان في مطالعة الذعر الذي حل في نفوس زميلاته، اللواتي رحن يغطين الأجساد بالكتب والحقائب. كان هلعا حقيقيا، تسرب إلى الطلبة الذكور أيضا، الذين لم يكن حالهم بأفضل من زميلاتهم. نجح الفتى في بث رسالته الاتصالية، حيث الرغبة العارمة في التميز ولفت الأنظار إليه، ولم يغب عنها

التحدي. ونجحت الإدارة في بث رسالتها القائمة على الحضور والمراقبة والمعاقبة، والتلويح بسلطتها الحاضرة في كل زاوية، فكانت العقوبة التي تنال من كل شيء وأي شيء، تحت دلالة الانضباط والانسجام والتناغم.

الدال	المدلول	الدلالة
الطالب الثري	التسريب	لفت الأنظار
النظارة الشمسية	الإشاعة	التواصل
الاختراق	الذعر	التحدي
الإدارة	العقوبة	الانضباط

علاقة العلامات بالأشياء

اللحظة الويكيلكسية

تحضر التداولية بقوة لافتة حين يتم النظر عبر العلاقة القائمة بين العلامة ومؤلها، لا فرق بين رقيّم طيني، ذلك الذي عمد إليه كاتب نص ملحمة كلكامش في الألفية الثانية قبل الميلاد، حين جعل من عظيم وملك أوروك يستدرج أنكيدو من خلال راقصة الحان، أو حكاية يقدمها مؤرخ من العصر العباسي، ويوظفها كاتب مسرحي معاصر، حول مغامرة رأس المملوك جابر في محاولة إمرار رسالة سرية يتم نقشها على رأس مملوك إلى الطرف الآخر، وطريقة الكشف عنها، بعد إزالة شعر

الـرأس، ، أو في الكشـف العلني والتعريـة لعـالم العلاقـات الدبلوماسـية، الـذي عمـد إليـه موقـع ويكيليكس في زمن الثورة المعلوماتية والاتصالية.

الموضوع	المضمون	الفعل
الشفافية	التواصل	التسريب
الانضباط	الاستمرارية	العقوبة
الوثيقة	الحقيقة	التعرية

العلامة والتأويل

بعد الواقعة الويكيلكسية، بات العالم اليوم تحت وقع صدمة الوثيقة، تلك التي اتخذت معنى مسـتقلا، هـذا بحسـاب قـوة الحضـور في مجـال التغيير للمعنى والوصـف والتصـوير. لقـد احتفظت الوثيقة ومنذ لحظة اختراع الكتابة ودخول الإنسان بالعصور التاريخية، بدلالة تقارب القداسـة، نعم يشهد التاريخ البشري على تسريب المزيد من الوثائق ذات الأهمية القصوى، لكن كشفا بهذه السرعة والمجانية والمباشرة والتشهير والانفضاح والعلنية، لا ينجم عنه سوى محاصرة الوثيقة، ودمغها **بالرمزية الناقصة**، بعد أن تم الإطاحة بمكانتها العزيزة والأثيرة، وتبديد هيبتها على منبر المواقع الإلكترونية. إنه الابتعاد عن المعنى الذي صممت من أجله الوثيقة على الصعيد التاريخي. فما كان خاصا أصبح مشاعا بطريقة تدعو إلى الارتباك، وما كان سريا غدا مفضوحا، وما كان يخزّن لثلاثين عاما أو يزيد، بحسب قيمة الوثيقة وتأثيراتها، صار يذاع على الملأ قبل وصوله إلى صاحب القرار.

رقمنة العالم

في أعقاب الثامن والعشرين من نوفمبر ٢٠١٠، وهو تاريخ نشر الوثائق (**المتعلقة بوزارة الخارجية الأميركية**) على موقع ويكيليكس، أجمعت أغلب الصحف الأميركية على الخروج بنتيجة مفادها، أن المتضرر من هذه العملية هو الخارجية الأميركية، باعتبار فقدان الثقة الذي بات يلاحقها خلال التعامل مع المؤسسات المناظرة لها في العالم. ولم يخرج الأمر عن تحميله طابعا شخصيا، يتم فيه استهداف رأس الخارجية، ممثلا في هيلاري كلينتون وزيرة الخارجية. وراح سيل التوصيفات السلبية يطال ويكيليكس والقائمين عليه، بعدم المسؤولية واللا أخلاقية. فيما يتم التغاضي عن الحقيقة التي تقوم عليها تلك المؤسسة الرسمية، والقائمة على ازدواجية الخطاب (**المعلن والمخفي**). بالمقابل فإن الطرف الفاضح والناشر، استند إلى حق التعاطي والتفاعل في الفضاء الرقمي، حيث التدفق المعلوماتي الهائل، والاندراج في ثقافة الاختزال والاختصار والكشف والسرعة التي تطال كل شيء وأي شيء. إنها المفارقات التي تحدّها أحوال التشكيلة الخطابية الجديدة[١٤٢]، المستندة إلى موضوع الشفافية ومضمون التواصل. حيث المسعى إلى التمييز بين **الوضعيات**، وليس العزل بين **المراحل**. إنها التحولات التي تفكك التشابهات والاختلافات، والمتطلعة نحو الوعي بالتحولات التي يعيشها العالم من دون الخضوع لمنطق التوافقات والانسجامات. إنها التفاعلات المابعد حداثية تلك التي تستمد فاعلياتها من مضامين السيطرة والتوجيه، مرجعها الأعلى يقوم على الثقافة الرقمية والمعلوماتية، قوامها العقل النازع نحو التعاطي مع العصر، من دون الخضوع للمحددات الفردية أو الاشتراطات الاجتماعية[١٤٣].

[١٤٢] ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٥، ص ١٦١.

[١٤٣] ماتلار، تاريخ نظريات الاتصال، ترجمة نصر الدين العياضي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ٢٠٠٥، ص١٩٧.

ويكيليكس حيث بث الوثائق، وكشفها على الملأ، وصف من قبل الجهة المتضررة، بأن عمله يفتقر إلى المسؤولية، وانعدام الجانب الأخلاقي فيه. فيما يتم التغاضي عن المحتوى الذي تغص فيه الوثائق، من فضائح وازدواج وتناقض وتشهير. إنه السياق القائم على الإعلاء من المادي على حساب الروحي، فيما يتم انتقائية الأخلاقي عند اللزوم، وكأنه معطى مادي يتم استحضاره عند الطلب[١٤٤]. Julian Assange المواطن الأسترالي، المقيم في السويد، الذي تتم محاكمته في بريطانيا، والمهدد بالترحيل إلى الولايات المتحدة، قد تبدو صورته للوهلة الأولى، كائنا عولميا بامتياز. لكن التدقيق في النموذج يكشف عن أحوال نسق الفعل الداخلي الغربي، نشأة ولغة وثقافة ومعايير أخلاقية ومفاهيمية. إنه ابن البيئة المعلوماتية والإيمان العميق بالعقيدة التقانية، هو ابن السياق الغربي حيث العلاقة الراسخة بين الفاعل والبناء الاجتماعي. حيث قوام الفعل المتطلع نحو التغيير، عبر النشاط الواعي. سياق لا يتبنى أحوال إسقاط الفرض أو البحث عن الحضور والأداء، بقدر ما يكون المعطى الأصل فيه وقد استند إلى المشاركة الفاعلة والأصيلة، انطلاقا من المكونات القائمة، على أن الفاعل هو ابن البنية العقلية التي يتفاعل فيها، وبقدر ما تؤثر فيه، فإنه صانعها، وما النشاط الاجتماعي الذي يتبدى في المجمل من الحقول، إلا إفراز عميق لمستوى تعاطي الفاعلين، إنها المدركات والتصورات والرؤى التي تتبدى في المحيط المألوف الذي يميز بنية اجتماعية عن أخرى، وهكذا تتبدى البنية الغربية، في الحادث الويكيليكسي، الذي يكشف عن الحقيقة العقلية الغربية، حيث المنفعة والمصلحة[١٤٥]، ولا ضير من تعرية العالم، مادامت النتائج في النهاية ستكون في مصلحة الطرف الأقوى.

السلطة الرقمية

إنها قضية بيت داخلي غربي بامتياز، بين المؤسسة الرسمية وقوى الضغط الجديد التي راحت تعلن عن حضورها، لا بوصفها ممارسة دور، بقدر ما تريد أن تكون مشاركا فاعلا وأصيلا.

---

[١٤٤] هربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت ١٩٨٨، ص ٨٢.

[145] Pierre bourdieu, Outline of a theory of practice, translate to English language by Cambridge university, Cambridge 2003, p 172

ولنا في ذلك أن نتأمل في مسألة التوقيت، حيث الأوضاع التي يعيشها الغرب في راهنه حول مستقبل وسائل الاتصال، بين الورقي والإلكتروني، بين المؤسسات الإعلامية التقليدية، ومواقع الشبكة العنكبوتية، تلك التي راحت تحضر بزخم وقوة في الواقع.إنه الإفصاح المباشر عن قيام تلك القوة العاتية بالإعلان الصريح والمباشر عن سيطرتها على مصادر التقانة، فـ Assange لا يعمل وحيدا، (**وهذا ليس من فرضيات نظرية المؤامرة**) وإلا ما الذي أوصله إلى مصادر المعلومات؟ وكيف فكر بها؟ ولماذا أقدم على فعلته هذه؟ ومن أين يستقي هذه الثقة في المواجهة مع القوة التي تقود العالم؟ هل هي الثقة المطلقة بالديمقراطية؟ حيث العقيدة الراسخة بالحرية والمساواة والعدالة والنظام.

ترى هل نحن إزاء نموذج المدينة الفاضلة. أم أننا أمام أكبر عملية توجيه وتحكم في العالم، حيث الارتباط بعملية نقل القوة من القوى التقليدية السياسية، والبدء بحفز النظام الدولي الجديد القائم نموذج السلطة الرقمية. ما الرسالة التي يريد إيصالها ويكيليكس؟ وما المقصود من شعارها الذي يتصدر الموقع؛ **Keep us strong**، حيث لا يتردد الموقع من الإعلان عن نفسه بوصفه؛ منظمة أخبار تعتمد الوثائق الداعمة، والعمل على حماية المصدر، والاستناد إلى السرعة والسهولة والتشفير. ويلخص الموقع رسالته في التطلع نحو تقديم المعلومات والأخبار المهمة إلى الجمهور، من خلال اعتماد المصادر المستقلة، والعمل على نشر المعلومات ذات الأهمية الأخلاقية والسياسية والتاريخية، والسعي للكشف عن الظلم وقمع الرقابة. والاعتماد على المؤيدين، من أجل بقاء المنظمة قوية[١٤٦].

[146] WIKILEAKS, http://213.251.145.96

الشفافية أعلى مراحل الديمقراطية

كيف يمكن استبطان مفهوم الشفافية، هل المعطى الأصل فيه يقوم على الجهر والكشف والعمل على إحراج المؤسسة الرسمية، باعتبار الرفض للسرية، والتطلع نحو وضع المعلومات أمام الملأ، من دون الخضوع لرقابة أو معايير ضابطة. أم هي الولاء للحقيقة؟ وما هو المدى الذي يربط بين الشفافية والحقيقة، هل ينطوي الأمر على السعي نحو تهيئة العقل لتقبل الحقيقة والقناعة بها مهما كانت وعلى أي صورة أو شاكلة. هل القضية ترتبط بحرية التعبير عما يجول في الضمير؟ وكيف يمكن تمثل الحقيقة عبر بوابة الشفافية.[١٤٧] هل بالتوقف عند مستوى الدلالة فيها، باعتبار البحث في مستوى العلاقات التي تطرحها مع الموضوعات والمضامين الأخرى، أم عند المستوى التداولي انطلاقا من طريقة التأويل للشفافية ذاتها، بحسب الموقع والموقف والاتجاه والسياق، الذي يتم فيه تداولها. عن أي مستوى يمكن الحديث من الشفافية، فقد تحضر أحيانا في زلات اللسان وفي التداعي الحر للكلام، وقد تتوفر بوصفها شعارا يتم استخدامه في حملة انتخابية أو تلميع وجه ما في حقل من الحقول. هنا تكون الإحالة إلى البحث في السياق باعتبار البحث في هوية المشارك في فعالية الشفافية، حيث سؤال من هو؟ سياسي أم صحفي؟ عربي أم غربي؟ ليبرالي أم أصولي؟ والمسعى نحو الكشف عن الزمان والمكان، باعتبار الوقوف على طريقة التوقيت والمكان الصادر عنه. والبحث عن الأهداف التي عنت على المشاركين. الصحفي المنتمي إلى المنظمة التي تجعل من الشفافية غاية ورؤية تقوم على: (**الكشف عن الظلم وقمع الرقابة**)، وهذا ما يتم الإعلان به جهرا، ويتم تبنيه رسميا عبر الموقع الرسمي، فيما يرد المتهم بأهمية الوقوف عند الأخلاقيات والمسؤولية. إنه موقف الكلام بين طرفين، والذي يحتاج إلى التطلع نحو دراسة المعنى. وحتى لو قيض لجهة ما أن تدرس المعنى فإن الإحالة الموضوعية تبقى تشير إلى الوفرة الهائلة في الاختلاف في المعاني.

---

[147] Richard W. Oliver, What is the Transparency, Mc Graw- Hil Co, USA 2004, P51

الشفافية بصورتها المباشرة، تعتمد المشاركة بين النظام الرسمي والعامة، حيث التواصل الحر بين الطرفين من دون عوائق، سعيا إلى إعادة حقوق العامة في حال تعرضوا إلى الظلم، إنها القيمة الأخلاقية المستندة إلى ثقافية المكاشفة والمصارحة ونبذ السرية، والتطلع نحو الإعلاء من الممارسة مهما كانت نتائجها نجاحا أم فشلا، إنها الحرية الكاملة الخالية من التقييد[١٤٨].هي الوسيلة لتطبيقات المشاركة الشعبية التي يقوم عليها النظام الديمقراطي، حيث المكاشفة التي تنال كل شيء وأي شيء، بدءا من طريقة صناعة القرار السياسي وتفصيلاته، مرورا بالرقابة الشعبية المباشرة، والتطلع نحو رصد المخالفات ومحاسبة المقصر والقضاء على الفساد، إنها فرصة المراجعة الصادرة من قبل العامة، للتدقيق في القرار والأنظمة، والتفاعل الحي المشترك بين الحكومة والشعب[١٤٩]، من خلال الاستثمار الأمثل لوسائل الاتصال. والحكومة هنا لا تحضر بوصفها Taboo، تتمتع بالصلاحيات المطلقة لاستخدام السلطة، بقدر ما هي جهاز حكومي تنفيذي، وظيفته الأصل تقوم على تقديم الخدمة للعامة، وهي قابلة للمراقبة الصارمة والكشف العلني، بوضوح قوامه الانفتاح. شفافية ويكيليكس لحظة العودة بالديمقراطية إلى منابعها الأولى، حيث أثينا ودولة المدينة، في القرن الخامس قبل الميلاد، والمشاركة المباشرة من قبل المواطنين، في صناعة الفرار السياسي، ولكن بتمثلات العصر الرقمي، وما تفرزه وسائط الاتصال من قدرات وإمكانات، تتجاوز فيه إشكالية طريقة مشاركة الحشود الغفيرة والواسعة من الناس، إذا ما قورنت بالنموذج القديم وحجم السكان.

---

[148] Thomas Met zinger, Being No One, the self-model theory of subjectivity, Massachusetts 2004, p 165.

[149] Shel Heltz, John Havens, Lynne Johnson, Tactical Transparency; how leaders can leverage social media to maximize, new York 2008, p22.

عصر المشاركة

في العصر المعلوماتي، حيث الفسحة الواسعة للدور الذي يلعبه الجمهور، في تشكيل الزمان والمكان.الأمر هنا يتعلق بالسياق المولد لعلاقات القوة وعلاقات المعنى، حيث الارتباط بين العلاقة الاقتصادية والممارسة الثقافية، وما تفرزه من مؤثرات مباشرة على مستوى العلاقات والتبادلات الرمزية، بما يتوافق والموقع الذي يحتله الفرد داخل المجتمع. إنه المغروس الذهني الذي يحدد دلالة الممارسة، كما يشير إلى ذلك بيير بورديو، حول المجمل من المواقف والممارسات والتبادلات الاجتماعية. وهكذا يتبدى التباين والاختلاف في وجهات النظر حول الظاهرة الواحدة، بناء على طريقة تفاعل القوة والمعنى داخل المنظومة الاجتماعية.[١٥٠] إنه التحول في طريقة المساهمة، حيث الدور البارز لذي راح يتبدى حاضرا من قبل الجمهور، في تحديد مسار علاقات الإنتاج الاجتماعي، وعلى المستويات؛ (**الإنتاجية والتسويقية والاستهلاكية**). حيث البروز اللافت لدور المستهلك في تحديد مسار القوة الخاضعة لاعتبارات سطوة المال، والمعنى الذي يخضع لرغبات المستهلكين. هكذا يتبدى سياق المعلوماتية حيث الفضاء الرمزي النائي بنفسه عن سطوة الحراسة والرقابة، لكن تفاعلات هذا الفضاء تبقى قائمة على الحضور الطاغي للوسائط، تلك التي تفرض بتأثيراتها على المجمل من الحقول الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. إنها العلاقات الجديدة التي تبرزها طبيعة العلاقة الجديدة القائمة بين الإنسان والحاسوب، هذا الأخير الذي برزت سجاياه عبر التأثير لمباشر في ترسيم ملامح التوجهات العامة، بعيدا عن التمركز القديم للسلطات، حيث الكشف لذي يصل إلى مستوى الفضح للنسق المضمر، باعتبار حضور (**الوسائطية**) بوصفها حادثا ثقافيا عميق التأثير والقوة، تتجلى ملامحها في التطلع الحثيث نحو كسر حواجز التمركز والهيمنة، والخلاص من سطوة المتون، عبر تسهيل مهمة التسلل لما كان يعد هامشا.

---

[150] Richard W. Oliver, What is the Transparency, Mc Graw- Hil Co, USA 2004, P51

الفضاء التفاعلي

الفضاء الرمزي إن كان الوصف الملاصق له يقوم على الافتراضية، (**ذلك التوصيف الذي نحتته شركة IBM أواخر ستينات القرن العشرين، في إشارة منها إلى أحوال العلاقة القائمة بين العمليات المباشرة والحاسوب.)** فإن طغيان التأثير القادم عبر الوسائط وكثافة التبادل القائم في هذا الفضاء، يعد بمثابة البديل، الذي بات يسمح للمستهلك أن يعبر عن كينونته، بعيدا عن مركزية المكان أو سطوة الزمان. حيث التفعيل لدور الحاسوب في تبادل المعلومات. والتبادل هنا يقوم على التفاعلية الاتصالية، تلك التي راحت تطال المجمل من تفاصيل الحياة، بدءا من قراءة البريد الإلكتروني وصلا بالأخبار المتعلقة بالبورصة وأسعار العملات والطقس والمعادن والتسوق، ليصل إلى صميم الممارسة السياسية حيث التصويت الرمزي والبيع والشراء الرمزي من خلال النقود الرمزية.[(١٥١)]

هو عصر الحاسوب وقدرته الفائقة في (**برمجة المعلومات**) بحسب توصيف نبيل علي، حيث المعرفة التي يتم توظيفها في خدمة المستهلك وعلى مختلف المستويات والحقول، في السيطرة على البيانات التي تدخل في مجال التعليم والميزانيات والعمليات العسكرية، وتحديد مسار القرارات والإدارة والتصميم الهندسي والرسوم والمخططات. إنها سيطرة النظم، القائمة على توجيه المعرفة لا بوصفها بيانات مجردة فقط، بل أن الأمر يتعالق في صلب تقديم المشاركة على حساب الشكل الثابت والقائم والدائم، وتقديم المعرفي الإبستمولوجي على حساب الأيديولوجي، واعتماد النقد الثقافي المرتكز على عناصر (**النسق، المضمر، الاستهلاك الجماهيري، التأثير الفعلي، الكشف عن وسائل تمرير الأنساق، جماهيرية النص**)، إنها الفعاليات المفضية إلى نزع القداسة عن علاقات القوة التقليدية، وفسح المجال أمام الأطراف بإزاء هيمنة المركز، وإعادة النظر في طريقة التعاطي

---

[١٥١] بيار أنصار، العلوم الاجتماعية المعاصرة، ترجمة نخلة فريفر، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٢، ص ١٦٢.

مع البيئة، وسطوة الإعلام المركزي، وسلطة المؤلف[١٥٢] إنها الوسائط التي راحت تتخطى الدور المؤسسي الذي نقل الأحداث الكبرى عبر بوابة قناة الجزيرة أو CNN، بل راح الدور يتبدى لكاميرا الموبايل في الكشف عن التجاوزات وتصوير الثورات الشعبية ونشر تفاصيلها، عبر بوابة YouTube، حيث التفكير الجديد القائم على قوة الصورة، الساعي نحو الكشف عن معاني الأفكار، من خلال المشاركة المباشرة للفرد.

هكذا يتبدى رهان الدفاع عن الحق في التعبير، من خلال الكشف عن الظلم والقمع وهتك سطوة الرقابة الحديدية، عبر فعالية (**النقل وتلقي الأفكار والمعلومات العابرة للحدود**)، إنه التماهي العميق والأصيل مع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، حيث الحق في حرية التعبير والرأي. هي رؤية الشفافية القائمة على (**دعم الناس من أجل خلق تاريخ جديد**) [١٥٣]، والمتوافقة مع المتغيرات التي تفرضها العولمة.

الخروج عن النسق

يظهر موقع ويكيليكس في أقصى تجلياته، بوصفه خروجا عن النسق السائد، خروج صادم لا ينجم عنه سوى ردود الأفعال المضاعفة حول الموقف الصادر عنه، وعلى مختلف المستويات؛ الرافض أم الموافق. الرافض لموقف ويكيليكس باعتبار الصدمة والدهشة الصادرة عن النسق المهيمن، بإزاء كم الجرأة التي يحملها الموقع في عملية نادرة من نوعها، وقد تمثل في تسريب مئات الألوف من الوثائق المصنفة (**عالي السرية**). أما الموافق فإنه يعلي من فعالية التسرب باعتبارها خرقا لطبيعة الاستجابة التقليدية للمعنى السائد، والكشف الصادم للمراوغة، والانفتاح الغريب

[152] Asa Briggs & Peter Burk, A Social History of the Media, Polity Press, Cambridge UK, 2009, p 278.

[١٥٣] نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت٢٠٠١، ص ١٢٢.

لأفق السؤال الساعي نحو البحث والتقصي، وترصد أحوال الإخفاق في التجربة التي يرعاها المتن. هو الفضح لأزمة النسق وأوضاع التفاوت في المواقف (**المخفي والمعلن**) حيث الازدواجية في أقصاها، بإزاء الموقف الكاشف القائم على السند المدعم بالوثيقة الدامغة، والتقديم لقوة الثقافي على حساب الأيديولوجي. هي خطوة للإفلات سطوة النخبة والانفتاح على الاستهلاك الجماهيري، وهي الخروج عن سطوة المؤسسة وتراتبياتها، والبحث الدال والأصيل عن التأثير الفعلي للحدث في صلب الواقع. الحادث الويكيليكسي جاء فضحا لسيطرة النسق في الهيمنة والتمركز، منزلا إياها من مرتبة المتون إلى مستوى الهامش، ليكون التوافق مع الرغبة في كسر جمود نموذج الديمقراطية الشكلية، والإعلاء من قيمة المشاركة الفاعلة الساعية نحو تغيير العالم.

يتداول جمهور ميدان التحرير في القاهرة، (**قاهرة ما بعد ٢٥ يناير**) نكتة مفادها، أن لقاء مفترضا قد تم بين الرؤساء المصرين الثلاثة، ناصر والسادات ومبارك، فكان السؤال عن طريقة التنحي، **سم** وهي الشائعة المتداولة حول نهاية الرئيس ناصر، أم **منصة** التي اغتيل فيها السادات؟ فكانت الإجابة **Facebook**، إنها أحوال التواصل حيث التوسع في نقل المعلومات والمشاركة، تلك التي تقوم على المبادرة الصادرة عن الواحد، لتتسع وتشمل الملايين، استنادا إلى طريقة التعاطي مع الشبكة التواصلية. و ما يمكن أن تولده من أسئلة، تلك التي لا ينتج عنها سوى المزيد من الفائض المعرفي، هذا الأخير الذي يكون بحاجة إلى التنظيم والانتقاء. لقد جاءت لحظة ويكيليكس لتشكل وحدة نسقية بقوام(**المعلومة، الإبلاغ**) فيما لم يتبق من أجل غلق هذه الدائرة سوى المسعى نحو **الفهم**. عنصر الفهم الذي يتوسط مستوى العلاقة القائمة بين النسق السائد والمعرفة، وما يمكن أن تفرزه طبيعة الخيارات. وإذا ما قدر لنا الوقوف على إقفال دائرة الوحدة النسقية (**معلومة، إبلاغ، فهم**) فإن ما يبقى دائما يبقى يدور في فلك طريقة التعاطي مع السياق الذي يحدد مسار الخيارات، وعبر هذا المنظور، تبقى طريقة التعاطي مع الحالة التونسية التي ما زالت تعيش أحوال الانتقالية، والحالة المصرية حيث المواجهة بين النظام الرسمي والإرادة الشعبية. ما يبقى فائضا هنا، يبقى يقوم دائما على مهارات التواصل، حيث الانتقال من الواقع الافتراضي حيث شرارة الـ Facebook، وصلا إلى الواقع الحقيقي، إن كان في شارع الحبيب بورقيبة في العاصمة تونس، أم

ميدان التحرير في القاهرة. إنها أحوال الفراغ القائم في صلب مهارات التواصل. إذ يبقى الأمر منوطا بطريقة الفرز والتمييز بين مستوى المشاركة التي يندرج فيها الإطار الجمعي الذي تقوم عليه الحشود، حيث الرغبة في المراقبة ومكافحة الفساد والبحث عن الشفافية، وقدرة السلطة في تقديم المبررات بوصفها الممسكة بقياد الشرعية. وها نحن بإزاء وضعية الرفض الصادر عن الطرفين (الجموع_ السلطة)، حيث التمركز لثلاثية (**العقول، الاختيار، المعلومة**). هل هي حرب الجميع ضد الجميع؟ كما يرد في التعبير الخاص بـ هوبس، أم أن الترابط يبقى قائما في (**الزمان، السياق التاريخي، تفاعلات المجتمع**). الواقع الافتراضي أسقط أثر الزمان والمكان من الحسابات الواقعية، وراح يفرز سياقا تاريخيا جديدا قوامه (**الموقف، الاختلاف، التواصل**) [١٥٤]

مقرطة منخفضة التكلفة

وسط أحوال السقوط المدوي لأنظمة ظلت تعرف بالحديدية، حيث النموذجان التونسي والمصري، تبقى مسألة المقارنة حاضرة مع تجربة التغيير التي طالت أفغانستان والعراق، حيث الحضور الملفت للإرادة الشعبية التي تمثلتها طريقة التغيير، فيا بقي العامل الخارجي فاضحا في النموذج الثاني. وإذا ما تم التوقف عن النموذج الطالباني أو شمولية النظام العراقي، حيث العزلة الصارمة، والمنع الحازم والدقيق لمجمل وسائل الاتصال الحديثة، إلى الحد الذي يتعرض فيه المواطن إلى الحبس الشديد والغرامة المالية المضاعفة، من يكتشف أنه يحتفظ بجهاز اتصال حديث، وقد تصل في بعض الأحيان إلى اتهامه بالجاسوسية والعمالة لجهات أجنبية. المسألة هنا تتعلق بطبيعة النظام. حيث طريقة التعاطي مع الوسائل الاتصالية. وما يمكن أن تحدثه من تأثير على مستوى طريقة التعريف للدولة المعاصرة، حيث جدلية (**التواصل والعزلة**).

الثورة الشعبية التواصلية، هكذا يمكن توصيفها، فيما تبقى الأسئلة عالقة حول طريقة التعاطي مع الواقع، فإذا كانت الانقلابات العسكرية قد شكلت الحضور الأبرز في الذاكرة التاريخية العربية المعاصرة، فإن صوت الشعب وإرادته باتت هي الحاضر الأهم، بعد أن تم إخراجها من

---

[154] Wiki leaks Site

دائرة الانفعال السياسي. الأمر هنا يقوم على التفاعل الواقعي والصميم مع الواقع. حيث المعلومة الدقيقة الصادرة عن الذات الواعية، حيث التواصل العميق والمباشر بين الجموع لا الحشود. لقد تم إفراغ القداسة عن التفاعلات التي تم ربطها بقوة مع النظام السياسي، وراحت المشروعية تحضر بقوة، انطلاقا من نقل الواقع إلى المقدمة، بعد أن كان يتعرض للفلترة على يد الرقيب، حيث ممارسة الانتقائية في أعلى صورها.

لقد تضافرت الوسائل الاتصالية في ترسيم معالم المطالب الشعبية، حيث الدور الذي انطلق من رحم مواقع الاتصال الاجتماعي الـ Facebook، وتواصلت الفعالية عبر تضافر جهود المؤسسات العملاقة المتخصصة بالاتصالات، حيث الدور الذي لعبه Google في إدامة زخم تواصل الشبكة العنكبوتية، وراح الدور الكاشف والفاضح لقناة الجزيرة في تغطية مجمل التفاصيل للأحداث الجارية، تلك التي كانت تتم في عموم مصر. وهكذا قيض للوعي الجمعي أن يعبر عن إرادته الواعية، بعد أن توفر المناخ التواصلي، الذي ساهم في إنجاح الثورة الشعبية، تلك التي راحت تؤكد أن الشعب هو مصدر السلطات.[١٥٥]

سلطة التواصل

توقف عالم المستقبليات الأمريكي ألفن توفلر، عند تعريف لافت للسلطة، عبر كتابه الشهير (تحول السلطة)، حيث الإشارة إلى المكون الثلاثي المستند إلى (**العنف، الثروة، المعرفة**)[١٥٦]، ومن واقع التحولات المتسارعة التي بات يعيشها العالم الراهن، فإن ثمة تغيير يمكن ترصده في المعادلة بقوام البروز الهائل والعميق للأهداف التواصلية، تلك التي باتت تغمر الواقع، انطلاقا من المسعى نحو جعل الواقع بيئة أكثر تناغما مع الرغبات والأهداف الاجتماعية، حيث

---

[١٥٥] نيكلاس لومان، مدخل إلى نظرية الأنساق، ترجمة يوسف حجازي، دار الجمل، كولونيا ٢٠١٠، ص ٣٨٤.

[١٥٦] جان فرانسوا بايار، أوهام الهوية، ترجمة حليم طوسون، دار العالم الثالث، القاهرة ١٩٩٦، ص ١٤٤.

الدور المحوري للشعب، وليس النخبة الحاكمة وتطلعاتها ومسارات السيطرة والتوجيه الذي تستند إليه وما يتخللها من تجاوزات وفساد واحتكار. وهكذا يمكن التوقف عند أحوال الإضافة للعنصر الجديد والذي يجعل من المعادلة وقد استندت إلى الشكل الجديد والقائم على (الاتصال، **الثروة، المعرفة**)، وهكذا يتم الحضور للأهداف العامة على حساب الأهداف الخاصة، حيث المسعى نحو المكاشفة والشفافية، انطلاقا من رؤى التغيير والإصلاح، هذه الثنائية التي راحت تشكل المجمل من المطالب التي ترفعها الحركات الشعبية في النطاق الجغرافي العربي.

هل يمكن وصف أحوال الرغبة بالشفافية والتواصل، بالعدوى التي انطلقت شرارتها من تونس، والتي راحت تطال الباقي من الأنظمة السياسية العربية، تلك التي تكلست وراحت تندرج في لعبة الممارسة السلطوية الكثيفة **للعنف**، حتى تم تغطية عنصري(**الثروة والمعرفة**) فيها. الأمر هنا مختلف بطريقة لافتة، المسألة لا تتعلق بموضة رائجة أو رغبة في التقليد، أو حماس عاطفي طغى على مخيال فئة معينة من المجتمع، باعتبار التوصيف الذي راج حول **(ثورة الشباب)**. لا بد من التوقف العميق عند طبيعة الممارسة التي تفرضها أحوال وأوضاع التواصل، حيث الإزاحة لثنائية (**المستتر والمكشوف**) والحضور الطاغي لكل ما هو مكشوف، باعتبار مستوى الممارسة الجديد الذي يقوم على تأصيل المعلومة، وما يتبعها من حضورية مكثفة لتضاعيف شبكة الممارسة، القائمة على (**صناعة التغير**)، انطلاقا من الوقوف على ترصد أوضاع التناغم مع الواقع، والذي راحت تتكشف ملامحه عبر (**أخلاقيات الشفافية**) حيث الفضح وهتك المستور الذي راح يتم عبر وسائل الاتصال، تلك التي راحت تكشف من (**الروح الرقمية**)، والمستندة إلى التقانة التواصلية العالية والثورة المعلوماتية. وهكذا يكون السقوط المدوي للجملة الأثيرة التي كانت النخبة السلطوية، التي تطلقها بإفراط لافت، حول (**أنتم تعرفون شيء، ونحن نعرف شيء**) حيث الإبهام في أقصاه. [١٥٧]

---

[١٥٧] ألفين توفلر، تحول السلطة، ترجمة لبنى الريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥، ص ٧٤.

تجديد سياق الرقمنة

إلى أين يمكن أن تقودنا الشفافية؟ هل هي غاية؟ باعتبار البحث عن الوسيلة التي يتم من خلالها الوقوف على الحقائق، عبر الكشف والتمييز. أم هي وسيلة يتم من خلالها تمييز معالم الصراع؟ ولعل السؤال الأكثر مباشرة هنا يتعلق بـ أسباب الصراع وما هي العوامل التي تساهم في ظهوره إلى الوجود وإذكائه؟ الكشف هنا يتم عبر ترصدات الوقوف على النسق، هذا الذي يحدد مسار العلاقة القائمة بين السياقات المختلفة، صراعات المصالح، وتوجهات الهيمنة السيطرة، حيث توسع الفجوة بين الحاكم والمحكوم، والفارق الهائل بين الغني والفقير، بين الوفرة والرفاهية تلك التي يقابلها الحرمان والعوز. وبالقدر الذي يبرز بداهة الصراع بوصفه نقيضا للاستقرار، فإن كم الخروقات التي يقع فيها أصحاب المصالح، والذين يتطلعون إلى المزيد من جني المكاسب عبر الهيمنة، يكون بمثابة الأداة والوسيلة التي يتم عبرها حفز النسق، وإبراز مجال الفروق، التي راح يظن أنها ثابتة ومستقرة وغير قابلة للتغيير. إنه الصراع الذي يدور بين نسقين معرفيين، الأول يقوم على فكرة الهيمنة وتوجيه مسار العلاقات نحو السيطرة، والثاني يقوم على تسيد فكرة الحرمان ومحاولة التطلع نحو الإفلات من براثن السيطرة والتحرر. فيما يستند محور الصراع بين الطرفين على فكرة الشرعية، تلك التي تكون دائما إلى جانب التقدم التقاني، باعتبار التطور الذي راح يشهده العالم في خضم الثورة المعلوماتية والتطور المعرفي. إنها الشروط المعاصرة التي تفرض مجمل العلاقات الجديدة القائمة على الاستثمار المعرفي، الذي يتم من خلاله فرز كل ما هو متناقض ومتكلس. إنها التعديلات التي تفرضها أحوال المعرفة الرقمية، تلك التي تساهم في تعزيز مسار الشفافية. شفافية تتم عبر الوسائل الاتصالية الحديثة، تلك التي تكون فيها الوسائل وقد تمثلت في الحاسوب والإنترنت والموبايل والستلايت، فيما يتسلل الوعي الجديد نحو ترسيم معالم العلاقات القائمة على أهمية الدور المناط بالفئة المتعلمة، تلك التي تمسك بزمام المبادرة وتوجيه قياد المستقبل. النائية بنفسها عن تراتب العلاقات التي كانت تنتهجها القوى التقليدية القديمة. إنه عصر الشفافية الذي يقوم على الجمع والتماهي بين التجربة والتقانة، والتوجه نحو قياد إنتاج

المعنى، النائي بنفسه عن كل أشكال السيطرة والهيمنة، المهم هنا أن مرتكزات القوة سيكون رهانها قائما على سياق التواصل المعرفي. إنها أخلاق الشفافية، تلك التي تكون مستندة إلى الروح الرقمية، فيما تكون الأدلجة في مكانها الأقصى والأبعد.[١٥٨]

الجوهر الإنساني للاتصال

في ظل الانتعاش لوسائل الاتصال الحديثة، يكون العالم وقد غدا تحت سطوة العلاقات الجديدة. حيث الفرز الجديد للتحالفات بين القوى، والتي صارت تتبدى في جملة من التوجهات الحائرة والقلقة، حول جدوى وحقيقة الأثر الذي يمكن تحدثه وسائل الاتصال الحديثة في تغيير العالم. ومنذ تسعينات القرن العشرين الذي شهد حضورا واسعا على صعيد التداول في البيئة العربية لأجهزة الاتصال الحديثة، والمؤثر بقي يدور في مجالات محددة ومقننة، حيث الخضوع المباشر لإرادة، سلطة التوجيه، إلى الحد الذي تحولت هذه الوسائل، إلى مصادر تتحكم بها القوى المسيطرة، على عقول الشباب، عبر التركيز على برامج الترفيه، حيث الرياضة والموسيقى. فيما عانت الثقافة والبرامج الجادة والعميقة من التهميش والنبذ في أحيان كثيرة، إلى الحد الذي راح يتم وصف تخصيص قناة ثقافية، بالعمل المتطلع نحو عزل قطاع الثقافة[١٥٩]، وجعل المثقفين يلوكون مواضيعهم فيما بينهم.

وقعت وسائل الاتصال تحت سيطرة المؤسسة الحاكمة، وراحت تعيش لحظات الخضوع الشامل والمطلق لإرادتها، إلى الحد الذي تم فيه الإطباق على المجمل من الموجهات المتطلعة نحو إخضاع مجال الواقع للنقد، هذا الأخير الذي تم تفريغه من محتواه، عبر تركيز فعالية (**التسامح القمعي**) وفقا للوصف الماركيوزي، حيث الانتقائية في أقصاها، عندما يتم اختيار أحد النجوم

[١٥٨] نورمان فاركلوف، تحليل الخطاب، ترجمة طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ٢٠٠٩، ص ١٤٤.

[١٥٩] يورغن هابرماس، العلم والتقنية كأيديولوجيا، ترجمة حسن صقر، دار الجمل، كولونيا ٢٠٠٣، ص ص ٩٠-٩١.

الذين تم تصنيعهم في مؤسسة السلطة، وفسح المجال له لتوجيه النقد المقنن والممنهج عبر بوابة السلطة. وهكذا بقيت سطوة التقنين والرقابة تفعل الأفاعيل وترسم معالم التوجهات العامة، حيث سلطة الرقيب التي راحت تطال البيئة الاتصالية برمتها. ولم يخرج عن هذا الطوق سوى بعض الأنشطة الصادرة عن جماعة المدونين، الذين تعرضوا للتضييق عبر الاعتقال والحبس وحجز المواقع المناوئة. بقيت النظرة غير الجادة حول دور المناط بوسائل الاتصال، تدور في فلك السخرية وعدم الاهتمام، حتى أن كتابا كبار من المنضوين في دائرة صنع القرار السياسي، لم يتورعوا عن توجيه التوصيفات الساخرة حول مواقع التواصل الاجتماعي، ليتم وضع مانشيت بقوام (**جمهورية الفيس بوك**)، بتهكم صارخ حول الأمل الذي تم عقده على محاولات التغيير الصادرة عن القوى الشبابية، تلك التي ترعرعت في كنف الثورة الاتصالية والمعلوماتية، التي طالبت بالتغيير.

راحت تجليات **الحوكمة Governance** تتبدى في المجمل من المفاصل السلطوية القائمة على الشرعية الأبوية التقليدية، فبعد أن كانت السيطرة والقياد والتوجيه، تدور في فلك النخبة العالمة والممسكة بقياد كل شيء، حيث الدائرة الضيقة، تلك التي تزعم الشرعية والتفوق والقدرة الفائقة والكاريزما والزعامة، لتتجلى المطالب الجديدة من قبل المحكومين بأهمية تبلور الممارسة السياسية وفقا لمنهج الإدارة الرشيدة، تلك التي يتم من خلالها تحديد المسافة بين الحاكم والمحكوم. حيث طرفا العلاقة، من دون الوقوع في ترسيم العلاقة الأحادية، تلك التي تجعل من السلطة غنيمة أو فرصة بيد الحاكم غير قابلة للمشاركة. لقد جاءت الثورة المعلوماتية لتعزز مسار الكشف، عبر بوابة **المصدر المفتوح**، حيث المعلومة العابرة للقومية، والتواصل العميق مع العالم من دون حواجز أو موانع، فيما بلغ هذا المصدر ذروته القصوى، عبر **الصدمة الويكيليكسية**، تلك التي جعلت من العالم في أشد حالاته انكشافا.

لقد تصدرت حروب الانترنت المشهد حتى كانت الرسائل النصية قد أطاحت بالرئيس الفلبيني جوزيف استرادا عام ٢٠٠١، بعد أن تداولت القوى الشعبية مسار التوجيه، لمسألة الفساد الذي علق فيه السيد الرئيس. إنه مسار العمل الجماعي والذي تمثل في توجه الجموع نحو

الاستخدام الأمثل لتلك الوسيلة الاتصالية، حتى بلغ عدد المشاركين في تلك الفعالية في أيامها الأولى ما يتجاوز المليون نسمة، فيما تحركت الحشود لتحتل المراكز الرئيسة من أحياء العاصمة مانيلا. لقد تمخض التنسيق للعمل والذي يسرته الوسائل الاتصالية في مد زخم العمل الاحتجاجي، حتى تبدى فاعلا ومؤثرا، مما فسح المجال واسعا نحو المساهمة المباشرة في العمل السياسي، بعيدا عن الأطر التقليدية التي حرصت المؤسسة السلطوية على إبرازها وتعميق أثرها.(١٦٠)

إنها العلاقة الجديدة التي تسير نحو تعزيز مسار المشاركة بين مجمل أطراف العلاقة التي تعتمد مسار الممارسة(**حاكما ومحكوما**)، والتطلع نحو ترصين وتعزيز مسار المؤسسة السلطوية، لا بوصفها عنفا، بقدر ما تحتويه من مقومات(**اتصالية، معرفية، ثروة**)، وتحديد مسار المسؤولية، من دون وصاية أو أبوية ملفقة. تلك هي حروب الانترنت والتي لم ينفع معها وسائل السلطة التقليدية، في المنع والحجب والرقابة والارتهان والاعتقال. فلم تعد وسائل القمع والعزل والقتل الصامت تجدي نفعا، في ظل عين الكاميرا التي راحت ترصد حركات وسكنات العالم. عالم إن أخطأته كاميرات الفضائيات، فلن يفلت من رقابة عدسة الموبايل أو الرسائل النصية القصيرة، أو المشاركة والمساهمة التقنية التي راحت تتبرع بها المؤسسات الاتصالية المعاصرة. ولنا في ذلك التوقف عند موقف موقع Google.

ذلك الذي تبدى في أحداث ثورة يناير المصرية، فلم يكن يصدر عن لحظة شهامة مجانية، بقدر ما كان تمثيلا للحظة ماكبثية بقوام **To be or not to be**، حيث الرهان على قوة الشبكة المعلوماتية في تغيير مسار العلاقات وصناعة اللحظة التاريخية، إنه الرهان على المستقبل، وهو الحضور المكثف لهذه القوة الزاحفة والمؤثرة، والتي لا يمكن لأية قوة أن تقف في طريق حركتها نحو الأمام. فكان الاستثمار الأمثل ولحظة الجزاء الأهم والأكثر توفيقا في مجمل تاريخها المهني. لقد كان التطلع نحو تقديم الدليل العميق والأصيل عبر تقديم الدعم اللوجستي والفني لحركة المحتجين، حتى كان الكشف عن التناقضات التي وقعت فيها السلطة الأبوية التي وضعت جل رهانها على

---

[160] رايموند وليامز، طرائق الحداثة، ترجمة فاروق عبد القادر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٩، ص ١٧٠.

حساب النفس الطويل والمراوغة والخطابية العالية، فيما كان المحتجون يقفون على أرضية المعلومة الراسخة والشديدة الإيحاء، حيث البساطة والسهولة واليسر، البعيد عن التعقيد، حيث الوضوح في أقصاه، المطالب كانت قد تلخصت في تغيير النظام وليس الوجوه، كل هذا تضافرت فيه مجمل الجهود البشرية، حيث الصمود واللقاء والحشد والتجمع والصبر الإنساني الحميم والصادق والعميق، والذي تمثل تنظيما عبر جهود شباب الإنترنت الذين وظفوا المعلومة والتقانة في خدمة المطالب الشعبية المتطلعة، نحو الخلاص من سطوة الفساد والهيمنة المطلقة للنخبة الحاكمة، والبحث عن المسار نحو ترسم معالم الحرية والمساواة والديمقراطية، حيث جزاء التغيير.

خارج نطاق السيطرة

ما هي الشعرة الرقيقة التي تفصل بين ما هو شرعي وغير شرعي؟ بمعنى متى يمكن اعتبار الفعالية التي قام بها موقع Wiki leaks خارج إطار الشرعية وتهديدا للأمن القومي، بعد فعالية التسريب للوثائق فائقة السرية. وكيف يمكن اعتبار موقف موقع Google ، حين ساهم في مجابهة قرار حجب خدمة الإنترنت الذي أقدمت عليه الحكومية المصرية السابقة. في الحساب الرسمي، يعد ما صدر عن الموقعين **(عملا غير قانوني، ولكن يحتاج إلى اتهام رسمي)** هذا بحسب توصيف Adam Segal باعتبار طبيعة الانترنت العابرة للقومية، حيث صعوبة السيطرة على تداول المعلومات، ومن هذا فإن طريقة التعاطي مع المعلومات تستدعي طريقة جديدة للتعامل، قوامها الوقوف على محاولة الإمساك بخيوط التوجيه، باعتبار حضورية السلطة. وما يستتبعه من تسريبات راحت تطال الوثائق السرية، أو قوة الحضور تلك التي راحت تطال قوة السلطة في عقر دارها، حيث القوة الزاحفة التي راحت تعبر عن نفسها عن طريق التقانة الخارجة عن السيطرة.[١٦١]

---

[161] Clay Shirky, The Political Power of Social Media, Foreign Affairs Magazine, published by the council on foreign relation, January- February 2011.

العالم منقسم اليوم بين أنصار العهد القديم حيث التوقف عند الأطر الشرعية التقليدية للسيطرة والتوجيه والانضباط، باعتبار المسعى نحو توفير الأمن والسلام الاجتماعي. والطرف المقابل الذي يستند إلى مفهوم حرية التعبير الذي يشمل المجمل من تفاصيل العلاقات حيث التطلع نحو بناء العلاقات الجديدة المستندة إلى المشاركة والانفتاح والشفافية وتحديد المسؤولية، عبر توكيد مسار الوصول إلى المعلومات من دون قيود أو اشتراطات يضعها هذا الطرف أو ذاك. وهكذا يقف العالم عند الثلاثية المقلقة والمربكة حول (**حرية التعبير، المسؤولية، التنظيم الحكومي**).

لقد جاءت التجارب المباشرة لتشير بجلاء إلى أحوال النجاح لوسائل الاتصال الجديد في بلوغ أهدافها، حيث نالت من راس هرم السلطة، بعد الكشف عن الفساد والتجاوز للصلاحيات، حتى صارت العلاقة تقوم على أهمية الإعلاء من المسؤولية الاجتماعية بوصفها وعيا، بعيدا عن المسؤولية السياسية والتي كانت حكرا على النخبة المهيمنة على أمور السلطة والحكومة. وهكذا باتت حرية التعبير حاضرة كعمد رئيس في تبديد الهيكل القديم الذي نصبه أصحاب المصالح بعد أن تزاوجت أهدافهم بين المال والسلطة، فكانت الخروقات التي كانت في السابق يتم السماع بها، على أنها إشاعات بحاجة إلى أدلة، ليأتي الفضاء التفاعلي الذي راح يمارس فعالية الكشف بالوثائق والمعلومة الدقيقة، حتى لم يعد أمام الناس سوى المسؤولية الثقافية. والتي راحت تنتج قضايا ثقافية شديدة التعقيد، تلك التي تتعلق بطريقة التمثل representation العميق والأصيل لمفاهيم المواطنة والحرية والديمقراطية. والواقع أن الفسحة تلك من التداول الحر للمعلوماتية، راحت تشير إلى هذا الشغف الملفت لطرح موضوعات الهوية الوطنية ورصد الرهانات والتصورات التي تميز مجتمعا ما، وتحدد مجال التجربة والممارسة الاجتماعية، ودور الفاعل الاجتماعي فيه، هذا التصور راح يتخذ المسار العالمي، بعد أن أخذت التفاعلات المحلية مداها الأرحب والأوسع. فالعالم بات يراقب التفاصيل. فلم يعد ما يجري في تونس يتعلق بنطاق أو إقليم أو مجال محدد، القضية هنا ليست عربية أم أفريقية أم مغاربية.إنها قضية إنسانية بامتياز، رمزيتها راح يتم تكثيفها في شخص البائع المتجول البسيط (**البوعزيزي**)، حيث الفقر الذي راح يكشف عن الفساد والإثراء الفاحش للسلطة على حساب المواطنين. الرمزية الإنسانية هنا تتخذ حضورا لافتا حينما

يعمد فريق برشلونة إلى الوقوف دقيقة صمت على ضحايا ثورة ٢٥ يناير المصرية. حيث المشاركة والتفاعل العميق مع العالم، الذي صار واقعيا (**قرية صغيرة**)، يعرف بعضه البعض عن طريق مواقع التفاعل الاجتماعي، حيث الصداقات وتبادل الأخبار والصور وتبادل التهنئة بأعياد الميلاد.

هكذا تتبدى ملامح العالم الجديد حيث العولمة والإنترنت والاتصال المابعد كولونيالي الذي راح يطال مصادر القوة التقليدية، حيث الاستناد إلى قوة التعبير المفصحة عن التفاعلات التي تجري على صعيد الواقع، من دون السقوط في وهدة المضمر أو المسكوت عنه. إنها الثقافة الجديدة القائمة على تقديم المعرفية والشفافية، حيث صناعة الوعي التاريخي الخالي من التشكك والخواف من هذا المجهول الذي لا ينجم عنه سوى التردد والوهن في المواقف. إنها ثقافة التجربة، تلك التي تحوز على الصح والخطأ، القوة والحماس والفتور والوهن. فلم يعد القوي هو الذي يمسك عادة بقياد التاريخ، بقدر ما صار التوقف عند الأهمية القصوى للممارسة، حيث المستقبل الذي يزخر بكل ما هو داخلي وواقعي ومتفاعل، إنه التاريخ الذي يتم إنتاجه من الداخل وليس النظرة الفوقية التي تكتفي بالسطوح وكل ما هو خارجي.(١٦٢) تاريخ صنعه المحتجون الذين واجهوا القوة المفرطة للسلطة واستطاعوا صناعة التغيير، لكن هذا التغيير لا يتم تجييره لصالح فئة أو قوة طالعة بعينها، بقدر ما يكون الاستناد إلى القوتين (**المجتمع- التاريخ**)(١٦٣)، حيث الأصل الذي يعلي من الحضور الفاعل للممارسة في تشكيل المجمل من السلوك والعلاقات والرهانات والتحديات التي تعن على الواقع. إنه المدخل الشامل الذي يدين بالفضل للجهد الإنساني المشترك الذي تحققه آلية الاتصال التقاني والتواصل البشري والتفاعل الحي والعميق، الساعي نحو إبراز مجال الفهم لاتجاهات الميل الثقافي والاجتماعي والسياسي، ومحاولة تحديد اتجاه الأهداف، انطلاقا من التمييز في صلب التأثيرات، ولعل السؤال المباشر هنا يتعلق بـ رصد المكونات التي ميزت تسريبات ويكيليكس، أو ثورة الياسمين في تونس، أو ٢٥ يناير في مصر.

---

[162] Wikileaks and Challenges to Internet Freedom, Interviewee: Adam Segal, Interviewer: Tom Johunson, Council on Foreign Relations, December. 17, 2010.

[١٦٣] كورنيليوس كاستورياديس، تأسيس المجتمع تخيليا، ترجمة ماهر الشريف، دار المدى، دمشق ٢٠٠٣، ص ٤٧.

لا شك أنها حقبة حروب النت، لكن هذا لا يلغي أبدا خصوصية المكون الثقافي لكل منها، وهذا ما يمكن ترصده من خلال أوضاع التغيرات التي راحت تنال كل تجربة، لاسيما إذا ما أخذت تلك التجربة انطلاقا من السياق العام الذي تعمل فيه. فعلى الرغم من الصدمة الرسمية التي أحدثها الحادث الويكيليكسي، إلا أن ردة الفعل بقيت تدور في الفلك القانوني، حتى أن Julian Assange غدا كالنجم التلفزيوني، حيث يتبدى في أشد عافيته وإشراقه، مدافعا ومنافحا عن موقفه دون مواربة أو خشية حيث سياق قوة القانون. أما ثورة الياسمين التونسية فقد أبرزت تزاحم الشباب التونسي في ركوب البحر سعيا للهجرة غير الشرعية إلى السواحل الإيطالية. فهل يمكن اختزال التجربة التونسية بهذا الحدث؟! حيث سياق الغنيمة والفرصة السانحة. لكن بالمقابل تطلع الشباب التونسي لتوجيه رمزية الاحتفال بعيد الحب الموافق ١٤ فبراير، إلى عيد حب الوطن والاحتفاء بالثورة الشعبية، حيث الفخر بانجاز الثورة والاعتزاز بها. فالمعنى لا يمكن الوقوف عليه إلا من خلال التجربة المباشرة، سعيا إلى الوثوقية. فالثقافة ما هي إلا علاقات ونسق أفعال وممارسة. وهكذا اجترحت الثورة مفاهيم وأخلاقيات جديدة بقوام الشعارات التي راح الشباب المصري يتداولها على الـ Face book، عبر الحث على المشاركة في بناء الوطن الجديد القائم على المسؤولية والمشاركة والحضور الفاعل. إنها المواطنة تلك التي راحت تعبر عن نفسها، بعيدا عن تقمصات الشرعية الثورية التي أنشبت أظفارها على الواقع العربي، بعد الحرب العالمية الثانية، وبروز صورة الزعيم الملهم والقائد العظيم. إنها أخلاق الشفافية الساعية إلى مشاركة جميع المواطنين، وتوجه أولئك جميعا من خلال الفعالية الديمقراطية نحو انتخاب موظف حكومي، يقوم بمهام منصب الرئاسة والوزارة وتولي المسؤولية، من دون الوقوع في دائرة الدعاء والهتاف له. فالوطن هو الأبقى وهو الأهم وهو الذي يستحق الثناء والدعاء له.

المبحث الثالث

العرب وتحدي المعلوماتية

الإشكالية التي يحاول هذا المبحث رصدها، تتمثل في موقع العرب من حضارة الموجة الثالثة "الثورة التكنولوجية"، باعتبار ان المراحل الحضارية التي سارت فيها البشرية وعبر تاريخها الطويل، قد شهدت الانتقال من الحضارة الزراعية فالصناعة التي ظهرت في أعقاب نهاية العصور الوسطى في أوربا. فالحضارة الحالية التي جهد فيها المحللون والمنظرون في وضع التوصيفات، ونحت المصطلحات الخاصة بها. فهي تارة "حضارة الموجة الثالثة" حسب تعبير عالم المستقبليات الامريكي، ألفن تولفر. فيما يعد زبيغينو بريجنسكي بوصفها بالحضارة التكنترونية، وهو إصطلاح للتعبير عن المزاوجة بين التقانة والإلكترونات.

وباعتبار المساهمة الإنسانية الواسعة والشاملة في الإنجاز الحضاري، فان التوقف عند توصيف محدد ومنمط، يعد إخلالاً شديد التأثير في محاولات تحديد المؤشرات الناضجة والدقيقة لترسم ملامح النمو والتقدم في تاريخ العالم. إذ لايمكن اقتصار النمو على مركز وإلغاء دور القوى الأخرى في حفز فعاليات التطور. ليتم الارتكان الى وضع المحددات والأنساق المرتبطة بفعالية المركز وتبعية الاطراف له [١٦٤] والتي تتخذ بالعادة فعل الشرط الإجرائي.

مامن شك في أن التكنولوجيا والثورة العلمية قد ساهمت والى حد بعيد في إرساء معالم جديدة للعالم. بل أنها حددت مسارات واتجاهات لم يكن التفكير فيها معقولاً، قبل أن تبرز عن محتواها وأنساقها ومعانيها ورهاناتها. وبفعل الاحتكام الى حالة التفاعل العضوي بين المجتمع البشري. تبرز أهمية الاتصال الإنساني، وقسط الأمم والشعوب للمساهمة في هذه الحضارة [١٦٥]. والواقع أن الأحداث التاريخية كانت قد أوضحت عمق الاتجاه من لدن العرب

---

[١٦٤] فؤاد مرسي، الرأسمالية تجدد نفسها، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٠، ص٨٢.

[١٦٥] محمد عبد الهادي دكلة، الأمن الغذائي العربي والتنمية الزراعية، اتحاد مجلس البحث العلمي، بغداد ١٩٨٦، ص٤١.

للنهل من تجربة التحديث، ومحاولات التطلع نحو إنجاز مشروع نهضوي، كانت قد تجلت بواكيره في مشروع محمد علي باشا، الذي حرص على تكثيف الاتصال مع الغرب وإرسال البعثات التعليمية للحصول على الكفاءات والطاقات الوطنية القادرة على إدارة المشروع الوطني، وفق الرؤى والتصورات التحد يثية. وعلى الرغم من أن هذا الاتجاه كان قد برز في مصر بزمن يتجاوز العقد من السنين عن اليابان. إلا أن الملفت للنظر، كان [١٦٦] قد برز في هذا البون الشاسع بين التجربتين اليابانية والمصرية.

لم يأل العرب جهداً في تكثيف الاتصال والاتجاه نحو تحديث ونقل التجارب، إلا أن الإحباط والفشل كان مصيرها. ولم يتوقف العرب عن الانخراط في تجليات حضارة الموجة الثالثة، والتطلع الشديد نحو نقل التكنولوجيا وأنماط المعرفة العلمية، إلا أن الواقع كان يشير الى تراجع واضح وحاد في معدلات النمو الاقتصادي، بل أن التبعية واختلال الميزان التجاري والتدهور البيئي، كانت السمات الملازمة لجميع الفعاليات الصادرة في جميع أقطار الوطن العربي. ولم يتسارع أو ينمو سوى الوتيرة المتصاعدة لعمليات هدم المحتوى الجامح لمنظومة القيم والعادات والعلاقات الاجتماعية، وتراجع مفهوم الأصالة الاجتماعية. ولعل لهذه الآثار السلبية، يكمن الملمح المتداول في بعض الأوساط الاجتماعية [١٦٧] حول الخشية والحذر والخوف من التكنولوجيا والتي غدت مرادفاً للتراجع الاجتماعي وظهور القيم المتداعية.

السؤال الأهم في كل هذا يبرز حول التطور والانتقال المطرد الذي ترفل فيه البلدان المتقدمة. إزاء الهوة والفجوة التي تعاني منها الأقطار العربية على الرغم، من الاستيراد الواسع بل والمبالغ فيه لهذه التقانة، فأين الخلل؟ هل يكمن في التطلع نحو عملية "النقل" دون العناية "بالتحويل"، أم أن الأمر برمته يتعلق بالاستهلاك والتلقي. ومن هذه العلاقة الشائكة القائمة على التداخل الفج في استيعاب مدلولات ومكنونات مفهوم الثورة العلمية والتكنولوجية، لابد من التطلع وبموجهات راسخة الى تحديد العوالق المعرفية والكشف بدقة من خلال مسبار علمي واضح المعالم، نحو جملة من الملامح ذات الأثر البارز في رسم هذه العلاقة المرتبطة،

---

[١٦٦] محمد رشيد الفيل، هجرة الكفاءات العلمية العربية ودور مجلس التعاون في الإفادة منها – حوليات كلية الاداب، جامعة الكويت، الكويت ١٩٨٨، ص٣٨.

[١٦٧] موريس غورينيه، العالم الثالث ثلاثة أرباع البشرية، لمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١١٩٨٢، ص٦٣.

استنادا الى الإقرار الصريح والعلني بعدم القدرة على استيعاب فعالية نقل التكنولوجيا وأهميتها في تحقيق التنمية داخل الوطن العربي. والنقص [١٦٨] الواضح في الكفاءات والخبرات القادرة للتعامل مع هذه التقانة، فيما يحتل الإهمال لمراكز البحث العلمي واللاأبالية والتسيب والإهمال والشح في مصادر التمويل الذاتي، كمواطن خلل لا يمكن التغاضي عنها أو إغفالها. ولعل التساؤل الحار والسخين يدور في فلك، لماذا ينجح العلماء العرب في الوصول الى المراكز العلمية المرموقة في أرقى مراكز البحوث العالمية، والحصول على أكبر الجوائز العلمية في العالم. ويعجزون عن أداء بحث تمهيدي داخل الوطن العربي.

تجليات الفرادة

ساهمت الثورة العلمية في تحديد معالم جديدة للنظام الاقتصادي، وصار لها الدور الفاعل للوصل بين مدخلاته ومخرجاته. هذا بالإضافة الى القدرة الواسعة في تغيير مادة التجارة، حيث التدخل في طبيعة السلع والخدمات، وهكذا توفرت القدرة للسيطرة على مسار المدفوعات الدولية. والهيمنة على تجارة المواد الأولية والتبادل [١٦٩] السلعي بصورة عامة. فالتطور التكنولوجي كان قد أرسى معادل جديد في مجال التجارة الدولية، حيث باتت بعض الدول كاليابان مثلاً في إضافة تقانتها على المواد الأولية التي تقوم باستيرادها أصلاً واعادة تصديرها الى ذات المناشئ بقيمة عالية. وهكذا حدثت النقلة الهامة في عوامل الإنتاج وهيكل النمو الصناعي.

وبدخول التقانة في مجال الصناعة وتنامي وتطور وسائل الطاقة والخامات، فان معدلات التجارة الدولية قد شهدت نمواً مضطرداً. لاسيما وأن مجالات التخصص الصناعي قد تبلورت اتجاهاتها في الدول الصناعية المتقدمة. فيما تم الاعتماد على الدول النامية كمراكز للهياكل الصناعية، حيث اليد العاملة الرخيصة، وزيادة الطلب فيها على السلع. واذا ما كانت الدول النامية تعتمد في صادراتها على المواد الخام، فان التطور العلمي، كان قد أرسى معالجات جديدة في التصنيع قد حدد وبشكل واضح مسار الطلب على هذه المواد، بحكم منظومة

[١٦٨] زيد الحافظ، استيعاب العمل في القطاع الصناعي، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨١، ص٢١.

[١٦٩] جورج قرم، التبعية الاقتصادية، دار الطليعة، بيروت ٩٨٦، ص٢٦.

الابتكار والاستبدال والعناية بالحد والتقليل من النفايات الصناعية [١٧٠]. وهكذا ظهرت البدائل الصناعية مثل؛ الألياف، الحرير، المطاط، البلاستك، اللدائن ليظهر تأثير كل هذا في صادرات الدول النامية من المواد الخام.

حضارة المعلوماتية

انه التحول العام والشامل في هيكلية الحضور والتجلي للمعرفة السابقة بمنظومة الاقتصاد الدولي. وهو الاختزال المعرفي المنضوي في شروط جديدة قوامها المعلوماتية حيث الثقافة الرقمية والاقتصاد الرمزي والاتصال المكثف بين أطراف العالم، والصراع والتنافس من أجل تقليص التكلفة والعمل على احتكار السوق. انه الانحسار الواضح للصناعات التقليدية، والتغييب لأهمية الخامات الطبيعية، والبحث الجاد والدؤوب عن البدائل نحو استثمار المعرفة للسيطرة على الاستثمارات [١٧١]، وهيمنة الشركات العابرة للقوميات ذات الرساميل العملاقة والخرافية. واذا ما كانت الرأسمالية قد عبرت عن نفسها بالإمبراطوريات التقليدية، حيث السيطرة المباشرة على بعض البلدان والإفادة من فائض القيمة، فأن الأمر بات شديد الاختلاف في حضور التفاعل الحر والحاذق الذي تنشده الشركات العابرة للقوميات، حيث العلاقات المتناسلة ذات الحضور المتنوع والمتعدد إن كان في مجال الإنتاج أو المال أو المصاريف وعلى نطاق عالمي.

ولم يتوقف التأثير في المجال الاقتصادي، بل أن الأداء السياسي، صار يتخذ أكثر الأشكال مباشرة، تحت دواعي الحفاظ على المصالح الخاصة، والارتباطات الاقتصادية الواسعة والمتعددة. أنه الثالوث الذي بات يتحكم بمصير العالم الاقتصادي حيث؛ التقانة، التحويل، التسويق. وعلى هذا قيض لهذه الشركات من السيطرة على النسبة الأهم والأوسع من حجم الإنتاج العالمي. فيما تحتشد الأصول السائلة لديها [١٧٢]، بما قيمته ثلاثة أضعاف إحتياطي العالم من العملات والذهب. وتقدر معدلات المبيعات السنوية لبعض هذه الشركات، بما يتجاوز الناتج القومي لمجموعة من الدول.

---

[١٧٠] عبد الله عبد الدايم، الثورة التكنولوجية في التربية العربية، دار العلم للملايين، بيروت ٩٨١، ص١٠٦.

[١٧١] عبد المنعم سعيد، العرب ومستقبل الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٧، ص٦١.

[١٧٢] جاك بران، نقل الكنولوجيا، ترجمة محمد البوجي، مطابع الدوحة، الدوحة ١٩٨٧، ص٢٨.

قيض لهذه الشركات من السيطرة على مقاليد التطور العلمي، حتى فرضت هيمنتها على واقع الصناعات الإلكترونية والعسكرية والكيماوية والنووية، وهكذا صار لها القدرة لفرض شروطها على مجمل أنواع الانسياب المتحرك من بلدان الشمال المتقدمة الى بلدان الجنوب النامية. والواقع أن هذا الانسياب لم يتوقف عند نمط معين أو محدد، بل اتخذ تجليات متعددة. فهو يتخذ شكل التطوير للمعدات المستعملة في البلدان النامية، أو منح حقوق الامتياز وإنشاء فروع لهذه الشركات، حيث يتم في إطار ذلك توسيع العمل في مجال نطاق الصناعات التجميعية، الخاضعة وبشكل مباشر للإشراف الفني والإداري من قبل الشركة الام. وقد تعمد هذه الشركات العملاقة الى إقامة مشاريع مشتركة مع بعض البلدان[١٧٣]، تكون لها حق الرعاية والحصانة والشروط الجائرة والمتعسفة، بل وتتخذ العلاقة حداً من الإهدار للحقوق والسيادة الوطنية لتلك البلدان. أما النموذج الأكثر حضوراً فيتجلى في مجال الاستثمار المباشر والعمل على إقامة الفروع أو تقديم المساعدات والمشورة الفنية، تحت دعوى النمو الاقتصادي ليكون التغلغل في مجالات ومرافق مختلفة، وبالتالي إحكام الهيمنة وإطباق طوق التبعية حول الدول النامية.

البحث عن الحل السحري

يدخل في روع البعض من المتفائلين، بأن الحلول لتراكم المشاكل الاقتصادية، طريقة واضح ويسير، وهو يتمثل وبتبسيط شديد بأهمية التطلع الواثق والأكيد نحو التكنولوجيا الحديثة. باعتبار القفزات الهائلة التي تحققها اقتصاديات عالم الشمال في مجال النمو والازدهار المتناغم في جميع المجالات والقطاعات، لكن واقع التجربة سرعان ما يكشف عن خطل هذا التطور[١٧٤]. باعتبار القصور الدال في معالم الترسمية المعرفية لطبيعة نشوء وتوجهات الفنون الإنتاجية لهذه التكنولوجيا، فالأصل في ظهورها ونموها إنما يعود الى تفاعلات رأس المال فيها، في حين لا يصدق هذا الأمر على البلدان النامية، واذا ما برزت معالم

---

[١٧٣] سمير أمين، التطور اللامتكافئ – دراسة في التشكيلات الاجتماعية للرأسمالية المحيطية، ترجمة برهان غليون، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٦، ص٢٢.

[١٧٤] انطوان زحلان، حيازة القدرة التكنولوجية – دراسة عن المؤسسات الاستشارية ومؤسسات لمقاولات العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٠، ص٩١.

الارتفاع في معدلات النمو فانه بالمقابل سيبرز مشكلة بنيوية، تتعلق في ارتفاع معدلات البطالة داخل تلك البلدان، والتي تتميز أصلاً بالارتفاع المطرد في نسبة السكان.

ولعل تجارب الانفتاح الاقتصادي، والتوجه المكثف نحو مشاريع الخصخصة، كانت قد أشارت وبشكل لايرقى إليه الشك في تفاقم الأزمات الاقتصادية البلدان النامية، بحيث عانت من ارتفاع أسعار استيراد السلع وأثقلت بالشروط التي قامت بتحديدها تلك الشركات سلفاً. بل أن الخطر على استيراد التقانة من مناشئ أخرى كأن يواجه ببنود غاية في العسف[١٧٥]. ولايقف الأمر عند هذا الحد، بل أفصحت تجارب الاستثمار المباشر من قبل الشركات على تجاوز الخبرات المحلية، والعمل على إلغاء أي دور للكفاءات من خارج نطاق الشركة للمساهمة، بل أن السيطرة تبرز معالمها في جميع مراحل المشروع وقطاعاته الفنية والإدارية، واذا ماترك هامش من نوع ما، فإنما يتعلق بفسحة ضئيلة لمساهمة اليد العاملة غير الماهرة ذات الاجور الواطئة [١٧٦]

وقد كشفت تجارب الاستثمار عن الآثار السلبية التي تركتها على قوة العمل المحلي وفرض حالة الاقتصاد المزدوج، حيث التركيز على قطاع محدد وإهمال القطاعات الأخرى، مما يخلق حالة من عدم التوازن في الاقتصاد القومي. بل أن الازدواجية تبلغ مداها داخل الاقتصاد الواحد، حين تتم المقارنة بين قطاع بالغ الحداثة مقبل على التقانة بجميع تفصيلاتها، وقطاع أخر يعاني من التخلف والنمو البطئ.

أحلام التنمية العربية

السعي نحو تسريع معدلات التنمية ذلك جل ما تحلم به الأقطار العربية، والحل هو في غاية المباشرة، الانكباب وبحماس وغبطة نحو استيراد التكنولوجيا ونقلها من العالم المتقدم الذي يزخر بها الى الحد الذي تفيض عن حاجاته ومتطلباته. وهكذا توجهت نحو استيراد السلع الهندسية والمصانع والمعدات والآلات. وتطلعت أخرى نحو شراء مصانع جاهزة ذات تكاليف بالغة الارتفاع، كان مجالها قد تركز في صناعة؛ البيتروكيمياويات، الحديد والصلب، الإسمنت. وعلى هذا الأساس تحصلت الشركات المنفذة على مكانة تفضيلية، تمثلت في النقل الجاهز

[١٧٥] بروس نوسباوم، العالم سنة ٢٠٠٠، ترجمة مجيد ياسين، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٧، ص٧١.

[١٧٦] إبراهيم عويس، قيام التبعية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٩، ص٨٢.

الذي لايعنى بالظروف السائدة داخل تلك الأقطار [١٧٧]، والتغاضي عن المواد الأولية المتوافرة فيها، بل أن هاجس الارباح، كان يدعوها الى ممارسة المزيد من التطلع نحو مضاعفة الأرباح، إن كان في مجال الاعتماد على المادة الأولية المستوردة أو الكفاءات الفنية.

حاولت بعض الأقطار العربية اعتماد أسلوب الاستثمار المشترك، والذي يقوم على الاتفاق مع شركة أجنبية لتقديم الخبرة والإدارة وجزء من رأس المال، في حين تناط بالحكومة مسؤولية توفير النصيب الأكبر من رأس المال والمواد الخام. لكن هذا الأسلوب كان يعاني من الاصطدام برغبات الشركات الأجنبية، والتي تحاول التدخل في مجال صافي المبيعات، واعتمادها على النسبة المضاعفة في حال وصول الإنتاج الى معدل محدد. واذا ما كانت مشاريع الاستثمار المشترك، قد ساهمت في جذب العمالة الوطنية بحكم ارتفاع معدلات الاجور فيها، فإنها بالمقابل ساهمت والى حد بعيد في خلخلة القطاعات الصناعية الأخرى، باعتبار افتقارها من اليد العاملة فيها [١٧٨]. وهناك العديد من أساليب نقل التكنولوجيا والمهارات الفنية والمتعلقة باتفاقيات التشغيل والإدارة والتدريب، أو اتفاقيات التعاون الفني لاسيما خلال حقبة وجود المعسكر الاشتراكي والاتفاقيات الثنائية للصداقة المعقودة بين الاتحاد السوفيتي السبق وبعض الأقطار العربية. ويبرز أسلوب أخر يتمثل في أضيق الحدود، باعتبار أن الشركات المستثمرة غايتها الرئيسية تكمن في زيادة العائدات والسيطرة على أسواق جديدة[١٧٩].

صدمة التحديث

إن التحولات الواسعة التي شهدتها الأقطار العربية في مجال نقل التكنولوجيا، لم تخل من إحداث آثار إجتماعية، كان لها أبلغ الأثر في تعميق الهوة والفاصل الاجتماعي بين الفئات الرئيسية فيه. والأمر لم يكن ليبتعد عن إبراز فئات متطلعة بكل شغف نحو تقليد النموذج الغربي ومحاكاته والانغماس الشديد في تجلياته ومدركاته، بل والإعلان الصريح عن الإيمان العميق بما يمكن أن يقدمه من حلول للواقع المتخلف الذي ترزح تحت ظلاله الأقطار العربية. وباعتبار عدم تكافؤ الفرص كان في مجال التعليم أو الاتجاه نحو اكتساب المهارة

[١٧٧] ميدوز واخرون، حدود النمو، ترجمة سعد الاربل، الدار الجماهيرية، مصراتة ١٩٨٦، ص٣١.

[١٧٨] باسل البستاني، العرب والتحدي التكنولوجي المعاصر، مجلة آفاق عربية، مايس ١٩٩٢، بغداد ص٣٧.

[١٧٩] حسام محمد عيسى، نقل التكنولوجيا – تحديث أم تبعية، مجلة المنار، تموز ١٩٨٧، بيروت، ص٦١.

والتأهيل للتعامل مع التقانة الحديثة. فأن هذا الواقع كان قد ساهم في تبلور اتجاهات ذات طبيعة صراعية داخل النسيج الاجتماعي الواحد. فئة تحصلت على التعليم وقيض لها أن تستوعب مكنونات المعرفة الحديثة وفئة أخرى واسعة غير قادرة على المواكبة باعتبار النقص في التعليم وسيادة الأمية، والانغلاق الاجتماعي وسيادة" [(١٨٠)] التفكير التقليدي.

والواقع أن الأمر لايمكن حصره بالجانب المعرفي والثقافي، بل يتخطاه الى الأكثر مباشرة، والمتمثل في قلة الرأسمال الوطني وتركزه في فئة صغيرة، تمكنت من الحصول على التقانة عالية التكاليف، لتمارس من خلالها هيمنتها وسطوتها على جموع المواطنين. وقد برز هذا الواقع. في اتجاه رجال النخبة لاحتكار استيراد مضخات المياه أو الجرارات الزراعية في مجال الإنتاج الزراعي. أو تطلع البعض من رجال المال نحو إنشاء المصانع الخاصة، ذات الإنتاجية الواطئة مع تحميل العمال مشاق الإنتاج، وهكذا تفاقمت الفجوة، بين شريحة تملك التكنولوجيا الواطئة الكفاءة، باعتبار تكلفتها. وفئات واسعة من الفلاحين والعمال تتطلع للحصول على قوت يومها، تحت متطلبات [(١٨١)] ورغبات أصحاب رأس المال.

وفي حمى التطلع نحو الحداثة، توجهت الأقطار العربية نحو العناية بالتصنيع، مع إهمال للقطاع الزراعي. وكأن التكنولوجيا هي حكر على قطاع الصناعة. وتحت هذا التطور المجزوء، تبدت ملامح الخلل الاجتماعي، حيث غدا الريف مناطق طرد، فيما أضحت المدن تعج بالأعداد الواسعة من الفلاحين المهاجرين، الباحثين عن فرص عمل رخيصة، حيث تنعدم الخبرة والمهارة. وهكذا برزت الاختلالات الاجتماعية، وتفاقمت الأوضاع الاجتماعية، لينجم عنها؛ انخفاض الاجور والبطالة والعوز والفقر، وانتشار مدن الصفيح والتي أبرزت مواطن الامية وانتشار الجهل وجميع [(١٨٢)] مظاهر التخلف الاجتماعي.

إزاء حمى التطلع نحو التكنولوجيا، برزت عادات اجتماعية جديدة داخل بنية المجتمع العربي، تمثلت في التطلع الشديد نحو الاستهلاك، بل أن هذا الأمر تجاوز حدود التسوق المباشر وأضحى مظهراً يتجلى في المضمون الثقافي للمجتمع العربي. فالاستهلاك والتلقي

---

[١٨٠] الياس توما، التطورات الاقتصادية والسياسية في الوطن العربي، ترجمة عبد الوهاب الأمين، دار السلاسل، لامكان ١٩٨٧، ص١٨.

[١٨١] حسام محمد عيسى، نقل التكنولوجيا – دراسة في الآليات القانونية للتبعية الدولية، دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٨٧، ص١٨.

[١٨٢] محمد السيد سعيد، الشركات عابرة القومية ومستقبل الظاهرة القومية، عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٦، ص٧٣.

غدا من المكونات السيكولوجية العربية، حيث الانبهار بكل ما هو مستورد، والرفض المسبق لكل ما هو محلي. بل أن الأمر تعدى كل حد، حين غدا المستهلك للبضاعة المحلية يعاني من نظرات الازدراء والتجاهل داخل وسطه الاجتماعي(١٨٣). واذا كان التسوق يعني أصلاً غاية متمثلة في محاولة إشباع حاجة فان الأمر قد انقلب حتى "غدا التسوق غاية".

لم يتوقف الأمر على الصعيد الاجتماعي، بل أن آثار التكنولوجيا والعبث بها من دون تعقل أو وعي قد ساهم في إبراز حالة الاستخدام الجائر للبيئة الطبيعية، التي باتت تعاني من التلوث الشديد، حتى أن الخطر بات يهدد الثروات الطبيعية المحلية. فتلوث المياه صارت مشكلة عصية الحل، وباتت الأراضي الزراعية تعاني من الاستخدام الكثيف وغير العقلاني للمبيدات والمخصبات الكيماوية. فيما تضاءلت نسبة الأوكسجين في أغلب المدن العربية حيث الانتشار غير المنطقي للمصانع. وغدت أغلب الأحياء عبارة عن ورش صغيرة قوامها، الإنتاج الرث والفضلات المهددة للبيئة والإنسان.

---

[١٨٣] محمد جابر الأنصاري، العالم والعرب سنة ٢٠٠٠، دار الآداب، بيروت ١٩٨٨، ص٥٦.

الفصل الثالث

وسائل الإعلام الجديد

المبحث الأول

الخطاب الإعلامي في ظل الواقع الافتراضي الجديد

(اللغة التي لا تملك بعدا حواريا، هي لغة سلطوية) باختين[١٨٤]

مقدمة القراءة

تحليل الخطاب حقل معرفي شديد الخصوبة، ظهرت بواكير الاشتغال فيه، منذ بواكير ستينات القرن العشرين في بريطانيا. وراح يتوسع وينتشر في الفضاء الأكاديمي والثقافي بقوة ورسوخ، بناء على التجذير والتخصيب الذي جاء عبر سلسلة من العطاء والجهد الباذخ، الذي قدمته ثلّة من المفكرين البارزين في الغرب. تأصيل جاء متوافقا مع السياق الفكري المستند إلى الحرية والديموقراطية وترسيخ ثقافة الحوار، والاستثمار العميق للمجمل من التجربة التاريخية التي عاشها الغرب في أعقاب حربين عالميتين، جعلت من هذا العالم على شفا الانهيار والانقراض. ومن هنا جاءت الأفكار في زخم متلاحق من التغيّر والتحوّل، بقوام البحث عن المعنى المفسّر لوقائع الحياة، بعيدا عن الثابت والراسخ من الأفكار. تلت التي تزعم تملّك الحقيقة المطلقة. جاء التحليل الثقافي ليساهم في بلورة الأفكار والنظريات الساعية نحو تفسير الواقع، والبحث عن الطريقة التي يتم من خلالها الولوج في صميم المشكلات، في قراءة معمّقة لقضايا الإنسان المعاصر في؛ التاريخ واللغة والهوية والوجود والصيرورة والكينونة، سعيا نحو بناء نموذج نظري قادر على مواجهة أزمات المجتمع المعاصر. قراءة طالما توّجهت نحو تفحص مسيرة العلاقات الإنسانية، بحثا نحو كشف

[184] Andy Lock, Tom Strong (2010) , Social Constructionism: Sources and Stirrings in Theory and Practice , Cambridge University Press , p 99.

مسار الالتباس الذي أفرزته تفاعلات الثورة المعلوماتية والاتصالية والتقانية. واللهاث المحموم الذي يتفاعل بين ظهراني العالم، حيث العولمة وتحولات السياسة والأيديولوجيا والهيمنة واقتصاد السوق والمنافسة وأسعار الصرف العالمية والتضخم المالي وتفشي ثقافة الاستهلاك، والبطالة وصراع الشمال والجنوب وقضايا حقوق الإنسان والشرعية الدولية والهجرة.

تحليل الخطاب رؤى وتصورات ونظريات مختلفة، تتوحد حول مفهوم الثقافة بوصفها علامة تحتمل المزيد من التأويل والتفسير. والذي يتأتى بناء على قراءة نسق الأفعال. ومن هذا المفهوم فإن تحليل الخطاب يوّسع مجال الدرس ويتوجه نحو التحرر من المقولات الثابتة والمواقف المسبقة. إلا أن المعين النظري الرئيس الذي استند إليه قام على مقولات النظرية الماركسية حول نسق الفعل، والطروحات الفكرية التي تبنتها مقولات علم النفس الاجتماعي حول المعتقدات والسلوك الجمعي والعلاقات السائدة ضمن المجموعة البشرية. توكيد يترصد الأفكار وتجلياتها والتحولات التي تنال منها. لاسيما أحوال التغير الكبير الذي شهده العالم في أواخر ثمانينات القرن العشرين، وضمور الأنظمة الشمولية في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي والنجاح الذي تحقق للنظام الرأسمالي، الذي خرج من صراع الثنائية القطبية وتجليات الحرب الباردة، ليتصدر المشهد العالمي بالقطبية الأحادية النازعة نحو الدمقرطة والشرعية الدولية وحقوق الإنسان والعولمة. حيث الشعارات في أجلى توظيفها فيما الواقع يشير إلى تكثيف بالغ وسعي مبرمج ومكثقف نحو توطيد أواصر الهيمنة والسطوة والسيطرة وتعزيز المصالح. ومن هذا الواقع كان المسعى من قبل الدارسين نحو قراءة تلك الظواهر التي ألمت بالعالم، وراحت تشير إلى المزيد من القضايا والمشغلات العالقة بمنهجيات ورؤى سياسية واقتصادية. إلا أن المشكلات التي رافقت تلك التحولات كانت من التعقيد بحيث أفرزت أهمية التطلع نحو تبني مناهج ترقى إلى مستوى الحدث الذي راح يمور به العالم. حتى كانت تطبيقات منهج تحليل الخطاب التي أتاحت المزيد من المرونة المنهجية، لاسيما وأن المعين النظري لم يكن واقعا في إسار التنظير الأيديولوجي والأسبقيات الجاهزة. بقدر ما كان التوّجه نحو توظيف المفاهيم التي اشتغل عليها كبار المفكرين والفلاسفة، في قراءة وتفسير الوقائع والأحداث. فكان النهل عن الفيلسوف الإيطالي غرامشي في مفاهيم؛ الهيمنة والمجتمع المدني والبراكسيس، وطروحات الفيلسوف الفرنسي ميشل فوكو حول السلطة والمعرفة والقوة، ويورغن

هابرماس في مقولات المجال العام، وجاك ديريدا في التفكيكية، وإدوارد سعيد في قراءة ما بعد الاستعمار، وسبيفاك في دراسات التابع. وبيتر برجر في البناء الاجتماعي للواقع، وماري دوجلاس في قراءاتها الأنثروبولوجية المعمقة، وغيرهم الكثير ممن أصلّوا للمزيد من المفاهيم التي شكلت الأساس الفكري والمهاد االنظري لجلّ المقولات الثقافية، الساعية نحو تفسير الظواهر التي راحت تطلّ بظلالها الثقيلة على الواقع المعاصر. حيث التحديات الكبرى التي تواجه عالم اليوم، حيث الأصولية الدينية والإرهاب والتطرف، وتنامي حركات اليمين المحافظ والهجرة وارتفاع معدلات الفقر والبطالة.

ثمة المزيد من الحكايات انتهى تأثيرها وانعدم مبرر وجودها، في ظل التطورات التي يشهدها العالم، فقد ذوى دور الرقيب وانحسر، في ظل التحوّلات الهائلة والمتسارعة التي راحت توفرها التقانة الرقمية والثورة الاتصالية. وتصدرت المشهد عناوين جديدة لم تكن تشغل حيزا في مجال المفّكر فيه. لقد بطلت موضة الحزب الواحد وانحسرت، ولم يعد مجديا الحديث عن القائد الملهم الذي تلتف حوله الجماهير، بعد أن تسيّدت المشهد ثقافة الجماهير عبر التنامي الفاعل والحيّ لوسائط الاتصال الاجتماعي. وتقزّمت الكثير من الأسرار التي كانت في الماضي القريب حكرا على الأجهزة المخابراتية والبوليسية، بعد أن راحت أدق الأسرار يتم نشرها على مواقع الويكيليكس وغيرها من المواقع التي راحت تحث الخطى نحو تقليد هذا النموذج. فيما انتهكت كرامة المزيد من المؤسسات السابقة وغدت مكانتها في خبر كان. حتى غدت مضغة سائغة تحت رحمة (كي بورد) المشتركين في خدمة الإنترنت.

إنه العالم المفتوح الذي راح يفتح الباب على مصراعيه دافعا الأنساق المغلقة نحو الخارج دون رجعة. وهي أحوال التعددية ونهاية احتكار المعنى، بعد أن تسللت قيم النسبية على حساب المطلق، وتنامي احوال التسامح بإزاء العنصرية وأوضاع التمركز، وذواء نموذج الإنسان ذي البعد الواحد وأوضاع الاغتراب السياسي والتكنولوجي، وصعود المحلي بمواجهة المركزي، وتصاعد دور فعاليات المجتمع المدني، وتفاعلات المادي بالروحي. العالم اليوم يعيش لحظات إعادة الجنس البشري لاكتشاف ذاته، في مخاض عسير شديد التعقيد. حيث الإرهاب والتطرف الذي يجثم على

المشهد برمته. ويتواصل اصحاب المصالح في تعميق دالة هيمنتهم وسطوتهم. لكن الثقافي ببعده الرمزي وخصوبته الإنسانية لا ينفك يتفاعل، على الرغم من القتامة والسوداوية الذي تتعرض له البشرية برمتها اليوم.

لم يعدم الباحث العربي الإفادة من طروحات تحليل الخطاب، حيث دبّجت الكثير من الدراسات المعمّقة، التي تناولت العديد من الظواهر، وساهمت في التشخيص والتحليل والنقد العلمي الصارم، إن كان على المستوى الشخصي أم على مستوى مراكز البحث العلمية في المؤسسات الأكاديمية والثقافية. لكن هذا كله يبقى مرتهنا بالسياق الذي يتم فيه طرح تلك الأفكار والمساهمات الفكرية، تلك التي تتسم بالجدّية والعمق والتأصيل، فيما يتبدى السؤال الحائر حول قابلية الواقع العربي والعلاقات السائدة فيه، على التعاطي مع هذه الطروحات. تنظير في منتهى الدقة والوعي والفهم والاستيعاب والحصافة، إلا أن طريقة التعاطي مع التحليل الثقافي يبقى رهنا بالواقع الذي تتفاعل فيه. فما جدوى أن تقدم فكرا نيّرا متقدما مؤصّلا، دون أن يثمر عن نتائج واقعية تلامس التفاصيل التي تزخر بها الحياة العربية، إن كان على مستوى رجل الشارع أم النظم الحاكمة.

قدّم المثقف العربي المزيد من النتاج الثر، لكن هذا كله ظل يدور في فلك التداول النخبوي. فيما قيض للخطاب التقليدي من فرض نفسه وتفاعلاته ومقولاته على مستوى العامة. أزمة التواصل التي يعاني منها المثقف العربي في وسيطه الاجتماعي، اختصرها الداعية عبر توظيفه للنصوص المقدسة، واستطاع بيسر وسهولة الوصول إلى عامة الناس وبسطائهم عبر منظومة الحلال والحرام. وهكذا تجد معارض الكتب العربية وقد تضاعفت مبيعات الكتب الدينية، في ظل التراجع المفجع للكتاب الفكري والفلسفي والأدبي. وعلى الرغم من الممارسات السلبية والاتهامات المباشرة التي راحت تطال البعض من رموز الإسلام السياسي، والتي وصلت حدود الفساد الإداري والرشوة والسرقة العلنية والفتاوى المجانية والتحزب والمحسوبية والتلوّن المباشر والمريع في المواقف. إلا أن مظاهر التدّين الشعبي، تبقى الأكثر حضورا في المظهر الاجتماعي العربي. إن كان على مستوى حجاب المرأة أو تداول الشعارات ذات الطابع الديني على جدران الأحياء الفقيرة أو زجاج

سيارات النقل العام، أو حتى رنات الهواتف.، أو ظاهرة المسيرات المليونية في المناسبات الدينية. فيما تحصل منشدو الأغاني الدينية على مكانة وصلت حد النجومية وصاروا يحصلون على أجور تقارع نجوم الصف الأول. أما ظاهرة الدعاة الجدد فهي لوحدها تمثل ثقلا ماليا بالغ الدلالة، وحضورا شديد الأهمية في جلّ القنوات الفضائية العربية.

صار الواقع يتعايش مع ثقافة المعضلة[١٨٥]، بوصفها أصلا لا عارضا، تلك التي باتت تتعرش في صلب العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. حيث الحضور الطاغي للتمثلات الناقصة والتكييفات الذاتية الخاضعة لاشتراطات المصلحة والمنفعة. فالحزب السياسي يتم تمثله من خلال نموذج القبيلة والعشيرة، والتعددية السياسية يتم احتاوائها عبر بوابة الابتزاز للطرف المنافس، والقرار السياسي خاضع للوجاهة والهيمنة والسطوة، وفي الكثير من الحيان للكرامة والكبرياء الشخصي، فيما تتم الإطاحة بمفاهيم مثل المصلحة العامة. الأدهى والأمّر أن تمثيلات الديمقراطية صارت تتم عبر بوابة نمط السلطة الخراجي.إذ يكشف الأمس القريب جدا أن مفردة الديمقراطية، كانت هدفا للهجاء المقذع من قبل أحزاب الإسلام السياسي، تلك التي لم تتوان عن وصفها بأبشع النعوت والصفات. إلا أن المصالح والمنافع التي أتاحتها هذه الديمقراطية، والبركات التي أسبغتها على تلك الحركات والقوى، جعلت منها تضرب صفحا عن الهجوم والرفض والتكفير لها. الواقع السياسي العربي لا يتوقف عند إشكالية أحزاب الإسلام السياسي فقط، بل يتخطاه نحو مجمل الحركات والتيارات السياسية اليسارية منها والمحافظة. تلك التي تماهمت مع العمل السياسي بعقلية الأيديولوجي حينا، والمنتفع أحيانا والمتسلط دائما. المعضلة السياسية في العالم العربي تقوم على أن الخطاب السياسي العربي، هو خطاب سلطة ولاشيء سواه. الجميع من دون استثناء يسعى نحو السيطرة على السلطة بوصفها غنيمة. وعبر هذا المنظر تتعالى صيحات جميع الأحزاب والتيارات السياسية العربية مذّكرة بالتضحيات والنضال والخسارات والفقد، بانتظار الحصول على المكافئة. خطاب السياسة العربي لا يعدو عن صفقة ينتظر منها المكافئة بالحصول

[١٨٥]. يشير مختار الصحاح؛ داء عُضَالٌ وأمر عُضالٌ أي شديد أعيا الأطباء وأعْضَلَني فلان أعياني أمره وقد أعْضَلَ الأمر اشتد واستغلق وأمر مُعْضِلٌ لا يُهتدى لوجهه والمُعْضِلاتُ الشدائد.

على الجاه والمنصب والثروة والسطوة، باختصار إنه مصباح علاء الدين السحري، الذي يحقق لمن يعثر عليه تحقيق الأماني.

و تتوالى كرّة المعضلات في الواقع العربي، فعلى الرغم من توّجه جلّ الحكومات العربية نحو وضع الخطط الاقتصادية الخمسية منها والعشرية، والعناية الفائقة بحقائب وزارية متخصصة في الاقتصاد والتخطيط والعمل والشؤون الاجتماعية. إلا أن مستوى الانجاز يبقى عالقا عند المستويات الدنيا، حين تتم مقارنته بالدول المتقدمة حيث الريعية والتبعية الاقتصادية، وانعدام ملامح الخطط التنموية القادرة على صياغة رؤية واضحة بهدف النهوض بالواقع الاقتصادي. ولا يختلف الأمر حين يكون الوقوف على الواقع التربوي والتعليمي، فعلى الرغم من سلخ تجربة التعليم المدني في العالم العربي لأكثر من قرن من الزمان، إلا أن مخرجاته الراهنة باتت تشكل عبئا على مسار التنمية الاقتصادية والاجتماعية. فبدلا من أن يكون خريج التعليم العالي ظهيرا تنمويا للمجتمع، أضحى يشكل عبئا اقتصاديا وثقافيا، حيث التكريس لثقافة البطالة المقنعة. فيما تفاقم المسار حتى باتت تظهر اليوم في صورة البطالة المباشرة، بعد أن تعرض قطاع التوظيف الحكومي إلى التخمة، وهكذا أضحى حقل التربية والتعليم حقلا لتناسل أجيال من الشباب الحانق والغاضب والمحبط، حتى غدا العديد من هؤلاء صيدا سهل المنال للحركات الأصولية المتطرفة.

وقع الخطاب التربوي العربي أسيرا للنمطية والجاهزية، واستغرق في لعب دور التلقين، حتى غدت الشهادة الجامعية بمثابة الغاية، لتنحرف عن الوظيفة التربوية وتسقط في فخاخ التوظيف الاجتماعي، بوصفها وسيلة للوجاهة، وسبيلا لمرور صفقات اجتماعية شديدة المباشرة. لعل الأبر من بينها احجام الأسر العربية عن تزويج بناتها لمن يحمل مؤهل متوسط؟! فيما تراجع الحافز العلمي وغدا في ذيل قائمة الرغبات والطموحات بالنسبة للشباب العربي. هذا الأخير الذي وقع في فخ العلاقات التقليدية والخرافة والانغماس في دوامة التفكير النمطي النائي عن الإبداع والإبتكار. الطامة الكبرى أن اوضاع الترهل راحت تطال مؤسسات الإنتاج المعرفي والأكاديمي ذتها، بعد أن تسلل إليها حملة الشهادات الجدارية، الذين تبوؤا مراكز صناعة القرار. فيما راح الواقع يكشف

عن تراجع مكانة الجامعات العربية وعجزها الصريح عن إنتاج معرفة قادرة على مواجهة التحديات التي يمور فيها العالم الراهن.

الترهل والتراخي الذي يطال حقول الإنتاج الرئيس في الواقع العربي، افرز المزيد من أحوال التنافض الفج. ذلك الذي راحت ملامحه تتبدى في العجز المقيم عن استيعاب أحوال التغير الاجتماعي، هذا الأخير الذي راح يمثل تحديا مقلقا لأصحاب المصالح المكرسة والنخب التقليدية الساعية نحو توريث أبنائها. وإذا كان الحديث يترى حول مصطلحات مثل؛ ريادة الأعمال، والحوكمة، التمكين، فإن الأمر يبقى يدور في فلك الانغماس في الموضة الرائجة التي تروج لها كبريات المؤسسات العالمية العابرة للقومية والساعية نحو توسيع برامج التدريب والتأهيل الهادفة للحصول على الربحية العالية. فما جدوى الحديث عن ورش تدريب وتأهيل لعناوين كبرى شديدة الجاذبية، لكنها غير منسجمة مع النسق الاجتماعي والثقافي السائد.

تبرز أهمية منهج تحليل الخطاب في قراءة الظواهر المعاصرة في المجال العربي. فقد قيض لهذا المنهج تحقيق المزيد من الفتوحات الفكرية، والتي أثبتت رسوخ المعالجات وقدرتها على الكشف عن الزوايا المعتمة التي تحيط بالظواهر. المهم هنا أن تحليل الخطاب لا ينطوي على رؤية موحدة أو منهجية محددة، بقدر ما يقوم على رؤى وتصورات مختلفة لكنها تصب في النهاية عند الثقافة بوصفها التعبير الأشد وثوقا بالتفاصيل التي تزخر بها الحياة الإنسانية.

يحظى تحليل الخطاب الإعلامي بأهمية استثنائية من لدن الدارسين والباحثين، حيث المسعى نحو فرز المضامين والمقومات والتغيرات التي ترافق الممارسة الإعلامية. سعيا نحو فك الالتباس في الخطاب والتوجه نحو ترصد موقع الخطاب في الاتصال، من حيث التوجهات الساعية نحو صياغة الخبر والتأثير في المتلقي. ومن هذا برزت العديد من المدارس والاتجاهات النظرية الساعية نحو قراءة الخطاب الإعلامي والبحث في المرتكزات التي يقوم عليها. فكان المنهج اللغوي الاجتماعي الذي اعتمد التحليل الثقافي في دراسة اللغة الإعلامية وتأثرها بالتغيرات التي تطال

السياق الاجتماعي[١٨٦]. دراسة تتوجه نحو رصد تحولات الخطاب، من خلال البحث في الطريقة التي يتم فيها تفاعل المستويات اللغوية والثقافية والاجتماعية، والعمل على تحليلها وبالتالي إمكانية تفسيرها. بعد ان يتم التركيز على المشتركات القائمة بين المرسل والمتلقي، وهو ما يطلق عليه المقدرة الاتصاليةCommunicative Competence[١٨٧] ومن أجل الوقوف على ترصد الخطاب تمت العناية بمفهوم المقدرة الإتصالية والعمل على تطويره باعتباره مدخلا رئيسا نحو فهم طريقة اشتغال الخطاب، حيث العناية بوسائل الاتصال التي يمتكلها طرفا العلاقة (المرسل والمتلقي) من أجل استمرارية التواصل بين الطرفين[١٨٨].

لم يعدم تحليل الخطاب الإعلامي من توظيف مجمل الطروحات الفكرية والمنهجية المتعلقة بتحليل الخطاب، فكان النهل عن المنهج التوليدي التحويلي Transformational approach in language. حيث الجهد المعرفي البارز الذي قدمه عالم الألسنيات البارز نعوم شومسكي Chomsky وتمييزه الدقيق ما بين الكفاءة Competence بوصفها المعرفة اللغوية المجردة والأداء Performance. فكان التوجه نحو ترصد المستوى العميق للكلام، والبحث في عملية التكلم وآليات العمل في استعمال اللغة[١٨٩]. وتأتي منهجية اللغويات النقدية Critical Linguistics التي تطلعت نحو ربط الدرس اللغوي الألسني بالاجتماعي والسيميولوجي في تصميم نقدي، وقيض لأصحاب هذا المنهج ترصد أحوال الخطاب في الصحافة ودراسة التناص في الممارسة الخطابية[١٩٠]. وجاءت

---

[186]. Stephanie Taylor, 2013, What is Discourse Analysis? Boomsbury, Londodn , p 32.

[187]. Evelyn Hatch, 1992, Discourse and Language Education, Cambridge University Press, p 318.

[188]Linda L. Putnam, Dennis K. Mumby , Editors, 2014, The SAGE Handbook of Organizational Communication: Advances in Theory, Research and Methods, SAGE Publications, Los Angeles, p 672

[189]. Frederik Stjernfelt, 2007, Diag rammatology: An Investigation on the Borderlines of Phenomenology, Ontology and Semiotics,Springer, The Netherlands, p 119.

[190]. Kirsten Malmkjaer , 2004, Linguistics Encyclopedia, Routledge, New York, p 102.

المنهجية الفرنسية في تحليل الخطاب لتعقد المقارنة ما بين الملفوظ بوصفه الجملة التي لا تحتاج دلالة، فيما يتكون الخطاب من ملفوظ يقوم أصلا على الدلالة[(١٩١)]. أما الشكلانيون الروس فقد أرسوا دعائم منهجية تحليل الخطاب، عبر جهود المزيد من النقاد والمفكرين يأتي رومان جاكوبسون Roman Jackobson في طليعتهم. من خلال التأكيد على أدبية الخطاب الأدبي، وماهي العناصر التي يقوم عليها الأدب وتجعل منه مختلفا عن التاريخي والفلسفي والنفسي[(١٩٢)]. وجاءت جهود السيميولوجيا لتركز على قراءة العلامات والإشارات والرموز اللغوية وغير اللغوية، من خلال دراسة البنية الداخلية للنص، والتوجه نحو ترصد ملامح الاختلاف بين الدوال اللغوية، سعيا نحو اكتشاف الدلالة واستخراج المعنى. عبر تحليل المؤثرات الداخلية التي تساهم في تكوين الدلالة، ورصد عناصر النص التي لا يمكن أن يتم تبين الدلالة فيها إلا من خلال العلاقة القائمة بينها. والتركيز على تحليل الخطاب بدلا عن الجملة[(١٩٣)].

فرضية القراءة

دفق المعلومات الذي يعيشه العالم اليوم، والتطور الهائل في وسائط الاتصال، جعل من حقل الإعلام في أشد حالات الاستنفار والتداعي. لم يعد من المجدي الحديث عن فصل أو تضافر أو حتى دور خاص لصحيفة أو قناة تلفزيونية أو محطة إذاعية؟! لاسيما وأن التقنيات والبرمجيات قد تضافرت الجهود فيها، حتى أفرزت خلطة شديدة التعقيد من الأوضاع الاتصالية المربكة والتي

---

[191]. Hilary Footitt, 2016, Women, Europe and the New Languages of Politics, Bloomsbury, London, p 13.

[192]. Teun A. van Dijk, 2009, News As Discourse, Routledge , New York, p 18.

[193]. Bronwen Martin, Felizitas Ringham, 2006, Key Terms in Semiotics, Boomsbury , London, p 222.

تحتاج إلى إعادة تأويل وتفسير. بل أن الأوضاع الحاكمة تجعل منا في أشد أحوال الحاجة، إلى إعادة إنتاج مقولات **المنهجية البنيوية** Structuralism تلك التي تعطل العمل بها [١٩٤]، وصارت إرثا منهجيا قديما، فيما ما انفكت الأوضاع التي يعيشها حقل الإعلام في العالم العربي، في أشد الحاجة إلى البحث في نسق System بنية الإعلام العربي الراهن ، حيث أهمية إمعان النظر في العلاقة القائمة بين العناصر التي تشكل بنية الإعلام وأهمية ترصد الأوضاع التي تعيش في ظلها المجمل من الوسائط الاتصالية. أوضاع تستدعي استحضار مفهوم التزامن Synchrony، سعيا نحو البحث عن دالة الأوضاع التي ما انفكت تشير وبجلاء لا يرقى إليه الشك، حول هذا التكاثر الأميبي لوسائط الاتصال، والولادات الانفجارية للعدد المهول من القنوات الفضائية والصحف[١٩٥]، حتى غدا الواقع وهو يشير إلى أن كل فرد قد أضحت لديه محطته الفضائية الخاصة به. قنوات لا تعّد ولا تحصى جعلت من حقل الإعلام في أشد أحوال التلوث السمعي والبصري والذوقي والذهني. فيما أحوال التفكك تتبدى حاضرة على سدة الواقع، فبقدر ما يتم الإعلان عن الوسائط الجديدة بأعداد كبيرة. يكون الإغلاق والفشل وقد طال العدد الأكبر منها. أحوال الموت والولادة لوسائط الاتصال صارت الظاهرة الأهم في عالمنا الراهن. حتى بات الشك يطال المستقر منها.

---

[194] Denis McQuail (2010) , McQuail's Mass Communication Theory , SAGE , Washington DC , p19.

[195] Joe Khalil, Marwan M. Kraidy (2009) , Arab Television Industries , Palgrave Macmilan ,UK, p 146.

قضايا القراءة

قضايا مثل الورقي والإلكتروني تحضر في صميم الصحافة والنشر الكتبي. المتخصص والترفيهي حيث المشغلات الكامنة لدى القنوات الفضائية، فيما غدت محطات FM الإذاعية تغطي الأجواء بكثافة غير مسبوقة. كل هذا بإزاء الزحف الرقمي للوسائط الاتصالية والتي جعلت من الفضاء العام يحيل إلى أوضاع؛ احمل وسيلتك الاتصالية واتبعني؟! الجميع يعيش فورة التواصل والانغماس في لجة الإفادة القصوى من الثورة المعلوماتية. قنوات ومحطات وبرامج راح يتم إنتاجها دون رقيب، وبتمويل قليل أو منعدم الكلفة. الحضور الطاغي لوسائط الاتصال الاجتماعي[١٩٦] ، **YouTube, Twitter, Facebook** جعل من الجميع يهّب نحو تأبط محموله والسعي نحو إنتاج وإخراج فلمه الوثائقي القصير، أو حتى فلمه الروائي الطويل. الجميع راح يتقمص دور رئيس التحرير، إن كان مدّونا، أو حتى مؤسسا لموقعه الإلكتروني الذي يتخذ ترويسة الصحيفة اليومية أو الأسبوعية. لوثة عارمة تجتاح العالم فيما راحت كبريات المؤسسات الصحفية والإعلامية تتساقط الواحدة تلو الأخرى، وتعمد البعض منها إلى إشهار إفلاسها.

إنها الوضعية التي تشير وبمباشرة عالية إلى أحوال **التعاقب Diachronic** ، لا بمعنى البحث عن أحوال التغير والتطور في بنية الإعلام، بقدر ما تكون القراءة متطلعة نحو ترصد أحوال

196 Vijay Mahajan (2012) , The Arab World Unbound: Tapping into the Power of 350 Million Consumers , John Wiley and Sons , p 350.

التصادم والإرتباك الذي ينال من عناصر البنية الإعلامية (**صحافة، إذاعة، قنوات فضائية**) وطريقة حضورها في الراهن المعاش. والتهديدات المباشرة التي راحت تطال مجمل البنية الإعلامية، إن كان على صعيد **Remote control** والذي أضحى وكأنه سيف الجلاد المشرع من قبل المشاهد بحق القنوات الفضائية. أو على مستوى التعاطي مع محركات البحث في الإنترنت وتجليات **Google**، والخيارات غير المنتهية من المواقع، تلك التي تغطي الصحف والمحطات والقنوات والمدونات، حيث العالم الذي يتم اختصاره في حجم الكف. حقل الإعلام برمته والذي تم وضعه في قمقم الإنترنت، يحيلنا مباشرة إلى حكاية المارد الذي تم سجنه في المصباح السحري؟! نعم ومن دون ريب أن للإعلام بنيته المستقلة وعلاقاته الخاصة به، إلا أن الوعي به والسيطرة على مدركاته يبقى أمرا منوطا بآلياته الداخلية التي تحكم البنية التي يقوم عليها.

إشكاليات القراءة

لا يمكن تحميل اللغة أية لغة قيما معينة، بقدر ما تقوم اللغة على قواعد ونظام اجتماعي يميزه فروق الاستخدام الفردي. العناية هنا تستقصي الكلي في اللغة على حساب الجزئي. حيث يتوجه التحليل نحو داخل النص، ممتدا في العمق. سعيا للوقوف السؤال المتعلق بقدرة المؤسسات الإعلامية العربية في تحقيق سلوك تواصلي، والتفاعل المتحقق بين المرسل والمتلقي. كيف يمكن تمييز أحوال التعاطي مع اللغة، وهل ثمة شراكة لغوية يمكن تمييزها بين الطرفين (**المرسل والمتلقي**). أم أن الأمر يقوم على التوجيه والتلقين وتقديم الفرضيات المسبقة حول المتلقي. هل من ممارسة اجتماعية للغة يمكن ترصدها في النص اللغوي الذي تقدم عليه المؤسسة

الإعلامية العربية، أم أن الأمر يقوم على الجاهز والثابت والمتحول في تقديم الوجبة الإعلامية. لاسيما وأن ظاهرة طغيان وهيمنة النماذج العليا، تلك المتمثلة في المؤسسات الإعلامية الشهيرة في العالم، صارت بمثابة الموئل والمصدر الرئيس في التواصل مع الجمهور.

الحديث عن الممارسة الفعلية يقوم على التساؤل العميق في صلب الممارسة اللغوية، فهل استطاعت مؤسساتنا الإعلامية العربية، أن تتعاطى مع اللغة من منطلقات (**الاستدلال، الإدراك، التأويل**). أم أن اللغة وُضعت تحت سياقات الظروف المحيطة؟ ترى ما هي أحوال المعنى في المؤسسة لاسيما على صعيد (**التكوين والنقل**) للمعاني والعمل على تقديمها للمتلقي؟ هل ثمة ارتباط بأفعال مأمولة ومتوقعة؟ أم أن الأمر يبقى عالقا في المجمل من الأفعال التي يدرج عليها البشر داخل وسيطهم التداولي وفضائهم الاجتماعي[١٩٧]، هل ثمة رسالة ترتبط بالفعالية اللغوية العربية داخل المؤسسات الإعلامية؟

الخطاب **Discourse** وكما يشير في ذلك **Bakhtin**؛ فعل إنساني يعبّر عن منتجه[١٩٨]. من خلال التطلع نحو تمييز مستوى العلاقات مع المحتوى. انطلاقا من توجيه العناية نحو دراسة القيم والأفكار والثقافة والظروف السياسية والاجتماعية المحيطة. الخطالب هنا يقوم بمنزلة توجيه الجهد نحو تحقيق هدف، عبر استثمار المضمر والباطن من الظاهرة.

---

[197] Leonora Leet, Ph.D. (2004), The Universal Kabbalah ,USA, Inner Traditions Bear Company , p 430.

[198] Iris Zavala (1992), Colonialism and Culture: Hispanic Modernisms and the Social Imaginary , Indiana University Press , p 56.

منهجية القراءة

تبرز أهمية التحليل الوظيفي للثقافة في تركيزه على القراءة الساعية نحو المستوى التزامني من الظاهرة، حيث الاهتمام بالظروف الموضوعية [١٩٩]، والتطلع نحو ترصد أحوال التناغم بين العناصر التي تؤلف النسق الثقافي، سعيا في الوقوف على أوضاع التغير، والذي يمثل حصيلة التماس مع الثقافات والنماذج الأخرى.

ماهي الحاجات التي تلبيها اللغة الإعلامية، هل بوصفها أداة للتعبير، أم هي استجابة للحاجة التي تعن على هذا الوعاء الإعلامي أو ذاك. أين يمكن أن نجد الإجابة في المحتوى الإعلامي، في المضمون في الرؤية في الرسالة في الهدف؟! التحليل الوظيفي يشير وبمباشرة عالية الوضوح إلى دور الثقافة في تمييز الضرورات التي تحتاجها المؤسسة الإعلامية. الجميع من دون استثناء، يستطيع أن يحصل على الكادر المدرب والمؤهل لإدارة مؤسسة إعلامية.بل أن المزيد من القناوت الفضائية انخرطت في لعبة وسيلة الإيضاح، بعد ان وجدت أن الأمر برمته لا يستدعي سوى إحضار فتاة تمتلك مواصفات الإغراء، لتبدأ لعبة البث الفضائي الترفيهي. ولا يختلف الحال عن القنوات الدينية والتي لم تتوان هي الأخرى عن استحضار نموذج رجل الدين بلوازمه المتعارف عليها، من أجل اتمام لعبة البث. نعم إنها اللعبة التي تتم ممارستها من خلال تقزيم دور المؤسسة الإعلامية، واختصارها في النموذج الجاهز أو الوسيلة الإيضاحية، في حين أن الدور العميق

---

[199] I. C. Jarvie (2013) , The Revolution in Anthropology, Routledge , New York , p 182.

والرئيس للمؤسسة الإعلامية إنما يقوم على الضرورة الثقافية القائمة على **الجهد الجماعي**، تلك الساعية نحو الاستجابة **لحاجات فردية**؟!

المؤسسة الإعلامية تعد بمثابة المعبّر عن المخيال والرؤى والتضمينات والتصورات لمجتمع ما. ومن هنا جاءت القنوات الموسمية الشبحية أو الصحف التي تختفي قبل أن تصدر؟ دون أن يستبان منها ملمح الإنتماء. قد يكون مثل هذا الطرح في زمن العولمة والقرية الكونية مغاليا، وربما تعرض لتهمة البعد عن الواقع. إلا أن الوقوف على النماذج الكبرى يكشف لنا عن حضور الإنتماء، وهذا ما يمكن توضيحه في النماذج الأكثر عراقة ؛ BBC والتي ما فتئت تعبر عن بريطانيّة هويتها ويدها ولسانها، أو النموذج المتأخر كما هي محطة CNN الأمريكية. إنه الحس المرهف الذي تستحضره المؤسسة الإعلامية، سعيا نحو التاغم مع الثقافة التي تمثلها. حيث التعبير عن الذهنية الخاصة، وهكذا قيض لتلك المؤسسات إنتاج رسالة إعلامية ذات قابلية على القراءة، باعتبار تمثلها العميق والدال والأصيل لثقافتها. فجاءة عميقة لا يمسها الضرر أو التشوه.

المؤسسة والوظيفة

أين يمكن تحديد مجال وظيفة المؤسسة الإعلامية؟ وكيف يمكن الوقوف على مستوى تفاعلاتها على **الصعيد الاجتماعي**؛ تثمير أو استغلال التجربة الإنسانية، تحديد أو تشابك التجربة الاجتماعية، الحقيقة أو الوهم في رصد الحركة الاجتماعية، التواصل أو القطيعة على صعيد المعرفة، الارتقاء أم النكوص بالإنسان، الوضوح أو التعمية في التعاطي مع التجربة الإنسانية. وكيف يمكن تمييز **المستوى السياسي** في تجربة المؤسسات الإعلامية؛ التعبير عن رسالة أم مجرد

التعاطي مع استراتيجيات، التطلع نحو شرح قضية، أم مجرد طرح يقوم على السبق الإعلامي، التوجه نحو إمرار الرسائل والشفرات والرسائل أم ممارسة احترافية تقوم على الإيمان بحرية الإعلام ودوره التنويري. التعاطي مع الموضوعات بالخفاء أم بالصراحة والشفافية. إنها الأسئلة التي تستحضر المجمل من المعطيات المتعلقة بالواقعية والعقلانية والتكتيك والاستراتيجيات والممارسات التي تميز تلك المؤسسة الإعلامية عن رصيفاتها الأخريات.

الإعلام بوصفه حقلا

تعيش المؤسسة الإعلامية أحوال الوعي الكامل بأنها ليست الوحيدة العاملة في هذا الحقل، ومن هذا فإنها تسعى نحو استدعاء مستلزمات الحضور، اعتمادا على محاولة توظيف **المعرفة القوة والرأسمال**. وهكذا يكون الانخراط في تجليات الصراع بين المؤسسات المنافسة داخل الحقل الواحد، صراع في ظاهرة يقوم على التميز والفرادة، فيما يكشف التجدلي العميق عن التطلع الحثيث نحو السيطرة. سيطرة تسعى نحو تلقف المعنوي والمباشر، أو بصياغة Pierre Bourdieu الرأسمال الرمزي والمادي، [٢٠٠] وتوظيفه في خدمة الهدف القائم على احتلال المواقع والحفاظ عليها، فيما يكون التوجه الحثيث نحو ترصد أوضاع التحولات وأهمية الوعي وتوجيه المجمل من القدرات والإمكانات من أجل حفزها وتنميتها بما يتوافق والنقلة التي تحدث على صعيد الواقع الموضوعي.

[200] Pierre Bourdieu (1977) , Outline of A Theory , Cambridge University Press , Translated by Esquisse D'un, p 159.

لا شك أن حقل الإعلام يعيش أحوال التنافس والصراع وعلى المستويين الداخلي والخارجي. لاسيما فيما يتعلق بأحوال العلاقة بين القوى التقليدية ذات السطوة والسيطرة، تلك التي حصلت عليها بفعل التقادم الزمني والخبرات المتراكمة، بإزاء القوى الجديدة الطامحة نحو احتلال موقعها في حقل الإعلام. الصراع ورغم احتدامه لا يخلو من حضور للتوازن بين الطرفين (**القديم والجديد**). وهكذا تتبدى أحوال تقاسم الهيمنة وفسح المجال أمام القوى الجديدة، سعيا نحو التجديد في ظاهره، إنما في حقيقته يقوم على محاولة أحداث نوع التوافق مع القوى الجديدة والتي تشكل تهديدا حقيقيا لسطوة القوى المكرسة.هذا الواقع يتكشف عن إنتاج المزيد من العلاقات الجديدة، تقع اللغة ضمن سلم الأولويات لاسيما وأن المواجهة تقوم على أحوال محاولة تقديم النموذج الثقافي. القوى لتقليدية تمنح الفرصة من أجل الوعي بالديمومة والتواصل من خلال القوى الجديدة، فيما تتطلع القوى الجديدة نحو اهتبال الفرصة والسعي نحو الانخراط العميق في تجليات الحقل، من خلال استثمار عنصر المبادرة.

الأشكال الثقافية

ثنائية (**الرقيّ والرثاثة**) باتت تشكل هاجسا شديد الحضور في تفاعلات المؤسسة الإعلامية العربية، لاسيما على صعيد اللغة المتداولة [٢٠١]. حتى أن التحولات السياسية التي شهدتها المنطقة خلال العشرية الثانية من القرن الواحد والعشرين، كان لها الأثر البالغ على أنماط التعبير الثقافي

[201] Matthew Arnold (2011) , Culture and Anarchy: An Essay in Political and Social Criticism , Cambridge University Press, p 52

لدى المؤسسات الإعلامية العربية بشكل عام. الجانب الأهم يقوم على الفوضى الاتصالية التي أحدثتها الثورة الاتصالية، حيث باتت ظاهرة تسرب اللغة الرثة متفشية في صلب لغة المؤسسة الإعلامية. صارت الصحف والفضائيات تحاكي لغة المواقع من خلال الملفوظات والتعبيرات التي كان ينظر إليها في الأمس القريب على أنها لغة سوقية، يأنف عنها الإعلامي المحترف.

غدت الثقافة التقليدية المكرسة عرضة للهجمة الشرسة الصادرة عن الثقافة العرضية. وأضحى ينحسر دور النخبة بإزاء الحضور الطاغي لثقافة العامة[٢٠٢].فيما راحت المؤسسة وقيمها التقليدية تعاني من توالي الهزات العنيفة، تلك التي راحت تطال صميم العلاقات المنتجة لقيمها الأصيلة والراسخة. مؤسسة التعليم حيث المدرسة والجامعة والدور المناط بها في إنتاج الثقافة الراقية الرفيعة، صارت اليوم عرضة لتوجيه الاتهام المباشر تحت دعوى مساهمتها في تكريس أحوال البطالة وتعميق مجال القطيعة بين المثال والواقع. القنوات الفضائية وحتى المرموق منها صارد يندرج في لعبة كسب المزيد من الجمهور المتابع، فراحت تنخرط في تقديم وجبات إعلامية تسودها الألفاظ الرثة والمفردات والتعبيرات التي تقاطع والتربية السرية، حتى أن تقليد التحذير بات شائعا، حول أن البرنامج هذا يحتوى على ألفاظ وتعبيرات لا تناسب الأطفال ومن هم أقل من عمر ستة عشر عاما؟!

الواقع أن المؤسسة الإعلامية العربية تعيش أعقد تفاصيل حياتها، لاسيما وأن التداخل في المعاني بات سمة العصر الذي نعيش. تداخل يمكن ترصده في البرامج المنسوخة عن برامج عالمية.

---

[202] Richard Hoggart (2009) , The Uses of Literacy: Aspects of Working-Class Life , Penguin , Lancaster University , p 82.

وكأن الولاقع العربي قد عجز عن استثارة عقل معّد أو سينارست من ابتكار فكرة برنامج جديد، لكنها أحوال إعلام الصفقات، ذلك الذي يتم من خلال تسريب المزيد من القيم والأفكار والرؤى والتصورات.

تفاعلات المعنى

في تحديده لعناصر التفاعل، يتوقف Anthony Giddens، عند؛ (**المعنى، التمييز الأخلاقي، العلاقة السلطوية**)، [٢٠٣] تمييز لا ينفك عند الإشارة الشديدة الارتباط بنسق التواصل الاجتماعي، حيث العلاقة التلازمية بين طرفين، وما تقوم عليها عملية النقل والمشاركة القائمة بين (**المرسل والمتلقي**).حيث الرسالة التي تمثل الوسيط القائم بين طرفي العلاقة، سعيا إلى محاولة بلوغ المعنى، حيث القصدية في أقصاها. وعلى الرغم من أن فعالية التواصل تقوم على عملية التنظيم الساعية نحو بلوغ النتائج المرجوة، عبر توجيه الرسالة الصادرة عن المصدر، بغية وصوله إلى النطاق الأوسع من المستقبلين، إلا أن غاية المشاركة تبقى حاضرة، وبقوة لافتة، باعتبار محاولة الوصول إلى حصد النتائج. فما قيمة الفعالية التي لا تنتج ثمرة ولا تبلغ هدفا. ولكن عن أي معنى يمكن الحديث هنا، هل هو المعنى المطلق باعتبار محاولة الوصول إلى ترسيم معالم التفاهمات والتقمصات التي تصدر عن المرسل، أم هو الفهم المشترك المستند إلى البحث عن الإطار الذي يفعل مجال العلاقة، من دون الوقوع في دوامة من الاحتكار أو الوقوع في دائرة الهيمنة والسيطرة وتفريغ الموجهات الذاتية وإقحامها في صلب فعالية التواصل. التمييز الأخلاقي يكون له الأثر الأبرز في تنسيق

[203] Anthony Giddens(1993) , New Rules of Sociological Method, Cambridge University Press.

العمليات، باعتبار أهمية التوافق مع المحيط المألوف **Habitus** بحسب النحت الاصطلاحي الذي يضعه عالم الاجتماع الفرنسي **pierre Bourdieu**. حيث الاستعداد والرؤية وطريقة التصرف المتوافقة مع المحيط، وطبيعة التجربة الاجتماعية، والنسق التداولي للغة والكلام.[٢٠٤]

الإعلام وتمثّلات اللغة

كيف يمكن للإعلامي أن يتمثل الحدث؟ وبالتالي الوقوف على الصياغة الممكنة، التي تؤهله لبلوغ التواصل مع المتلقي. هل تكفي أحوال الحضور والغياب لموقع الحدث، في الوقوف على التفاصيل المتعلقة بالرسالة الإعلامية. أم أن الخبرة والكفاءة تكون بمثابة البوابة التي تجعل من الإعلامي قادرا على الإمساك بزمام التعميم والتجريد، بما لا يخل وسياق الحدث، باعتبار الوقوف على ترتيب الأحداث وطريقة التقديم والتأخير التي تتعلق، بشد انتباه الملتقي. وإلا ما الذي يجعل من توجهات المتلقين وقد تركزت عند الصحيفة تلك، أو الفضائية هذه، أو الموقع الإلكتروني هذا، هل هي مسألة مزاج؟ أو تفسير يتعلق بتوفيق من نوع ما يحصل عليه، هذا الاسم الإعلامي دونا عن الآخرين، أو تميز تلك المؤسسة الإعلامية، مقارنة بمثيلاتها؟!!!! وما هي الجاذبية التي تحيط بهذا الطرف الذي يبدأ نجمه بالصعود، حتى ليغطي على المجمل من الأنشطة والفعاليات الصادرة والمتفاعلة في الحقل الواحد، ولنا في هذا الإشارة إلى أحوال الانفجار الإعلامي، الذي أنتج ما يزيد على الخمسمائة قناة فضائية عربية، والآلاف من المواقع الإلكترونية الخبرية، والسيل العارم من المدونات، والصحف والمحطات الإذاعية، وهلم جرا من الطوفان الإعلامي الذي راح يحاصر المتلقي

[204] pierre Bourdieu (1992) , An Invitation to Reflexive Sociology, Chicago University Press.

في أشد لحظاته حميمية وخصوصية.(٢٠٥) حيث الزحف المحموم للرسائل الاتصالية، والذي راح يتبدى في المزيد من الوسائل المستحدثة والمتجددة، من رسائل قصيرة على جهاز الهاتف المحمول، والإيميلات والنشرات الإعلانية، والفلاشات التلفزيونية العملاقة التي تتصدر تقاطعات الشوارع العامة. إنها الزيادات والإضافات التي تبتكرها الآلة الإعلامية، سعيا نحو إضفاء المزيد من شرعية الحضور، انطلاقا من موجهات؛ البحث في الأسباب، ومتابعة الأهداف والوقوف على التقويم وحساب النتائج المتواصل، والمستمر والذي لا يكل ولا يمل.

في بناء المعنى

على الرغم من التباين الواضح في اللغة الإعلامية، التي تميز كل وسيلة إعلامية عن غيرها، باعتبار الاختلاف في الهدف والممارسة والتجربة والتوجه والرؤية. إلا أن القواسم المشتركة في اللغة الإعلامية لا تني تحضر في العناصر الأربعة، تلك التي راحت تتبدى وكأنها البديهيات والمسلمات التي لا يمكن الإفلات من حضوريتها، حيث؛ (البساطة، **الفهم**، **التوحيد**، **المشتركات**). الرسالة الإعلامية تبقى حاضرة وفاعلة من طريقة الاتصال بالمتلقي، انطلاقا من تمثلها للحدث الاجتماعي عبر وسيلة اللغة، الساعية نحو بناء المعنى، بوصفه العمد الرئيس الذي تقوم عليه فعالية الاتصال. المعنى هنا صلة بين طرفين، لا يمكن له أن يبرز ويتمظهر من دون الاعتماد على البساطة، النائي عن التعقيد والتقعير. (٢٠٦)

---

[205] نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠١

[٢٠٦] كمال الحاج، الإعلام النامي، مطبوعات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٨

ومن هنا فإن اللغة الواضحة والتي تمس لب الموضوع، بعيدا عن المقحمات والاستعراضات البلاغية، أو الإيغال في الاستعارات، واستعراض العضلات اللغوية، أو الإيغال في توظيف الحركات الجسدية أو الالوان أو العلامات، تكون بمثابة البوابة نحو الإمساك بالمعنى، وبالتالي الوقوف على اتصال بسيط غير مكلف أو متكلف. فالمتلقي المعاصر في العالم الراهن، صار هو صاحب المبادرة، باعتبار إمساكه الدائم بالريموت والماوس والهاتف المحمول. هو الممسك بقرار الاستمرار أو الانتقال إلى الموقع أو الفضائية التي تلبي له رغباته وميوله وتتناغم ومزاجه، وتلبي حاجاته. ومن هنا فإن التطلع نحو الإمساك بالمعاني المشتركة، تكون بمثابة الوظيفة الرئيسة التي على المرسل، أن يسعى نحو حفز فعالياتها، وتطوير المهارات المتعلقة بها، وهذا لا يتم إلا عبر تركيز المرسل على ثنائية **(التفاهم والتفاعل)**. التفاهم على المشتركات الممكنة، والتفاعل في صلب الحدث الاجتماعي، وتمييزه وتقديمه في وجبة غنية تتوافر فيها مجمل الشروط التي تقوم عليها فعالية الفهم.

المسألة لا تتعلق بتهويل أو مبالغة، ولا تركيز على تمويل عملاق، أو تقانة عالية التكاليف، بقدر ما ينطلق من مسار التطلع نحو توحيد الرؤى، عبر البحث في المقتربات القائمة بين المرسل والمتلقي. إنها المرونة التي تتوافر لدى المرسل في الطريقة الممكنة نحو دمج الحدث في صلب السياق الاجتماعي للمتلقي، والسعي نحو تجديد ذلك السياق. عبر التوحد بهموم المتلقي ومشكلاته وأفراحه وأتراحه وقياس مزاجه، ما يغضبه ويستفزه ويريحه ويقلقه. وعلى هذا تبرز طريقة تعاطي المتلقي مع الوسائط الإعلامية، حيث التركيز على نماذج بعينها، والتي عادة ما تفسر انطلاقا من قوة الحضور والجاذبية والأسماء اللامعة وحشد النجوم، لكن الواقع يبقى يقوم على طريقة تعاطي

تلك الأوعية الإعلامية مع الحقول الاجتماعية الأخرى، والتي يتم عبرها تضافر الجهود نحو الاستجابة الحية لمتطلبات المتلقي وتلبية حاجاته الآنية، في فضاء شديد الزحام.

شبكة الممارسة اللغوية

كيف يمكن تمييز العلاقة القائمة بين المرسل والمتلقي؟ هل تقوم الفعالية بناء على الرسالة الصادرة عن المرسل، باعتبار اعتماد الخطاب الخاص المستند إلى تعزيز مسار التوجيه وإحكام السيطرة على عقل المتلقي. أم أن العملية تقوم على البحث عن المعاني المشتركة بين الطرفين. اتجاهان يحضران في الممارسة التي تميز مجمل النشاط والفاعلية الإعلامية، وما ينجم عنه من متعلقات حول فكرة الحياد المفترض في الوعاء الإعلامي. لكن الواقع يبقى بمثابة الكشف عن المجمل من التحيزات التي تفرضها الأحوال والأوضاع والمصالح. فما يتبدى في أشد أحوال العافية نظريا، يكون عرضة لتقلبات الواقع الذي يثقل عليه، ويجعل منه نهبا لتصاريف وتضاعيف شبكة الممارسة. حيث الأصناف المختلفة والمتنوعة، تلك التي تعلن عن حضورها في صميم الواقع، على الرغم من الجهد الذي يتم بذله في التخطيط والتقويم ومحاولات ترسيم معالم خارطة الطريق للتعامل مع المتلقي.

المرسل والمتلقي، يشكلان مجمل العلاقة العضوية في الحقل الإعلامي. فلا زيادة أو تفضيل في الدور بين الطرفين. وما يتم من تصميم وتحضير للرسالة الإعلامية، إنما يكون منطلقه وقد توقف عند المدركات التي يحددها المحيط المألوف. حيث المعاني التي يتم تداولها وفقا للمواقف المتعلقة بـ: (شخصية أو **حدث**، **أو قضية**)، عبر واسطة اللغة. تلك التي يكون الهدف الأهم فيها

وقد تركز عند المعطيات القائمة على الفهم والتواصل، حيث التبادلية في أقصاها، فلا يمكن أن تصل الرسالة من دون توافر المتلقي المستعد لاستقبالها، ولا يمكن للغة ما أن تبلغ وتشرح وتوصف من دون أن يكون متلقيا جيدا، قادرا على التمييز ومن هنا، فإن **اللغة الإعلامية**؛ (تكون بمثابة الوسيلة التي يتم عبرها تمثيل الواقع بمجمل تفاصيله، وترسيم معالم طريقة التداول للأحداث ووالقضايا داخل مجتمع ما، باعتبار بلوغ المعنى الذي يهدف إلى الفهم المشترك بين الأطراف المختلفة).

صياغة الوعي

تأتي الرسالة الإعلامية محملة بالتفاصيل اللغوية حيث الكلام والكتابة وحركات الجسد والألوان ومجمل العلامات الدالة، وما تفرزه من علاقات دلالية بقوام السببية والشرطية والزمنية والإضافة والإسهاب والاستدراك. والوقوف على العلاقات النحوية بين العبارات، باعتبار العبارات المتناظرة المستندة إلى عطف عبارة إلى أخرى والعبارات الملحقة بأخرى، والعبارات ذات الوظيفة المباشرة.[٢٠٧]، كل هذه التفاصيل تتطلع نحو **تجسيد المعنى**، بحساب الوعاء المضموني، السياسي أم التجاري أم الترفيهي إنه المسعى نحو التأثير في القناعات، مهما بلغت من الجدية أو الأهمية، تأثير قد يطال توجيه القناعات نحو تكريس الرغبة في سندويج أو جهاز موبايل أو تي شيرت، ليصل التأثير في صلب الوعي السياسي والاجتماعي والثقافي. إنها اللغة التي تصاغ من خلالها العبارات التي تخاطب الصغار والمراهقون والشباب والكبار. اللغة التي يتم توظيفها نحو تكريس مجال الهيمنة والسيطرة، الهيمنة التي تتبدى في الأقل كما يشاع، لتصل إلى الأهم. لكن موجهات السيطرة تبقى

[207] Michael Halliday (1994), An Introduction to Function Grammar, London.

حاضرة بكل ثقلها، من دون أن تقع في دوامة التمييز بين مهم أو أقل أهمية. اللغة هنا تكون مدارا وخيارا غير قابل للانتقاء، فهو الوحدة الواحدة، التي يتم عبرها ترسيم معالم الترويج للبضائع والقناعات والأفكار والمثل والعقائد والقيم. إنها الوسيلة الرئيسة الدائبة نحو صياغة الوعي وتشكيل الضمير الجمعي.

لغة قادرة على الإيحاء والتوجيه والسيطرة على القياد، تم تدبرها في ترسيم معالم الخطاب، وصلا نحو بلوغ المجمل من الحقول والفضاءات الاجتماعية. إنها اللغة الإعلامية التي لا تتوان عن الدخول في المختلف من الحقول السياسية أم التجارية أم الترفيهية، بذات القوة والحماس، حيث التطلع نحو الإمساك بقوة الإقناع من خلال التوجه نحو وضع التعريفات المحددة للمفاهيم. لغة تتبدى عبر مكافحة التدخين، عبر توظيف اللون والكلمة والعبارة والإشارة، وبذات القدر يكون التوجه نحو مكافحة الإرهاب. اللغة الإعلامية هي الأداة التي يتم من خلالها صياغة الوعي والذائقة والأفكار والتعبير عن الواقع.

في التنمية اللغوية

عن أية لغة يمكن الحديث، وسط أحوال التسارع والنمو والتطور، الذي راح يشهده الحقل الإعلامي في العالم. حيث البساطة والمباشرة والسرعة والمرونة، التي تحملها الرسالة الإعلامية، في الوقت الذي مازالت فيه المؤسسات الإعلامية العربية، منغمسة في دوامة من النقاش الحار والسخين، حول تبني هذا الاتجاه أو ذاك على صعيد، طريقة التعاطي مع اللغة، حتى ليطلع علينا من يتخذ اتجاها، يقوم على الإفراط بالحماس حول أهمية التمسك بأصول اللغة العربية،

باعتبارها المعبر الأصيل عن هوية الأمة، فيما يخرج تيار آخر يقوم على أهمية الوقوف على القواعد التحريرية الصارمة، واعتبار ما عدا هذا الاتجاه، خرقا وتتفيها وإنقاصا من قيمة التقاليد التي قامت عليها اللغة الإعلامية. ولم يعدم الواقع عن بروز لغة هجينة، لا ينجم عنها سوى الذعر والخواف على مستقبل الذوق العام، وليس اللغة فقط.

ما انفكت اللغة الإعلامية تعيش أحوال الصراع بين توجهات الإدارة الإعلامية، حتى غدت ضحية لرغبات هذا الفريق أو ذاك، حيث الصراعات في أقصاها. إدارة تسعى إلى فرض التقاليد الإعلامية، تحت دعوى الوفاء لكل ما هو أصيل وعريق، واتجاه آخر يسعى نحو التفاعل والتجديد والتغيير، باعتبار أن العالم اليوم، لم يعد كما كان سابقا. حيث التسارع الذي راح يطال كل شيء، في ظل الثورة المعرفية والمعلوماتية. اللغة الإعلامية في المجال العربي، تبقى حبيسة توجهات المؤسسة الرسمية، حيث القوة التي تتبدى عادة لصالح الطرف صاحب المبادرة، لما يحمله من وسائل الهيمنة والسيطرة والتوجيه. وعبر هذا التوجه فإن اللغة بقيت حبيسة التوجهات التقليدية، والتي راحت تعاني من البطء اللافت في ردات الفعل حول المجمل من المتغيرات، انطلاقا من تطلع تلك القوى للحفاظ على مراكزها التقليدية.[٢٠٨] حيث التركيز على اللغة المحنطة والجاهزة، تلك التي لا تفتأ عن لوك المقولات المكررة واللغة التقليدية، والصياغات المقولبة، والتي لا تختلف عن الشعارات، والتعبئة والتوجيه.

لغة لا يتم الوقوف فيها إلا على توجهات السلطة، واللهج بحمدها والثناء عليها، في قوالب تحريرية، ما انفكت تحضر منذ عقود طويلة. لغة تتقدم فيها مصالح السلطة على حساب المصالح

---

[208] محمد نادر السيد، لغة الخطاب الإعلامي، دار الفكر العربي، القاهرة ٢٠٠٧

الشعبية، حتى صار الخلط ببين المصالح العامة ومصالح السلطة فاضحا ومكشوفا. لغة يتضاعف فيها محمول الحمد والثناء على حساب لغة الحقيقة والصدقية. لغة تقوم على أحوال التضافر بين القيادة الإعلامية والسلطة حيث زواج المصالح على أشده، والذي راح ينتج المزيد من التهويل والمبالغة، حتى وإن كانت على حساب المصلحة العامة. ومن هذا راح يغيب دور المشاركة المفترض من قبل الجمهور.

الظاهرة اللافتة صارت تتبدى، في تطلع المتلقي نحو متابعة البعض من القنوات المتخصصة، التي استثمرت هذا الواقع، فراحت تقدم للمتلقي، الوجبة الإعلامية المرغوبة والمأمولة. حيث الموضوعية والتفاعل الحي، والاستناد إلى اللغة الحوارية القائمة على المشاركة والمرونة، وتخصيب المفردات بكل ما هو منفتح على المتغير والمتنوع والمختلف.حيث قوة التعبير التي تصل إلى المعنى بأيسر المفردات، تمهيدا لإبلاغ الرسالة الإعلامية من دون ضجيج أو مبالغات أو تصويرات تصل في الكثير من الأحيان، إلى جعل الرسالة الإعلامية وقد وقعت في فخ التناقض وسوء الفهم.

في الأداء اللغوي

لم يعد خافيا التوقف عند الأهمية التي راح يؤديها الإعلام الجديد، حيث أحوال التضافر القائم بين مختلف الوسائط. حيث الصورة والكلمة والتعليق والمواقع والمدونات والرسائل النصية القصيرة ومقاطع الفيديو التي يتم تصويرها بأجهزة المحمول، والتي يتم تداولها عبر موقع You tube، إنها التفاعلية في أقصاها. لكن الملفت وسط كل هذا المشهد الصاخب، يبقى يشير إلى أحوال

التداخل الذي يعيشها واقع اللغة الإعلامية في المجال العربي، الذي يبقى يعاني من أوضاع القصور البنيوي، وراح يعبر عن نفسه، في القطيعة المفجعة في طريقة التعبير الصادرة عن الجمهور. فما أن تطالع التعليقات التي يتم نشرها على المواقع الإلكترونية، حتى تكون الصدمة المفجعة في طريقة التعبير، القائمة على العاطفة والحماس والتقاطع الفج مع الرأي الآخر. فيما تكشف الأخطاء الإملائية والوهن في التعبير. عن الخلل الذي ظل كامنا وما يزال يعتاش في الواقع العربي. باعتبار غياب التنسيق بين المؤسسة التعليمية والتي تمثل رهان المستقبل، وطريقة التعبير البائسة التي يندرج فيها المزيد من المدونين والمشاركين في الإعلام التفاعلي.

نتاج لا يمكن عزله عن ثقافة التلقين والحفظ والجاهزية التي وقعت فيها مؤسسات التعليم العربية، حتى عجزت عن تخريج الدفعات القادرة على الإمساك بزمام اللغة. تلك الأخيرة التي راحت تأتي شاهئة ضعيفة واهنة، غير قادرة على الإحاطة بمكنون الشعور والتعبير عن الواقع، لغة اقل ما يمكن القول عنها، أنها لا تتوافق والروح الوثابة التي ميزت مجمل تحديات الحركات الشعبية في المجال العربي، والتي أثمرت عن بروز الدور العميق والأصيل لوعي الشباب في التغيير والحرية والديمقراطية والشفافية ومكافحة الفساد. لقد جاءت لغة الإعلام الجديد واهنة ضعيفة، حتى أنها لم ترق إلى مستوى الحدث الكبير والبارز الذي تحقق. الإشارة هنا لا تعني غياب اللغة الإعلامية المتميزة التي استطاعت أن تعبر وبقوة عن الواقع، لكنها تبقى قليلة مقارنة بكم النتاج الذي يصل إلى حد الصخب.

تصدرت المشهد لغة الصورة، حتى طغت على ما دون وما بعده من وسائل التعبير. صورة تغني عن المزيد من الكلمات. لكن قوة التعبير والتواصل تبقى تدور في فلك الكلمات والعبارات

والجمل. لكن طغيان اللغة الحاسوبية، كشف عن الضعف الفاضح في الملكة اللغوية للشباب العربي الذي عاش لحظة التغيير التاريخي.

اللغة والتواصل

اللغة أداة التواصل الرئيسة بين الكائنات البشرية، حيث الغاية التي تتمثل في بلوغ الفهم عبر التواطؤ على المعاني. إنها الفعالية التي تقوم على المجمل من الخصائص التي تتمثل عادة في خاصية الإبداع، تلك التي تقوم على الإمساك بالتداعي الحر للمواقف والتباين في المواقف، ومن هنا يتبدى عنصر التجديد الذي تقوم عليه، سعيا إلى التوافق مع المواقف والظروف. فعالية تستند إلى الانتقال بالملكة اللغوية من جيل إلى آخر. حتى يكون فيها التمثيل للهوية والثقافة والأصالة، لكن هذا لا يعني جعلها عبئا أو ثقلا، بدليل حملها لخاصية التحول، والذي يجعل منها في أشد حالات المرونة للتوافق مع الزمان.

لغة يتكشف فيها عنصر الزمانية بوضوح شديد، حتى ليمكن ترصد لغة العصر عبر تطور المفردة والعبارة، وطريقة توظيفها واستخدامها من زمن وعصر إلى آخر. انطلاقا من روح التجديد في داخل اللغة، عبر فعالية الاشتقاق والتعريب والنحت، مع الأخذ بنظر الاعتبار التأثير الخارجي الذي يطال اللغة من إضافات أو حذف. [(٢٠٩)] وهكذا يمكن ترصد لغة الإعلام وبوضوح غير قابل لمزيد من التدقيق حول لغة الصحافة في القرن التاسع عشر، أو حتى أوضاع التحول اللغوي عبر عقود من الزمان، فيما تتبدى أحوال التحول وبتسارع واضح خلال المقارنة بين لغة الإعلام في

---

[٢٠٩] أمين الخولي، مشكلات حياتنا اللغوية، الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨٧

التسعينات وصولا إلى اللحظة الراهنة، حيث التداول لمفاهيم، هي ذاتها راحت تنال من التطوير والتطويع والتوسيع، وهكذا بات يتم تداول مصطلحات مثل؛ العولمة، الهوية، صراع الحضارات، الاختلاف، التسامح، التعايش، الإرهاب، الحوكمة، والشفافية والتمكين، والمجتمع المدني والدمقرطة والفيدرالية، والرقمية والمعلوماتية والإرهاب والواقع الافتراضي. بأغراض وأهداف تعاني من الفوضى والاضطراب والاختلال، باعتبار أن كل يغني على ليلاه!!

ومن هذا فإن التمييز الأجدى يبقى يقوم على إقرار حقيقة قوامها، أهمية الفرز بين (**اللغة والكلام**)، باعتبار أن اللغة تمثل التعبير عن الواقع، فيما يقوم الكلام على التعبير الفرعي. اللغة هي المجال العام، فيما تتبدى أهمية اللغة الإعلامية في أهمية التوفيق بين (**المنطوق والمكتوب**) من صور اللغة. باعتبار المستوى الاجتماعي الذي يتبدى في طريقة توظيف الإعلامي لمادته (**أحداثا، شخصيات، قضايا**)، بما ينسجم وطبيعة التوجه نحو بلوغ فهم القطاع الأوسع من جمهور المتلقين. انسجام لا يضّحي بالاحترافية والمهنية، بقدر ما يكون الاستناد فيه قائما على الوضوح الخالي من الالتباس والغموض، والتوافق مع روح العصر، عبر الجمل الرشيقة المناسبة لمقام القول، والملائمة لوسيلة الإعلام، فلكل وسيلة إعلام لغتها وطريقة وصف ومفردات وعبارات، لا تخرج عن التشويق والإيجاز.

الوظيفة الاتصالية

تتوجه فعالية الاتصال نحو التأثير في الميل والاتجاه العام للجمهور، إنها العملية المتطلعة في صناعة الرأي العام من خلال توظيف اللغة، في ترسيم ملامح الوعي والتوجيه والتعبئة باتجاه

قيمي محدد، يتم من خلاله تحقيق الهدف، الذي يتوزع على أكثر من مجال وحقل. وإذا كانت التوجهات قد توقفت عند نماذج الإعلامي الاقتصادي أو السياسي أو الثقافي، فإن اللغة الإعلامية تبقى تسير في ركاب البحث في الرموز الدالة ضمن البيئة الثقافية الواحدة، وهذا تحديدا ما يهم طريقة التداول الإعلامي، والذي يسعى نحو التفاعل مع مع عقل المتلقي. هذا التفاعل الذي لا يمكن له أن ينتج أثرا، من دون الغور العميق في تحليل العلاقات الاجتماعية والمعايير والنظام القيمي السائد فيها، بغية الوقوف على المعطيات الدالة التي يمكن من خلالها التعامل مع اللغة التي يمكن تبنيها ضمن إطار اجتماعي محدد. اللغة هنا تمثل الإطار الدلالي المشترك بين المرسل والمتلقي، سعيا نحو تحقيق عملية الاتصال.

الخاتمة

تحليل الخطاب الإعلامي حقل معرفي شديد الخصوبة، يقوم على دراسة الممارسات الاجتماعية التي تقوم أصلا على التغير. ومن هذا يمكن الوقوف على المزيد من الاختلافات والتقاطعات والتعارضات، بل والتضافر في أحيان كثيرة. الأمر الموّحد لها جميعا يقوم على قراءة المكونات الرئيسة التي يزخر بها النص الاجتماعي الذي يتم إنتاجه وبالتالي تداوله في مجال ما[٢١٠]. إنه الطرح المنهجي الساعي نحو ترصد الحقائق والمصالح في سبيل الوقوف على ملامح التأثير. ومن هذا لا يتردد الباحث في مجال تحليل الخطاب الإعلامي عن توظيف المفاهيم المتاحة وإن كانت متعارضة، بحث يقوم على الكشف عن ملامح التأثير دون الخضوع لتبني وجهة هذا الطرف على حساب الآخر. ولا ضير من توظيف المفاهيم في سياقات جديدة بعد تكييفها[٢١١]. الواقع أن تحليل الخطاب ينهل عن مجالات معرفية وتخصصات فكرية مختلفة، ومن هذا تبرز أحوال الاختلاف في التحليل. حيث الاستناد إلى الفرضيات والمقولات المعبرة عن المرجعيات والرؤى والتصورات الخاصة بكل منهج في طريقة تعاطيه وتحليله لمسألة اللغة ودورها في البناء الاجتماعي[٢١٢]. لاسيما وأن كل منهج اشتغال إنما إنطوى على الظروف والمقومات والسياقات المعرفية الخاصة به. واستند إلى جملة من المؤثرات التي شكلت طريقة النظر الخاصة به حول الثقافة والمجتمع[٢١٣]. فعالية تركز على قراءة الكيفية التي يتم فيها تفاعل وطريقة استقبال

---

[210]. Fern L. Johnson, 2008, Imaging in Advertising: Verbal and Visual Codes of Commerce, Routledge, New York, p 8.

[211]. S. Kumlin, 2004, The Personal and the Political: How Personal Welfare State Experiences Affect Political Trust and Ideology, Macmillan , New York, p 67.

[212]. Cynthia Clamp, Stephen Gough, Lucy Land, 2005, Resources for Nursing Research: An Annotated Bibliography, SAGE, London , p 250.

[213]. Michael Groden, Martin Kreiswirth, Imre Szeman, Editors, 2012, Contemporary Literary and Cultural Theory: The Johns Hopkins Guide, JHUP Press, p.446.

الجمهور للخطاب الإعلامي، بناء على الممارسة التي يتم فيها إنتاج النصوص والطريقة التي يم فيها استهلاك تلك النصوص من قبل الجمهور[٢١٤].

ما يميز تحليل الخطاب استناده إلى النقد الجذري لمدى العلاقة القائمة بين السلطة والمجتمع، والهيمنة والأيديولوجيا، حيث التطلع نحو قراءة مجال التأثير. حيث الحضور الطاغي والمؤثر للأيديولوجيا لغويا وخطابيا، وكيف يمكن أن توظف في تفسير المواقف الاجتماعية. فالسيطرة والهيمنة لا يمكن تفسيرها بناء على النموذج الجاهز للقوة حيث السطوة والإكراه، بل أن الممارسات صارت تكشف عن تحولات عميقة الدلالة، تلك التي راحت تستبدل قوة الإكراه بقوة الإقناع. بوصفه الطريق الذي يضمن المزيد من الهيمنة والسطوة والسيطرة[٢١٥].

[214]. Craig Rollo, 2007, Economically Speaking: Essays in Honour of Chris Braecke, Garant , Belgium, p 325.

[215]. Mike Friedrichsen, Yahya Kamalipour , Editors,2017, Digital Transformation in Journalism and News Media: Media Management,, Springer, Berlin, p 221.

المبحث الثاني

دور الصحافة في استشراف المستقبل

التوقف عند وصف ظاهرة الصحافة الإلكترونية، عبر تتبع الأسئلة المتعلقة باحتمال نهاية عصر الصحيفة المطبوعة، من خلال التوقف عند الطبعة الإلكترونية المجانية السهلة المنال، وأحوال المنافسة والانخفاض الملفت الذي راحت تتعرض له الصحف المطبوعة للمدخولات المالية الإعلانية، فيما يكون التفحص عند تحليل سمات الظاهرة، بوصفها أن التشكل النهائي لها لم يستقر بعد على صعيد السمات والمواصفات.

على صعيد حديث الأرقام، تكون القراءة في تقديم جملة من الأرقام والنسب التي تعرضت لدراسة الظاهرة، عبر الجهد الذي بذلته مؤسسات بحثية عالمية، تصدت لمتابعة الأحوال والأوضاع، إن كان على صعيد تحديد نسب عدد المستخدمين لخدمة الشبكة العنكبوتية، ووالقيم المالية المتعلقة بالإنفاق الإعلاني والمواقع الإخبارية ومحاولة ترصد الفجوة القائمة بين التطورات التي يشهدها العالم، وواقع الاستخدام لخدمة الإنترنت في العالم العربي.

في محور التحديات التي تواجهه الصحافة، يكون الترصد عند مجال التحدي الذي فرضته أحوال وأوضاع منافسة الفضائيات للصحف المطبوعة، وبروز الوسائل الإعلانية الجديدة وتنامي تقاليد التسويق المباشر، أما على صعيد الاستراتيجيات، فإن القدرة على التكيف الذي قيض للصحافة أن توظفه لصالحها في مدار العلاقة القائمة مع منتجات التطور التقاني الذي رافق ملامح تطورها التاريخي، من تلغراف وهاتف وراديو تلفزيون، فإن الكلمة المطبوعة بقيت تعيش حالة العلاقة الرمزية، حيث الثقة التي كانت تند عن الأجيال التي نشأت على احترام المطبوع وتثمينه وتقديره، فيما تتبدى ملامح علاقة جديدة، ما انفكت تتشكل ملامحها على يد الجيل

الجديد الذي راح ينشأ على ثقافة السمعي والمرئي وثقافة غزو الفلاش والمؤثرات اللونية والبرامجية والزخم الهائل لثورة الإنفوميديا.

من المهم أن يكون التوقف عند طرح حزمة من الأسئلة، المتعلقة بقضايا مستقبل العلاقة القائمة بين النسخة الإلكترونية والمطبوعة، وقضايا التمويل والمهنية والاحتراف والفضاء التفاعلي، وأحوال التمثلات العربية لهذه الظاهرة، وآفاقها المستقبلية على الأجيال العربية الطالعة.

في وصف الظاهرة

في المقاهي، في الحافلات، في صالات المطارات، في المترو، في القطار، صار اللابتوب وجهاز الموبايل والقارئ الإلكتروني، هي الأكثر حظا في الحمل والاقتناء من قبل الجمهور، على حساب الحضور الخجول والنادر للجريدة. إنها أحوال الصراع، بين تقاليد راسخة وعادات درج عليها المجتمع، حتى غدت جزءا من الذاكرة الجمعية. وأوضاع جديدة مستحدثة تفرضها سنن التطور والتحول، تلك التي تقدمها الثورة التقانية والبرمجيات والثقافة الرقمية.

ما الذي يمكن ترصده من هذه الأحوال، وما هو المدى الذي تتفاعل فيه هذه الظاهرة، وما هي الانعكاسات التي يمكن أن تتبدى على واقع الصحافة. وما الاحتمالات التي يمكن توخيها، إن كان على صعيد التشاؤم أم التفاؤل، الإيجابي أم السلبي، النهوض أم النكوص، القوة أم الضعف، الاستقلالية أم التبعية. ثنائيات لا تنفك تحضر بكل قوة لتحفز الأسئلة وتثير المزيد من الرؤى ولتصورات، فيما يبقى الواقع يشير إلى أن العالم يعيش لحظات التحول، من دون الخضوع لمنطق الـ (**لو**) حيث الأماني المجهضة، أو هيمنة الرومانسي على حساب الموضوعي.

يكشف الواقع عن الجملة من المشكلات التي راح يواجهها قطاع الصحافة الورقية، لاسيما على صعيد الانخفاض الملفت في دخل الإعلانات، إلى الحد الذي باتت فيه الأحوال تشير إلى احتمال نهاية عصر الصحيفة المطبوعة، بإزاء الطبعة الالكترونية المجانية، السهلة المنال. إنها أوضاع البحث عن المستخدم الجديد، في ظل التنافس والتزاحم الصادر عن المؤسسات الإعلامية.

وسعيها المحموم نحو الحضور والتأثير وممارسة الدور المناط بها. فيما تبقى ملاحظة جديرة بالاعتبار، تلك التي تقوم على أن الظاهرة لم تتضح معالمها ولا سمتها النهائية، فهي مازالت تعيش تفاعلات الاحتمالات المفتوحة.

تحديات تواجه الصحافة

في الاعتياد على الربط بين قهوة الصباح والجريدة، يمكن القول أن الأحوال قد تغيرت، فإذا كان الربط الصارم بين معرفة أحوال العالم، الذي توفره النشرة الصباحية الإذاعية، والتفصيلات التي تقدمها الجريدة، فإن العالم الأكثر حسما بات يقوم على الدور الذي تتصدره الفضائيات، حيث قوة السمعي والمرئي والتأثيرات البصرية، وقوة المتابعة ودقتها ومباشرتها، كلها كانت بمثابة العوامل، التي راحت تحد من سلطان تأثير الجريدة. فيما تأتي وسائل الإعلان الجديدة من؛ لوحات ضوئية وجداريات وشاشات عرض تلفزيونية عملاقة، وأدوات ووسائل مختلفة تتعلق بإعلانات الرسائل النصية والإيميل، والقدرة الواسعة على التسويق المباشر، لتجعل من الجريدة، وسيلة إعلانية فيها من المحاذير الشيء الكثير.

على الرغم من قوة المنافسة التي تدخل في نطاقها الصحافة المطبوعة، إلا أنها تبقى وسيلة الاتصال الجماهيري الأوسع والأكثر ثباتا على الأقل تقدير، في الوقت الراهن، حيث التسعيرة الرمزية، ومشاعر الولاء والانتماء، لهذه الجريدة أم تلك، وطريقة التعاطي مع المؤسسة الصحفية[٢١٦]، بمجتمعها ومؤسساتها وتقاليدها ومهنيتها. والواقع، أن التحديات التي واجهتها الصحافة لم تكن بالجديدة عليها، فقد واجهت التحديات التي فرضتها مرحلة اختراع التلغراف والهاتف والراديو والتلفزيون، وكان لهذه المخترعات أثرها في النشاط الصحفي. إلا أن التحدي الأهم كان قد استند إلى فعل (الاستيعاب **والتحويل**)، حيث قيض للصحافة من اعتماد هذه المخترعات،

---

[٢١٦]. أعمال مؤتمر (مستقبل الصحافة الورقية في عصر الفضائيات)، المنامة ٤ مايو ٢٠١٠.

وتوظيفها بما يخدم العمل والنشاط الصحفي، انطلاقا من التجذير لقوة الكلمة المكتوبة، ومدى مصداقيتها لدى المتلقي.

واقع العلاقة

في ظل التوسع الهائل للمواقع الإلكترونية، فإن صحف العالم غدت تدير مواقع إلكترونية، مصاحبة لنسختها الورقية، بل أن أحوال التفرع باتت تشير إلى أوضاع التفرع، فعلى سبيل المثال، اتجهت مؤسسة نيوز لنك الأمريكية عام ١٩٩٨، إلى إصدار ٤٩٠٠ جريدة إلكترونية موزعة على أنحاء العالم، منها ٢٠٠٠ جريدة إلكترونية تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية. وإذا ما رجعنا إلى العام ١٩٩٤، أي بحساب زمني قدره أربع سنوات لوجدنا أن عدد الصحف الالكترونية في ذلك العام كان عددها لا يتجاوز ٨٠ صحيفة فقط.

لقد اتجهت الصحف إلى الفصل بين النسختين المطبوعة والإلكترونية، في الوقت الذي بقيت فيه النسخة الإلكترونية، تحظى ميزة تجديد المحتوى على مدار اليوم، ومزايا السبق الزمني للنسخة المطبوعة. ومن هذا فإن البوابة الإلكترونية غدت تحظى بالاستقلال وترسيم ملامح الشخصية المميزة عن المطبوعة، حتى لتغدو وكأنها الأخ غير الشقيق للمطبوع.

لا شك أن الصحافة قد استفادت وبعمق من الشبكة العنكبوتية، حيث اليسر والتسهيل في نشر واسترجاع البيانات والمعلومات، إلا أن التناقضات تبقى تفصح بتفصيلاتها، فإذا كانت المزيد من الصحف قد اضطرت إلى إغلاق مواقعها الإلكترونية، بسبب الهزات المالية العنيفة التي تعرضت لها. فإن صحفا أخرى قيض لها أن تبدأ إلكترونية لتصبح بعد حين ورقية يتداولها الجمهور.

الحيز الواسع والخيارات المتعددة

في المقارنة المباشرة بين المطبوع والافتراضي، فإن الجردة الحسابية تبقى تشير إلى أوضاع التفوق لهذا الأخير، حيث البريد الإلكتروني ومزايا البحث والأفلام والموسيقى والصورة والصوت.

فيما تبقى حرية التعبير واسعة وبشكل يدعو إلى الإغراء للإفلات من عين الرقيب الرسمي أو القوانين الصارمة التي تفرضها قواعد النشر الرسمية. إنها التعبير المباشر عن إيقاع العصر والتجليات البارزة العيان للعولمة والثورة المعلوماتية. إنها ملامح التفاعل مع الفضاء المعلوماتي، حيث التسلل والاندراج في تفاعيل الحكومة الإلكترونية، والتجارة والمدن وجامعات التعلم عن بعد.

رؤى المستقبل

كيف السبيل إلى تحسس الظاهرة، هل يقوم على تعميق الفصل بين الورقي والإلكتروني، أم التطلع نحو الدمج بينهما، باعتبار المسعى الأصيل الذي يقوم عليه العمل الصحفي، حيث الرسالة الإعلامية. ومابين تشاؤم وتفاؤل تبقى القاعدة الذهبية تقوم على أهمية الأخذ بتنويع النشاط الإعلامي، من دون الوقوع في دوامة التحيز لهذا النموذج على حساب آخر.إنه خيار البحث عن المحتوى الذي يجذب القارئ، ويقدم له الخدمات المتميزة[٢١٧]، وعلى هذا اتجه الجمهور نحو مواقع بعينها، بعد أن وجدوا ضالتهم فيها، هذا بالإضافة إلى أسلوب (**الترويج المتقاطع**) وخير من تفاعلت ضمن آلياته، قناة CNN والتي عملت على تطوير موقعها الإلكتروني، بالإضافة إلى تجربة محطة BBC والخدمات التفاعلية التي راحت تقدمها للجمهور. لقد بات الموقع الالكتروني للصحف الشهيرة، إطارا خاصا، يبحث عن تميزه، عبر تقديم خدمات؛ الأسهم وأسعار العملات والطقس، ورحلات الطيران، والمتابعة الخبرية لحظة بلحظة، مضافا إليها خدمات الأخبار المصورة.

ومن دون الوقوع في دوامة التهليل، والشغف بالظاهرة، فإن الواقع يبقى يفصح عن جملة من العوائق، لاسيما في المجال العربي، حيث البطيء في خدمة التصفح والمشاكل التقانية التي تواجه المستخدم، والانقطاعات المتكررة. فيما تبقى الكلفة بمثابة العائق الأبرز في مستوى التوجه نحو تعميم الظاهرة، ولنا في هذا أن نعمد إلى المقارنة، بين حجم المستخدمين في الولايات المتحدة، والذين يبلغ عددهم ١٥٠ مليون مستخدما لخدمات الإنترنت، مقابل النسب المتواضعة في المجال

[217] Elizabeth Eisnstein ,The Printing Press as an Agent of Change, Cambridge 1979,V1, p 505.

العربي. وتبقى العراقيل والعقبات الاجتماعية والسياسية فاعلة وحاضرة، حول طرق الاستخدام الأمثل والأنجع، الذي يناسب الواقع العربي.

القراءات والمتابعات

تتيح خدمة الموقع الإلكتروني ميزة المتابعة من أي مكان وفي أي وقت، والأمر هذا يمنح المتابع ميزة قراءة جريدته المفضلة، حتى وإن كان بعيدا آلاف الأميال.لكن صعوبات التصفح تبقى بمثابة المعيق الأكبر، حين تتم المقارنة مع النسخة الورقية. ومن دون الاستغراق في التفاؤل فإن نسبة المستخدمين العرب لخدمة الإنترنت، تبقى متواضعة وبشكل لافت، هذا بالإضافة إلى جملة من المعيقات البنيوية، تلك التي تتعلق، بالتسويق الإلكتروني وهزال العوائد المالية المتوقعة منه، وغياب الكادر الصحفي المحترف، والذي يمكنه أن يقوم بعمليات الإدارة والتحرير، وغياب القدرة على الوصول إلى مصادر المعلومات.

العوائق والصعوبات

مازالت النسخة الورقية، تمثل الهاجس الأهم في الوسيط الصحفي العربي، فهي الإطار الشرعي، الذي يحظى بالموثوقية والتقدير والاعتراف، فيما تبقى طريقة النظر إلى الكاتب في الموقع الإلكتروني، وكأنه دخيل. حتى بات الوسط الصحفي يتداول وصفا، بمستوى الشتيمة يتم اختصاره بـ (كتاب الإنترنت). وإذا كان العالم يمور اليوم بأحوال التنافس بين الورقي والافتراضي، فإن الواقع الصحفي العربي مازال يعيش غياب الرؤية الحاسمة والدقيقة حول هذا الموضوع، بل أن الصحافة الإلكترونية صارت نهبا لحضور من لا مهنة له، وبهذا فإن الروح الاحترافية والمهنية تكون غائبة، يضاف إليها الغياب للتشريعات والقوانين التي يمكن أن تنظم وسائل العمل فيها، وفوق هذا كله تبرز إشكالية العائد المالي، الذي يغيب وبشكل لافت في المجال الإلكتروني، عند التجارب الصحفية العربية.

في التوجهات الحديثة

يشير أستاذ الإعلام في جامعة كانتاكي، دوغلاس بويد، إلى أحوال التغير السريع الذي يشهده قطاع الصحافة، وما يترتب على هذا الأخير من تحديات تتمثل في:

١.الانخفاض في عدد قراء النسخة الورقية، وتوجه القراء نحو متابعة النسخة الإلكترونية من الجريدة ذاتها، والإشارة هنا لا تتم وفقا للحديث المرسل، بقدر ما يكون للنسب دورها الأكيد والواضح، فإذا كان الورقي يتحصل على نسبة ٧٩% من مجموع القراء خلال منتف الثمانينات، في الولايات المتحدة خلال منتصف الثمانينات من القرن العشرين، فإن النسبة الراهنة باتت تصل إلى ٢٥%.

٢. هل يمكن الاعتماد على توزيع النسب في إطلاق أحكام حول مستقبل الصحافة الورقية، الأمر هنا يبقى منوطا بطريقة التعاطي مع التطورات والتحولات، فالمستفيد الأول هو الصحافة، أما طرق إيصال الرسالة الإعلامية، فتبقى رهنا بمدى المرونة التي تبديها القيادات الصحفية، حول الإفادة من التقانة الحديثة، حيث المسعى نحو إنشاء المواقع المصاحبة، وبطريقة لافتة، تقوم على اعتماد الإبهار البصري، واستخدام تقنيات الصوت والصورة والغرافيك، وتفاعلات القراء وتعليقاتهم.

٣. الإفادة من تجارب كبريات الصحف العالمية، فجريدة وول ستريت جورنال، اعتمدت نظام الاشتراك المالي للإطلاع على محتواها الإعلامي، فيما توجهت النيويورك تايمز نحو فرض رسوم مالية للاطلاع المقالات التي يكتبها بعض كبار الكتاب فيها، لكنها بالمقابل سمحت بالإطلاع المجاني على صفحات الأخبار والتحقيقات.

هل نعيش اليوم لحظة المرحلة الانتقالية؟ هذا السؤال يجيب عليه مدير مركز ريادة الإعلام الإلكتروني في جامعة أريزونا، دان غيلمور، مستندا إلى جملة الملاحظات الرئيسة؛ حيث الإشارة إلى

أن الانتقال نحو الإلكتروني، بات ظاهرة عامة وشاملة، لا تتوقف عند الصحافة، بل راحت تتمدد على المجمل من الأنشطة التجارية والإدارية والأكاديمية[٢١٨] ودفاتر الملاحظات الشخصية، الذكية التي تحمل التعريف بهويتك. المهم أن العمل الصحفي يقوم على عملية البحث عن المعلومة الموثقة والدقيقة، وهذا يتطلب دراسة وكفاية ومرانا وخبرات وتمويل وتأهيل، تشكل عماد التقاليد الصحفية، إن كانت إلكترونية أم ورقية، المهم أن الغاية فيها تقوم على خدمة القارئ، وإيصال المعلومة إليه.

المدونات وفوضى الاتصال

هل يمكن إخفاء الرؤوس، والقول بأن أوضاع الصحافة الورقية تعيش أبهى صورها؟ هل تمكنت الصحف أن تنأى بنفسها عن عواقب وأخطار الأزمة المالية التي يعيشها العالم اليوم؟ وهل غاب عن المشهد الحضور اللافت لوسائل الاتصال الرقمي وأخذ المبادرة في الحضور والتأثير. وإذا كانت التقاليد العريقة قد جعلت من الصحف التقليدية، تعيش لحظات بقائها حتى اللحظة، فإن النسخ الرقمية للمدونات والصحف الإلكترونية، راحت تتقدم بقوة لافتة، لكنها لم تتخلص من سمتين تبقى ملاصقة لها، حيث

١. فوضى المادة والمحتوى.

٢. عدم الثقة بالمعلومة التي تقدمها

٣. بروز ظاهرة صحيفة التجميع، القائمة على (القص واللصق) والتصميم الجاهز. والسطو على جهود الآخرين دون الإشارة إلى المصدر، أو حتى في حال الإشارة، فإن الأمر يبقى بعيدا عن منح حقوق الآخرين الأدبية والمادية.

---

[218]. Robert Seidensticker, Future Hype; the myths of technology change, san Francisco-California 2006, p 21.

٤. الحرية المنفلتة من عقالها، حيث تحولها إلى منابر للتشهير والسب والقذف والطعن المجاني.

في ترصد الظاهرة عربيا

لا يمكن التغاضي عن الجهود التي تبذلها العديد من المراكز والمؤسسات العربية في تقصي الظاهرة، وعقد الندوات العلمية والورشات ووالمؤتمرات. فجامعة الدول العربية سارعت نحو إنشاء اللجنة العربية للإعلام الإلكتروني، وبمشاركة جادة من قبل ممثلي وزارت الإعلام العربية، حيث التطلع نحو العناية بهذا القطاع، الذي أصبح حقيقة واقعة، يحب العناية بها والتطلع نحو فتح آفاق تطويرها، ومن هنا كانت المقترحات المتعلقة، باستحداث مجموعة من الجوائز، التي تترصد النشاط الصحفي الإلكتروني، والسعي نحو العناية بأجيال الإعلاميين الشباب المتخصصين في هذا المجال، والتوجه نحو خلق الأجواء المهنية والاحترافية التي تساهم في خلق جيل من الصحفيين الإلكترونيين، القادرين على مواجهة التحديات والمتغيرات، التي يقوم عليها هذا القطاع. إنه الوعي بأهمية التعاطي مع واقع أصيل بات يعرف بـ (التحول الرقمي)، يحتاج إلى تضافر الجهود من أجل خلق الأجواء المناسبة نحو الإفادة من الفضاء التفاعلي الذي يقوم عليه.

صحافة بلا ورق

هل يقتصر الأمر على كبريات الصحف العالمية، في طريقة الإطلاع على المحتوى، عبر الإنترنت؟ فالنسب المعلنة تشير إلى أن ٥٠% من قراء الوول ستريت جورنال، ونيويرك تايمز، وذي إيكونومست، يطلعون عليها عبر الإنترنت. والظاهرة باتت تطال الصحف العربية الشهيرة، حتى أن المفضلة في الحواسيب الشخصية العربية، باتت تشير إلى تخزين مواقع الحياة والشرق الأوسط والنهار والراية والرياض وغيرها من كبريات الصحف. الأمر هنا يقوم على بقاء الصحافة مؤثرة وحاضرة في نفوس القراء والمتابعين، لكن عادات التعاطي معها، هو المختلف، والقضية برمتها لا

تستدعي سوى ضغط زر في جهاز المحمول[٢١٩]، لاستدعاء الصحيفة الأثيرة لديك، من أجل الإطلاع عليها وأنت ترتشف شاي الصباح، أو في أوقات انتظار باص النقل العام.

إنه التغير في طريقة التعاطي مع أسلوب التوزيع التقليدي الذي قامت عليه، تقاليد وصول الجريدة إلى المتلقي والمشترك، وهي لا تخرج أيضا عن طريقة البحث عن الخبر في الأوعية المستحدثة، حيث المواقع التفاعلية التي تتصدرها، تويتر أو فيس بوك. هي مسألة طريقة التعاطي مع الوعاء الورقي، وما ينجم عنه من معيقات تتعلق بكميات الورق المستخدم، ومشكلات الزيادة في سعر الورق، ومشكلات الطباعة وأدواتها والعمال والفنيين والصيانة، وقضايا الشحن وأسعاره التي تتضاعف في ظل أزمة الوقود، والتعطيل في الوصول بالوقت المناسب للزبون.

الصحافة الافتراضية

مواقع الصحف ونتيجة لذيوع شهرتها، تعد مواقع تعريف لا يمكن التغاضي عنها، حتى أن العديد من السياح لا يتورعون عن تصويرها والفخر بزيارة موقعها. لكن المستحدث في عمل النسخة الرقمية، إنما يقوم على توسع المجال الافتراضي، حيث الغياب لمقر الجريدة، أما رئيس التحرير فمقره يكون عند حاسوبه واشتراكه في خدمة الشبكة العنكبوتية، واجتماعه مع مديري التحرير والمحررين، إنما يتم عبر الماسنجر، وتبادل البريد الإلكتروني، فيما يتم الاستغناء عن المصمم في ظل الحضور القوي واللافت لبرامج التصميم، التي تمتاز بالدقة والنجاعة والسرعة والقدرة على التحكم بها، من دون مصاريف إضافية.

إن واقعا كهذا سينجم عنه، خلق أجواء صحفية جديدة، تقوم على إلغاء طائفة من المهن الواسعة والكبيرة، حيث الإضرار البالغ بصناعة الورق ووشركات صناعة الطباعة، وشركات

---

[219] Warren Bennis, Rethinking the future; rethinking business, principles ,competition ,control ,London 1998, p 26.

الأخبار، وشركات التوزيع والشحن، وقطاع هائل من الموظفين والعمال. لكن هذا يبقى ضريبة للتحولات التي يشهدها العالم، فيما تبقى القدرة على التكيف حيث الاستيعاب والتحويل في النشاط الإنتاجي، رهنا بقدرة القطاعات الإنتاجية على الاستمرارية، والتعاطي مع الواقع.

النسخة الإلكترونية والإضافة الصحفية

بين عملين أو نسختين، ورقية وافتراضية، يكون البحث عن السمات والخصائص التي تميز كل نموذج، فإذا كان الورقي قد اعتمد الرسوخ والتقاليد وتجذر العلاقة المؤسسية والسمات البارزة لكل جريدة، فإن الإلكترونية تأتي لتطرح ما لديها عبر الآتي:

١.توسع مجال الحرية في الطرح والتعاطي مع القضايا، لكن هذه الحرية تبقى رهنا، بطبيعة الوعاء، فالحرية تبقى معيارا أصيلا في طريقة طرح القضايا، حيث المسؤولية، فيما تبقى النسخة الافتراضية من الصحف التقليدية، تعيش موجهاتها الأصيلة وسياساتها التي قامت عليها.

٢. نهاية تأثير عنصر التوقيت والمكان، فالأمر لا يقوم على المحلية، بقدر ما يكون إفساحا لعرض قضايا الداخل وانفتاحها على الخارج.أما على صعيد التوقيت فإن التحديثات تبقى مستمرة على مدار الساعة، من دون انتظار القارئ لتوقيت محدد في سبيل الإطلاع على قضية ما.

٣. حث الجهاز الصحفي على تطوير الأداء والمهارات، بما يتناسب وطبيعة التحديات التي راح يفرضها المجال الافتراضي والتطورات المتلاحقة، حيث اللهاث وراء الجديد.

٤. بروز نموذج الصحفي العابر للحدود المحلية، فالقارئ صار يعرف المزيد من الصحف الصادرة في أقاصي الأرض، ويتابع التفاصيل الدقيقة عبر النقر على حاسوبه الشخصي.

٥. فسح المجال التفاعلي، عبر العناية بتعليقات القراء على أعمدة الرأي والأخبار.

٦. التغير في نمط الإنتاج الصحفي، حيث الصورة التي تتغير وفقا للأحداث، ووإضافة أفلام الفيديو واستقبال المواقع المصاحبة، واستخدام الرسائل الصوتية، باختصار، إنه العالم الجديد من الاستخدام العام والشامل، للمجمل من النتاج التقني(٢٢٠) الذي بلغه العالم.

في أوضاع التنافس

بين الورقي والإلكتروني، يتبدى الواقع الصحفي وهو يعيش لحظات الحضور الواضح، لفسحة الحرية التي تتحرك فيها النسخة الإلكترونية، حيث الخلاص من سلطة الرقيب التقليدية، فيما يكون التوجه من قبل القراء واسعا، باعتبار التيسير وسهولة الإطلاع عبر جهاز الحاسوب الشخصي، هذا بالإضافة إلى السرعة والآنية للمتابعة الخبرية، والمتابعة المباشرة لموقع الحدث. ومن هذا فإن النسخ الورقية وجدت نفسها في لجة من الاحتدام والتنافس العالي، مما جعل القائمون عليها يتوجهون، نحو تحسين المادة الصحفية وتطوير المعالجة، مع العناية بالشكل والطباعة، والاهتمام بالصورة والألوان والمتابعة لكل ما هو جديد، فالواقع بات يشي بعدم الاطمئنان لما هو قائم، بل أن التحدي صار بمثابة العنوان الرئيس لأجواء العمل الصحفي، وبالتالي، فإن الفائدة تصب في صالح العمل الصحفي.

جدية الظاهرة، تتمثل في التوجه الواسع من قبل المسؤولين على شؤون الصحافة، لعقد المؤتمرات والملتقيات الدولية، لمناقشة تلك الظاهرة، والأمر لم يتوقف عند الجهود التي يبذلها نادي دبي للصحافة، أو اللجنة الإعلامية الفرعية في جامعة الدول العربية، بل أن مجمل العواصم العربية، باتت تعقد الملتقيات، وتستقبل كبار الخبراء من المتخصصين في مجال الإعلام. أما على الصعيد العالمي فإن الأبرز يتمثل في مؤتمر الصحافة الإلكترونية الذي انعقد في مارس ٢٠٠٠ في العاصمة الألمانية برلين، وبمشاركة واسعة من قبل صحفيين من مختلف بقاع العالم، والمؤتمر

[220] Brian Cook, The Electronic Journal; the future of serial –based information, Australia 1992,p 106.

العالمي للصحافة الذي انعقدت دورته الثامنة والخمسون في العاصمة الكورية سيئول، بمشاركة أكثر من ثمانين دولة، وبإشراف من قبل الجمعية الدولية للصحافة والتي تتخذ من باريس مقرا لها. وتاتي أهمية تلك الندوات في كونها تضع يدها على التشخيص المباشر للظاهرة، حيث التوقف عند واقعية الظاهرة ومدى تأثيرها في الأوساط المختلفة. فإذا كان الحديث يترى حول سطوة النسخة الإلكترونية، وزحفها الشديد نحو الحضور والمزاحمة، والسيادة نحو المستقبل، إلا أن الواقع يبقى يكشف بجلاء، عن حدّة في طريقة التعاطي مع التقانة الرقمية، فالإحصاءات تشير إلى أن نسبة المستخدمين للشبكة العنكبوتية في الولايات المتحدة تصل حوالي إلى نسبة ٦٧%، وفي أوربا ٣٥%، أما في الوطن العربي فإن النسبة لا تزيد عن ٨%. ومن مطالعة الفرق الهائل في النسب، فإن الحديث عن السيطرة لجانب على حساب الآخر، يبقى رهنا بما يفرزه المستقبل من تحديات وتحولات[٢٢١]. إنه صراع المعلومة والمعرفة. والراسخ والطارئ.

[221] Maria Collins, Patrick Carr, Managing the Transition from Print to Electronic Journal and Resources, New York 2008, p 239

المبحث الثالث

تحليل المضمون بوصفه وسيلة منهجية

البحث عن المعنى الذي يحمله النص، أو القصد التبليغي المضمر داخل الموضوع، أو الرسالة الكامنة في النص، والمراد تبليغها إلى طرف بعينه. تلك هي أبرز المعطيات التي يتوقف عندها موضوع "تحليل المضمون"، واليات الاشتغال لا تتوقف عند نوع بذاته، أو تكرس تطلعاتها نحو غاية بعينها، بقدر ما تتوجه نحو التطبيق المباشر والعملي في مختلف وسائل الاتصال بحثاً عن تحليل المحتوى والوقوف على المعاني، من خلال طرق ووسائل استخدام الشفرات والرموز وصولاً إلى مضمون الرسالة، التي تتمظهر في أكثر من شكل وصورة وبنية.

مجال التراكم

كان لتراكم المادة الإعلامية خلال أوائل القرن العشرين، وتوسع مجالات الاتصالات، أثرها البالغ في التطلع نحو ظهور هذه التقنية المنهجية. إذ لم يعد مجدياً أمام هذا الزحف الهائل من المادة الصحفية المقروءة والمسموعة، أن تكون طريقة الوقوف على معطياتها، من خلال الحصافة والذكاء. فالأمر لم يكن محاولة لمواجهة حالة طارئة، أو ترفاً منهجياً يحاول البعض من أصحاب الكفاءات إثبات قدراتهم وألمعيتهم فيه، بقدر ما كان محاولة للتواصل مع "حقل" أثبت أهمية وفاعلية في توجيه الحشود والتأثير على الجماهير. وهكذا كانت الصحافة الميدان البكر، الذي شهد نشوء طلائع هذا المنهج، حيث التركيز على تحليل اتجاهات الصحف من خلال دراسة المادة الخبرية التي تحتويها، وطريقة إيصال المادة إلى القارئ، ومدى محاولات التأثير عليه. حيث يرتكز إليه المنهج على طريقة المقارنة بين الاتجاهات التي تحملها [٢٢٢] الصحافة ومدى علاقتها بالحقائق الموضوعية المتعلقة بالقضية المدروسة.

النجاح اللامع الذي تحقق لآلية منهج تحليل المضمون، في مجال الصحافة هيأ لها التسلل في ميادين العلوم الإنسانية المختلفة، حيث بدأت آليات التطبيق في مجال علم

---

[٢٢٢] د.محمود قاسم، المنطق الحديث ومناهج البحث، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧، ص١٤٨.

الاجتماع وتحليل النصوص الأدبية وعلم السياسة. ولم يتوقف التطبيق عند هذه العلوم، بل تخطاها ليشمل الأعم والأغلب من العلوم الإنسانية، حتى غدا منهجاً ذا حضور فاعل، يتم من خلاله الوقوف على معطيات ثابتة ووضعية للتحليل والتفسير وتحديد الدلالات التي يزخر بها النص الذي يؤدي وظيفة الاتصال وفق الخصائص المميزة له، انطلاقا من أساس موضوعي ودقيق يتميز بالعلمية، حيث التوزيع وفقاً لوحدات لها خصائص ذات فرادة ومعنى خاص بها.

من هنا يمكن الوقوف على العديد من الأفكار التي يقدمها النص، استنادا الى آلية فرز الوحدات، والتي تقدم تصنيفاً واضح المعالم للمعاني في مجموعات محددة. وبهذا تتيسر عملية المقارنة بين المجموعات أو الوحدات التي يحملها النص، حيث يقيض للباحث إمكانية الوصول إلى النتائج، عبر سلسلة من المقارنات المنهجية الواضحة، القائمة عل التوزيعات المتكافئة. وليس الاستناد إلى الحدس والتخمين أو الذائقة النقدية، هذا مع الاعتراف بأهمية هذه العوامل كأسس ثابتة لابد للباحث أن يتوافر عليها. ولكن تبقى مسألة المنهج ذات حضور وفعالية في كشف الغموض التي تعتري العديد من الجوانب التي يقوم عليها النص. وهكذا يأتي الاستنتاج في تحليل المضمون مستنداً إلى خطوات معلمة واضحة لا لبس فيها، غايته الوضوح والتفسير القائم على تحليل المعطيات من خلال القراءة الفاعلة [٢٢٣]، التي لا تتوقف عند الظاهر في النص، بل تعتمد للغور عميقاً في باطنه وصولاً إلى المعنى. بعبارة أخرى يمكن القول بان "تحليل المضمون" يعد نوعاً من القراءة الأخرى، المختلفة عن القراءة التقليدية، غايتها المعاني المضمرة والأفكار المسكوت عنها التي يحملها النص. وعدتها العمل على تأويل الخطاب وتحليل أنساقه ومعانيه، عبر جميع الموجهات الممكنة من ذاتية أو موضوعية، فالأمر لا يتوقف عند حدود التطلعات الذاتية، وجعل النص أو الخطاب خاضعاً لها، أي العمل على اعتباره "حمال أوجه"، ليتم عبر هذا العمل، تحميل النص مالا طاقة له به، أو تركيب معطيات ومسلمات وبديهيات لاعلاقة لها بالغاية الرئيسية التي أعد من أجلها الخطاب.

إن توجهاً كهذا سيعمل على هدم محتوى الخطاب، وتمزيق أواصر المعنى فيه "ظاهراً وباطناً" بل أن الأمر بأجمعه لن يتجاوز، لعبة الإخضاع والتمويه والخداع الرخيص. فالانتقاء والابتسار وبتر النص، كمحاولة لالباسه معنى أخر، لم تكن بالتقنية الجديدة، بقدر ماهي ممارسة شديدة القدم، عمد إلى ممارستها الأولون بكثافة من أجل التنكيل بخصومهم والنيل

---

[٢٢٣] سمير محمد حسين، تحليل المضمون، عالم الكتب، القاهرة ١٩٨٣، ص٢١.

منهم، وتوكيد خروجهم ومروقهم وتكذيبهم وتكفيرهم. بل أن هذه الممارسة تتصاعد حتى ممارستها خلال المواجهات والحروب الناشبة بين الأطراف [٢٢٤]، حيث يعمد كل طرف إلى انتقاء نصوص بعينها من الطرف المقابل، وتحميلا معاني أخرى ومعطيات مختلفة.

وإذا ما صدقت الحال على "سوء النية"، فان المنهج الموضوعي في "تحليل المضمون" لا يخلو هو الآخر، من مزالق ومطبات "حسن النية"، فعلى اعتبار سعة عملية التأويل وتشعبها، قد يقع الباحث في مزالق قلة الوعي بالمادة الخاضعة للتحليل، لاعتبارات نقص المعلومات أو الخبرة، أو ربما إساءة تفسير الشفرات والعلامات، أو الخضوع لمؤثرات نفسية داخلية كامنة في الشعور، أو حالة التقاطع في النسق الثقافي وعدم الإلمام بطبيعة الخطاب الذي يحمله الآخر، حيث الاختلاف في أنماط التفكير وموجهاته.

الاحتكامات الذاتية والموضوعية

اجتهد المشتغلون في مجال "تحليل المضمون" على تنقية هذا الحقل من الاختلالات الداخلية، والمضامين الذاتية التي يحملها الباحث، متوخين الدقة والصرامة العلمية والالتزام الموضوعي، حيث الحرص على تثبيت المعالجات والخطوات المنهجية، طبقاً لمعطيات الفرض واختيار العينة ووحدة القياس والإحصاء. وعلى هذا الأساس كانت البدايات لبروز المحددات والوسائل التي يتم من خلالها معالجة الظواهر المراد دراستها، بتطلع شامل وكلي غايته الإحاطة بالتفصيلات والأجزاء المتعلقة بالموضوع. ومن أجل الوصول الى الغاية العلمية، حيث الوصول الى النتائج، فان الجانب الموضوعي يتبدى حاضراً في التوجه نحو البحث الخالي من الأغراض الشخصية والثوابت والغايات والأهداف المسبقة، بل أن التطلع المنهجي المحدد بخطوات بحثية ثابتة ودقيقة صارمة، يعد المفتاح الأهم للوصول إلى النتائج المتوخاة.

يتيح "تحليل المضمون" للباحث الوقوف على العديد من المعطيات الإدراكية، وفقاً للمرونة الكامنة فيه، كأداة منهجية خاضعة للاستدلال المنطقي ببعديه من العام إلى الخاص حيث "الاستنباط"، أو من الخاص إلى العام "الاستقراء". فيما يحدد الموضوع ذاته، طبيعة الأداة المنهجية المستخدمة في معالجة الخطاب. وهكذا تكون أدوات التحليل الأساس الذي

[٢٢٤] د.احمد اوزي، تحليل المضمون ومنهجية البحث، الشركة المغربية للطباعة، الرباط ١٩٩٣، ص١٣.

يتوقف عنده الباحث لجلاء مكنون الخطاب وحل رموزه وشفراته، وإذا ما كانت الأصول " الإعلامية – الاتصالية [(٢٢٥)] قد فرضت حضورها على "تحليل المضمون" باعتبار بواكير الاستخدام، فان التطبيقات اللاحقة في حقول ميادين العلوم الإنسانية، كان قد أفصح عن تحديد نوعه في مجال التطبيق، حيث التأكيد على كونه أداة عقلية غايتها الفهم والإفصاح بلوغاً إلى الحقيقة.

لا تتوقف عناية "تحليل المضمون" بالكشف عن النص المكتوب، بل تتخطاها نحو اللغة الشفاهية والصورة والحلم والموسيقى والمواقف والأصوات، الإشارات والإيماءات والحركات. وعلى هذا يكون السعي نحو التحليل بلوغاً إلى المعنى، استناداً إلى إحصاء مفردات بعينها داخل النص والعناية بتصنيف علوم البلاغة والعلوم المتفرعة عنه حيث علم المعاني الذي يعنى بتكوين الجملة وأنواعها، والأسلوب المستخدم إيجازاً أم مساواة أم إطناب، وعلم البيان حيث التشبيه والمجاز والكناية، وعلم البديع حيث المحسنات اللفظية والمعنوية ([٢٢٦]). ويلعب الأسلوب الإحصائي دوراً بالغ الأهمية في تحديد المضامين المستهدفة، حيث يتم الوقوف على صياغات وكلمات يستخدمها كل طرف إزاء الآخر وصولاً الى تحديد موقفه وميوله واتجاهاته.

حساب الكم والنوع

إن عملية الفرز الإحصائي والكمي للكلمات والجمل والصياغات والحركات والإيماءات، لاتعني بحد ذاتها غاية قصوى يستهدفها "تحليل المضمون". فالأمر لا يتوقف عند هذا الحد، بقدر ما تتطلع العملية برمتها نحو الوصول إلى غاية محددة حيث المعنى المراد توضيحه. والمسألة لا تتعلق بإحصاءات وتحديد كميات، بقدر ما تمثل أداة للوصول الى المضمون والبحث في الدلالات التي تحشد بها الخطاب. ولابد من الإشارة هنا الى أهمية حالة التكامل التي يجب أن يعيها الباحث ويعمل على الربط بين الأسلوب الكمي والنوعي المستند الى الانطباعات، حيث تتوافق الخطوات المنهجية خلال سير البحث وفقاً لطبيعة الموضوع المبحوث. وعلى الرغم من

[٢٢٥] السيد يسين، تحليل مضمون الفكر القومي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٠، ص١٩.

[٢٢٦] هادي نعمان الهيتي، صحافة الأطفال في العراق، دار الرشيد، بغداد ١٩٧٩، ص١٢.

الأسبقية التي يحتلها التحليل النوعي في تحديد المضامين والاتجاهات والملاحظات والسياقات، فان الاتكاء على التحليل الكمي يساهم في بلورة [٢٢٧] اتجاهات البحث وفق الدقة المطلوبة.

العناية التي تطلع نحوها "تحليل المضمون" بالجوانب الشكلية، والحرص على تحديد القسمات الفارقة في الخطاب، جعل بعض المهتمين يؤكدون على أهمية التوقف عند ظاهر النص. والاكتفاء بحساب التكرار للكلمات والصياغات والجمل. لكن التوسع الذي شهده هذا المجال البحثي، جعل الكثير من الباحثين يتوقفون طويلاً عند هذه الظاهرة، ولم يطل بهم الأمر. حيث كشفت آليات العمل على أهمية الخوض في التحليل الباطني والبحث عن المسكوت عنه بين ثنايا النص. لاسيما وأن مجالات البحث لم تتوقف عند مواضيع بعينها، بقدر ما توجهت للتوسع في دراسة ميادين وحقول معرفية جديدة، ألزمت الباحث وفرضت عليه، شروط الولوج في مجال التأويل[٢٢٨] والتفسير والبحث عن الدلالات والمعاني.

إن حالة الرفد من العلوم الإنسانية الأخرى، كانت له الإضافة البالغة والمهمة في دعم هذه الأداة التحليلية بلوغاً للوصول إلى المضمون. فإذا كان الاهتمام ينصب أولاً نحو تفحص وتمعن المادة المكتوبة أو الشفاهية أو حتى الرموز والألوان والأصوات والموسيقى، فان العناية الأهم كانت قد تبدت في الأهمية التي بات يوليها الباحثون في هذا المجال، نحو دراسة ردود الأفعال الصادرة عن أصحاب الرسالة، أو الخطاب. وكان النهل الأهم قد تبدى من الفروض المنهجية التي قدمها علم النفس وعلم الحضارات المقارن. فمن أجل الوقوف على تحليل علمي دقيق لصاحب الخطاب، لابد أن تتوافر في الباحث معرفة بالثقافة التي ينتمي إليها صاحب الخطاب، حيث القيم والعادات والتقاليد والأعراف السائدة، ليتم من خلالها المقارنة والرصد المباشر للأفعال الصادرة عن المبحوث، ومدى درجة الثبات والانفعال فيها. هذا مع أهمية الأخذ بالاعتبار، اختلاف السياقات الثقافية وطبيعة الخطاب السائد لكل حضارة، مما يصدق"[٢٢٩]

[٢٢٧] نادية سالم، إشكاليات استخدام تحليل المضمون في العلوم الاجتماعية، مجلة العلوم الاجتماعية، الكويت ١٩٨٣، ص٤٤.

[٢٢٨] د.احمد اوزي، المصدر السابق، ص١٧.

[٢٢٩] سعد الدين إبراهيم، اتجاهات الرأي العام الغربي نحو مسألة الوحدة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٠، ص٢١.

للتمييز في مجال حضاري محدد، لايمكن أن يتوافق مع النمط السائد في حضارة أخرى. من هنا تتبدى أهمية تحديد مكامن الخطاب ومصدره الأصلي.

أسئلة الاتصال الستة

تقوم علاقة الاتصال على الدافع الكامن في "المرسل" والذي ينطوي على علاقة الذات بالموضوع في توجيه رسالته إلى "المرسل إليه"، فالرغبة تمثل الحافز الأصلي في "الذات"، فيما يمثل الموضوع "مرغوباً فيه". وهكذا تتبدى إنجاز الرغبة "اتصالا أو انفصالا"، وفق قيمة الموضوع الذي تحدده الذات الكامنة في كلا "المرسل والمرسل إليه". فالأول تتمثل فيه الرغبة، أما الثاني فيتمثل فيه الإنجاز حيث التواصل.

ولا يتجرد الموضوع من عوامل معرضة بغية الحصول على الإنجاز، فيما يدعم العامل المساعد محور الذات في الخطاب، وعبر هذه العلاقة الصراعية قدم "غرايماس" نظرية العامل في دراسة بنية الخطاب. ويبقى التمثل شاخصاً بين هذه العوامل عبر محور الرغبة[٢٣٠] الذي يربط بين "الذات والموضوع"، ومحولا الصراع القائم بين "المعيق والمساعد"، ومحور البلاغ بين "المراسل والمرسل إليه". ويبقى محور الرغبة محتلاً الأهمية القصوى باعتبار كون الغائية فيه، باعتبار أن "المرسل" تتمثل فيه إمكانات بث الرسالة وفق صياغاته وتحديد الموضوع. فالذات هي الفاعل الأهم في توزيع العلاقات داخل النص وتوليده، بدءاً من النفي إلى الإثبات أو من الإثبات إلى النفي[٢٣١].

ومن أجل تحليل الرسالة الاتصالية، يتم تحديد أسئلة ست من أجل الإحاطة بمضامين النص ومحمولا ته الدلالية والمعنوية وهي: "من، ماذا، كيف، لمن، الهدف، النتيجة؟". وتكشف هذه الأسئلة عن معطيات مباشرة تتعلق بإنتاج الخطاب وفق خطوات منهجية، تبدأ من مصدرها وصولاً إلى المتحقق من العملية بأكملها. فالسؤال "من" يتعلق بطبيعة المنتج هل هو فرد أم جماعة، وماهي الظروف المحيطة بهذا المنتج وأصوله ورغباته، انطلاقا من التحديد الزماني والمكاني وعلاقاته بالآخر. أما السؤال "ماذا" فانه يتعلق بدراسة

---

[٢٣٠] د.حميد لحمداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٣، ص٣٦.

[٢٣١] د. إسماعيل نوري الربيعي، غريماس والنموذج العاملي، مجلة كتابات معاصرة، بيروت ١٩٩٩، ص١٥٤.

المضامين المرتبطة بالأفكار والاتجاهات السائدة من خلال الوقوف على معطيات الإثبات والنفي في مكنون الخطاب. والسؤال "لمن" يحدد نوع المرسل إليه، ليتم من خلاله تحديد الاتجاهات والقيم السائدة لدى مستلم الرسالة، وما هي الإشكالات الرئيسة التي تشغله وتعن عليه. فالشريحة المستهدفة يمكن أن توضح للباحث جملة من القضايا الرئيسة التي تهمها، وتمثل لديها نقاط التقاء أو افتراق. والسؤال "كيف" يهتم بنوع الرسالة كلمة – صورة – صوت، والجرعات الخطابية التي يمكن أن تقدم الى الجمهور، كأن تكون عن طريق تكثيف الاتصال، أو تقديمه وفق [٢٣٢] تدرج زمني معلوم ومحسوب، هذا بالإضافة تحديد المؤثرات الأشد وقعاً في الجمهور، عبر تحديد مكنون الخطاب وفق الحالة السائدة. فقد يكون التركيز على الجانب الرياضي وتعزيز روح الشباب، إذا ما حقق الفريق الوطني لكرة القدم على سبيل المثال فوزاً في بطولة رسمية. ومن خلال هذا التركيز، يمكن توجيه العديد من الاتجاهات وتعزيزها داخل المنظومة الاجتماعية عن الضخ الخطابي [٢٣٣] وتركيز الأفكار في هذا الاتجاه.

سؤال "الهدف" يتضمن العديد من الإشكالات، لاسيما في مجال وضع التصورات المسبقة. ولعل الأهمية القصوى تنطوي في هذا السؤال، باعتبار أن "المستقبل" يقدم هذا السؤال بداهة وبطريقة بالغة الذاتية. وعليه فان تحديد "الهدف" من الخطاب لايتم بشكل مباشر، بقدر ما يتعلق بالظروف المحيطة والشواهد المساندة والمساعدة. ولعل الشاهد الأهم يكمن في الخطاب السياسي فكثيراً ما يقع باحث "تحليل المضمون" في مطب[٢٣٤] توزيع الأعداء، أو طبيعة الصراع التقليدي بين القوى.

سؤال "النتيجة" يرتبط بأفق التوقع. حيث تأثير الخطاب في الجمهور، ويصدق هذا السؤال في مجال الإنتاج وتحديد أسس مكوناته. فالأمر مرهون بمدى التقبل والإشباع الذي يقدمه لحاجات الجماهير وفي مختلف مجالات الحياة وتفاعلاتها. وإذا ما كانت أدوات "تحليل المضمون" قد توقفت طويلاً "خصوصاً في بواكيرها" عند مسألة الفصل والعزل للأسئلة، فان التطورات والتداخل مع العلوم الإنسانية الأخرى، جعل منها تتجه صوب التحليل الشامل

---

[٢٣٢] د.احمد اوزي، المصدر السابق، ص٣٧.

[٢٣٣] مجموعة من الكتاب، مدخل الى مناهج النقد الأدبي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٧، ص١٧.

[٢٣٤] رولان بارت، درس السيمولوجيا، ترجمة ع.بنعبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء ١٩٩٣، ص٢١.

والواسع، حيث تداخل الأسئلة وتكاثفها وصولاً نحو بلوغ المحتوى والمكنون الذي يحتله الخطاب بصورته الكاملة والتامة والشاملة. فهو ليس بالعملية الأحادية الجانب، قدر استناده إلى حالة التفاعل بين "المرسل" و"المرسل إليه" (٢٣٥) وفق محاور وحوافز ووظائف وتوزيعات وعوامل وعلاقات.

تحديد الاتجاهات

لعل الغاية الرئيسة التي يرتكز جهد "تحليل المضمون" كأداة منهجية، تتعلق بالكشف عن الاتجاهات التي تطبع الظاهرة قيد الدراسة. وهذا كله يتم عن طريق التطلع نحو تحليل المواد المتعلقة بالظاهرة من؛ كتب ووثائق ودراسات أو أية مادة أخرى يمكن حشدها في سبيل الوصول إلى الغاية الموضوعية، التي يرومها الباحث ويسعى للكشف عنها. وهكذا يتم التفاعل ما بين اتجاهين منهجيين يتمثلان في التحليل النوعي المستند إلى الموضوعية، والتحليل الكمي – الإحصائي المعني بتحديد العناصر التي يحويها الخطاب.

ومن أجل الوصول إلى محددات علمية دقيقة، يكون للموضوعية طابع التعميم والصدق في التحليل وإمكانية المطابقة مع دراسة وتشريح ظواهر أخرى تدخل في ذات المجال. مع الأخذ بالاعتبار أن المحتوى الموضوعي لا يتوقف عند جهود باحث بعينه، بقدر ما يجب أن تكون النتائج التي تم التوصل إليها، مرتبطة بتوحيد النتائج لدى جميع الباحثين الذين تم لهم العمل على ذات الظاهرة. من هنا تتمثل المعطيات الموضوعية في التحليل، بدءاً من دقة النتائج والحياد الذي ينبغي أن يؤكد عليه الباحث، (٢٣٦) بعيداً عن الميول والأهواء والرغبات والتحديدات والمواقف المسبقة.

العناية بالتحليل الكمي – الإحصائي، جعل من بعض الباحثين في هذا المجال يؤكدون، على أهمية التشديد والتركيز، في أن عناية "تحليل المضمون" يجب أن تسعى نحو تحليل المضمون الصريح والمباشر الذي يفصح عنه النص، وليس الغور في تفصيلات المحتوى المضمر(٢٣٧). لكن مقولة كهذه سرعان ما تتماثل فيها معطيات التناقض، حين يتم التعامل

[٢٣٥] سعيد بنكراد، مدخل الى السينمائيات السردية، تانسيفت، مراكش ١٩٩٤، ص٣٢.

[٢٣٦] محمد نظيف، ماهي السيميولوجيا، افريقيا الشرق، الدار البيضاء ١٩٩٤، ص٦٤.

[٢٣٧] السيد يسين، المصدر السابق، ص١٩.

بالتحليل الموضوعي، الذي يفرض حضوره وأهميته، باعتبار التوافق بيت الجانبين؛ "الموضوعي – الإحصائي".

تحتل القراءة مكانة بالغة الأهمية وتوجيه الباحث نحو تحديد معالم الظاهرة المراد دراستها. فالعملية تقوم على اختبار الفروض التي تعن عليه، ويسعى من خلال هذه العملية نحو توكيدها أو رفضها من خلال المنطق الذي تؤيده القرائن والبراهين. من هنا يكون السعي نحو الأمام والشمول بجوانب الظاهرة، سعياً الى تحديد الفئات ومحاولة تغطية جميع الجوانب المتعلقة بالظاهرة من خلال التركيز على التجانس في انتقاء واختيار العينات. مع أهمية المواءمة والتوفيق بين المادة المبحوثة والأهداف التي وضعها الباحث. ولا يتوقف الأمر على فعل القراءة فقط، بل يشتمل على جوانب أخرى تتمثل في الملاحظات التي يستنبطها الباحث من خلال متابعته واتصالاته، والوقوف[(٢٣٨)] على التخمينات الذاتية، وصولاً الى وضع الصياغات الأولية للولوج في متن الدراسة.

---

[٢٣٨] د.احمد اوزي، المصدر السابق، ص٣٨.

الفصل الرابع

الرحلة والهجرة في الفضاء السبراني

المبحث الأول

الرحلة؛ التاريخ والثورة المعرفية

(ليس هناك حقبة أكثر جهلا بالإنسان، من حقبة ثورة المعلومات)

هيدغر

العالم وقد غدا تحت رحمة **الماوس والكيبورد والديسك توب والشبكة العنكبوتية**. والأمر لا يحتاج سوى الدخول في برنامج **غوغل إيرثGoogle earth** ، ليغدو كوكب الأرض تحت تصرفك، فالعالم طوع بنانك أنى يممت وجهك، فها أنت تدلج إلى المدن، شرقيها وغربيها، شمالها وجنوبها، غنيها وفقيرها، متفحصا أدق التفاصيل في الأشكال والتصاميم، ومتعرفا على أسماء الشوارع والساحات العامة والنصب والميادين، وحتى مواقف السيارات والأسواق والمحلات والورش، ويمكنك التدقيق في لافتات المطاعم والعيادات، بل وحتى التفرس في سطوح المباني.. وإذا رغبت بالبعض من التفاصيل فإن محرك البحث غوغل، سيتكفل بتوفير بكل شيء، بدءا من المعلومات وليس نهاية بالصور، فيما سيتكفل **اليوتيوب** بتقديم مقاطع فيديو من التفاصيل التي تروم وتتمنى. أما إذا رغبت بالتواصل فإن شبكات التواصل الاجتماعي ستجدها جاهزة حاضرة حيث **التويتر والفيس بوك** وباقي أفراد العائلة الكريمة. وهكذا ستكون القارات والمحيطات تحت تصرفك، لا ضير أن تمخر عباب المحيط الهادئ، ولا غرابة أن تمر على جبال الهملايا، ولن يمنعك أحد من الطواف بشارع الشانزلزيه أو بروكلين في نيويورك، أو الهبوط من الفضاء على دانداس سكوير في تورنتو، أو شارع الحبيب بورقيبة في تونس العاصمة، أو الساحة الهاشمية في عمان أو برج خليفة في دبي، أو حي السكاكيني في القاهرة.

رحالة الشبكة العنكبوتية قد تُشعر مرتادها بالبعض من الرضا، وهو يتلقى المزيد من الدفق المعلوماتي، حيث الإشباع لغريزة التعرف على الآخر، لكنها لن تكون رائدة كتجربة ماركو بولو ١٢٥٤-١٣٢٤ التاجر الإيطالي المتوجه شرقا، والذي حظي بصداقة إمبراطور الصين قوبلاي خان، واستطاع أن يعيش التجربة بأدق تفاصيلها على الصعيد الإنساني[٢٣٩]، ولن تبلغ حصيلة تجربة محمد بن عبد الله الطنجي (ابن بطوطة) ١٣٠٤-١٣٧٧، الذي قطع في سنوات ارتحاله الثلاثين ما ينوف على ١٢١ ألف كم، وليعمل قاضيا في الهند والصين[٢٤٠]. إنه صراع الأنماط الذي يشير إلى كم التبادل بين تجربتين، تجربة الحقيقة بترابها وعذاباتها وإخفاقاتها وألمها وشم التراب فيها وتدافع الأكتاف مع المواطنيين الأصليين فيها، وتبادل نظرات العيون. وتجربة التقانة الافتراضية المليئة حد التخمة بالتبادل المفضي إلى الاندراج في الوهم والسطحية والعجالة والحضورية العميقة للنسيان، حيث ثقافة الصورة الشاحبة والزائفة Simulacrum، والقائمة على تداخل الأنساق، حيث الصور المتزاحمة، والتي تجعل من العالم وقد غدا عبارة عن وسيط لا شيء فيه، سوى المرور السريع للعلامات التي لا تني أن تظهر فجأة، وتختفي بذات الفجائية التي صدرت بها. إنه النسق العابر الذي لا يصل حتى إلى مستوى المؤقت، وهو التشويش في أقصاه، الذي يظهر بكمية هائلة ووفرة لافتة. لا ثمرة فيها سوى الهزة التي تنال من الأنساق[٢٤١]، حيث الغياب الملفت للروحي والمعرفي.

[٢٣٩] رحلات ماركو بولو، ترجمة وليم مارسدن، الترجمة العربية عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥، ج١ ص ٣٣-٣٤.

[٢٤٠] رحلة ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مراجعة درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت ٢٠٠٣، ص ٢١.

[٢٤١] نيكلاس لومان، مدخل إلى نظرية الأنساق، ترجمة يوسف حجازي، منشورات الجمل، كولونيا ٢٠١٠، ص ٨٦.

الحقل	الفعل	المضمون	الموضوع
الرحلة	السفر	المعرفي- الواقعي	الآخر
المعلوماتية	تدفق المعلومات	الزمن القصير	الصورة
السياسي	النفي	اغتراب-تصنع بلا جوهر	اللامنتمي
الاجتماعي	الفرجة	عجالة-نموذج لا أصل فيه	السطحية
الاقتصادي	المصالح	استثمار الفارق-ذاتي لا واقعي	المنفعة
الثقافي	الغربة	تقديم الصورة على الواقع	الهوية المضيعة

في البحث عن المثيل

يفصح العالم عن التنوع الذي يزخر به، وهكذا كان الحافز نحو الحركة والتنقل خيالا أم مكان، إنه الشغف بالتعرف على المحيط والرغبة العارمة في التعرف على هذا الآخر الذي يقترب مني بحكم الجوار المكاني، لكنه يتحصن بكينونته وتفاصيل حياته التي تميزه عني. في القرب والبعد، ثمة رابط بين الحالتين يتأولها تودوروف في (الرغبة **في تغيير الآخر الذي يشبهه**) [٢٤٢]، إنه المسعى نحو توحيد العالم، من خلال ترصد الاختلاف، وجعله بمثابة الخلل الذي يحتاج إلى إصلاح، تلك الأفكار عنت في صلب الحلم الإمبراطوري الذي ملأ رأس قمبيز ٥٢٥ ق. م، في اجتياحه لدولة الفراعنة وضمها للإمبراطورية الفارسية، وهي الرغبة الجامحة لدى الإسكندر المقدوني الذي غزا الشرق، عام ٣٥٣ ق.م، مواجها داريوس الثالث إمبراطور الفرس. زاعما رفع راية المعرفة والتنوير.

[٢٤٢] تودوروف، نحن والآخرون، ترجمة ربى حمود، دار المدى، دمشق ١٩٩٨، ص ٣٧٩.

إنها رحلة هيرودوت التي تركزت الجهود فيها خلال الفترة ٤٥٠ -٤٢٠ ق. م، حيث التطلع نحو المعرفة والتقصي في جذور وأصول الأخبار التاريخية [٢٤٣]، وهو الانسياح في الأرض عبر موجات الحروب الصليبية ١٠٩٥-١٢٩١ حيث شعار الحج المقدس والتبشير، وهي رسالة المستعمر الأوربي الحديث منذ مطلع القرن السادس عشر، حيث إدراج هذا العالم بمملكة الرب وتنويره ولا ضير من نهب ثرواته.

إنه الارتحال نحو الآخر جمعيا أم فرديا، سياسيا أم اقتصاديا أم اجتماعيا أم ثقافيا أو حتى نفسيا. إنها رحلة الإمبراطور التي يدونها كتابه ومؤرخوه الرسميون، ورحلة التاجر التي تحددها سجلات البيع والشراء حيث المنافع والمصالح وحسابات الربح والخسارة. إنه التطابق مع الرؤية القائمة إلى أن (**المرء لا يجد في الأشياء سوى ما يضعه فيها بنفسه**). المرء يسعى باحثا عن مثيله، ويتوجه نحو ترصد الفروق القائمة فيه، من أجل تحجيمها، وبالتالي جعل هذا الآخر في دائرة الأنا.

بقيت الرحلة تدور فلك التطلعات الفردية، فعلى الرغم من ظهورها في سياق ثقافي جمعي، إن كان أكديا أم آشوريا أو فارسيا أم إغريقيا، لكن الموجه الفردي كان يصدر عادة عن ملك أو حاكم، عنت عليه الرغبة في الانسياح والتمدد، لكن إمبراطورية ثقافة الصورة الراهنة، تتجلى مظاهرها في الاعتماد على التقانة الرقمية، حيث نموذجها الذي يقوم على زخم الصور المتلاحقة التي لا تعرف النهاية. إنها الرحلة القادمة إلى الآخر، عبر نص الصورة الطيفية، حيث لا قوام فيها سوى التأثير البصري وتلاحق المشاهد، لا شيء يظهر منها غير الحصار الذاتي، وعلى الرغم من كل هذا فإن التطلع نحو اقتنائها في نهم لافت من قبل هذا الآخر. الذي أضحى مجرد متلق سلبي، لا ممارسة لديه سوى الاندراج في لعبة الاستهلاك التقاني[٢٤٤]، ليتحول إلى مجرد هدف سهل المنال

---

[٢٤٣] تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي، أبو ظبي ٢٠٠٧، ص ٢١.

[٢٤٤] يورغن هابرماس، العلم والتقنية كـــ أيديولوجيا، ترجمة حسن صقر، دار الجمل، كولونيا ٢٠٠٣، ص ١١٤.

مـن قبـل، أجهـزة بـث الشـفرات المركزيـة، عبر الجـوال والكومبيـوتر والإنترنـت وشاشـات العـرض العملاقـة التي تملأ تقاطعـات الشـوارع والطرق.إنـه الكـم الهائـل مـن المعلومـات التي يتـم ضخهـا إلى الآخـر، حتى ليجعـل مـن خيالـه وقـد أضحـى مجـرد سـلة مليئـة بالصـورة مـن المعلومـة، لا بالمعلومـة نفسـها. تلـك التي تأتي فاترة باردة قابلـة للطي والنسـيان، يتـم فقدانهـا بسرعـة كـما تأتي بسرعـة. رحلـة قادمـة مـن الفضـاء المزدحـم بالشـفرات، حيـث لإمـكان للأصيـل والعميـق والمبتكـر والجميـل الخلاب.

رحلة المنافع والمصالح

ماركو بولـو في رحلتـه نحـو الشرق الحقيقـي، وبلوغـه إلى بـلاد الصـين حيـث الخـان الأعظـم، ظـل يكنى بصـاحب المليـون كذبـة، حتى أن التوصيـف اللاتينـي للكتـاب بقي يطلـق عليـه Il Milione، المنفعـة الأصـل في رحلـة ماركـو بولـو كانـت تقـوم عـلى الحصـول عـلى المزايـا التجاريـة، لكـن ثمـة توظيـف لهـذه الرحلـة كان قـد تبـدى مـن لـدن العقليـة الغربيـة في القـرن التاسـع عشـر، حـين تـم تقديمـه بوصفـه مناظـرا لرحلـة ابـن بطوطـة التي جـاءت بعـد خمسـين سـنة مـن رحلـة ماركـو إلى الشـرق. الرحلـة هنـا تتخـذ بعـدا رمزيـا في الصـراع بـين الـروح الصليبيـة التي كانـت تقودهـا الكنيسـة الكاثوليكيـة في رومـا، ومصـالح التجـار الإيطـاليين الـذين توقفـت مصـالحهم مـع الشـرق(٢٤٥)، بسـبب الحـروب الصليبيـة. فكان التوصيـف الشـعبي للرحلـة سـاخرا، مليئـا بالمرارة لتلـك الأعاجيـب التي قـام بسـردها بولـو، في الوقـت الـذي تحقـق للمسـلمين الانتصـار عـلى القـوات المغوليـة الغازيـة في عـين جالـوت ١٢٦٠.

قامت الرحلـة الماركـو بولونيـة عـلى التجـارة، حيـث الشـرق الثـري والسـحري والـذي يشـع ذهبـا والمكتنـز بالتوابـل، تلـك الثـروة العظيمـة التي خلبـت لـب المخيـال الأوربي. فكانـت الرحلـة سـبيلا نحـو التضليـل والإيهـام عبر الاعتمـاد عـلى السـرد. بالمقابـل تتبـدى رحلـة كريسـتوفر كولومبـوس١٤٩٢ نحـو الشـرق (حيـث الهـدف الرئيـس هـو الهنـد) عبر اجـتراح سـبيل المعرفـة والمنطـق، ماركـو التـاجر الايطـالي

[٢٤٥] فرنسيس وود، ماركو بولو هل وصل إلى الصين، ترجمة فاضل جتكر، قدمس للنشر، دمشق ١٩٩٩، ص ١٢٣.

الذي استخدم أسلوب المساومة المباشرة مع المجمل من المناطق والكيانات السياسية المتجذرة، فكان التداخل الذي عم الرحلة ما بين المنفعة المباشرة التي تعن عليه، والمساومات التي يبرع بها، حيث المراهنة على الاختلاف، والتطلع نحو الإفادة من المجمل من الظروف المحيطة[٢٤٦]، فكان الاعتماد على **منطق اللامنطق** في السرد الحكائي الذي ظهرت به الرحلة.حيث الاحتماء بالتمويه والتضليل.

بالمقابل تتبدى رحلة كريستوفر كولومبس بوصفها تقريرا صارما، يقوم على الدقة والتحديد. الهدف هنا واضح ومحدد حيث الوصول إلى الهند. وهكذا ما إن وصلت سفنه إلى الكاريبي حتى أطلق على سكانها الأصليين تسمية الهنود الحمر، ليعمد من خلال لعبة **التهجين**، إلى صباغة الهند باللون الأحمر، وتهنيد الأصلانيين. في لعبة من التضليل اللساني، إنه التكييف لمنطق تدرج القوة، كولومبس يبدو قويا على الأصلانيين، لكنه خاضع لسلطة الملك الأسباني. هي محاولة لإثبات نجاح المهمة عبر استثمار نظام التسمية، والذي لو تم التدقيق فيه قليلا، لما كان يتجاوز عن كونه نكتة ثقيلة الدم. وعبر منطق تقرير القوة وفرض أنساقها عبر ممارسة الاستغلال المباشر، من خلال النهب المنظم لرأسمالها الرمزي، بعد أن تم استلاب تسميتها، فهي مجهول لا هوية له، ويحق للآخر أن يصنفها ويكيفها كيف يشاء، لكنه من جانب آخر، يسعى إلى التقرب من أولئك الأصلانيين، حين تعن عليه حاجاته ومصالحه، ولا ضير من اعتماد أسلوب المعرفة المقننة، حيث اعتماد الترجمة أو المكافئة أو المعاقبة أو الترويض، حيث الاعتماد الكامل والناجز على الفارق الهائل في القوة.

لقد أثمرت رحلة ماركو بولو إلى الشرق، وصفا عجائبيا لايخلو من معرفة، فيما أثمرت رحلة كريستوفر كولومبس عن قوة عيانية، تمثلت في السيطرة على الكميات الهائلة من الثروات والنفائس العظيمة، كان لها ألثر الحاسم في تشكل فائض القيمة، الذي قامت عليه الثورات

[246] Kirkpatrick Sale, Christopher Columbus and the Conquest of Paradise, New York 2006. P 47.

الأوربية الكبرى، من كشوفات جغرافية وملاحية وتجارية وتطوير السفن والأسلحة والطباعة، حيث المدخل نحو تغيير مسار العلاقات التاريخية.

العولمة والرحلة في صلب السوق

في ورقته الافتتاحية والتي تم فيها نحت مصطلح العولمة عام ١٩٨٣، يعمد ثيودور ليفيت إلى الربط المباشر بين الحاجات ومستوى التبادل في الأسواق(٢٤٧)، ومن هذه العلاقة تتبدى التوجهات لدى المستهلكين. السؤال هنا يتعلق بالأصل الكامن وراء الحاجات، وطريقة ترسيمها، فما يتبدى كماليا يتحول بالممارسة إلى أساسي وأصيل، هذا بحساب التحديد الذي ينطلق من بروز وظائف جديدة مرتبطة بتلك البضاعة، وفرض أنماطها الجديدة على الواقع، حيث التنميط الذي يتسلل في صلب الواقع، عبر بوابة الحاجات التي يتم التواطؤ عليها اجتماعيا. وهكذا يتم الحضور المكثف والمحدد لبضاعة الجوال والكومبيوتر والساتيلايت والبدلة الإفرنجية، وربطة العنق ومطاعم الوجبات السريعة، وشامبو الشعر، ومساحيق الغسيل، والعطور والأحذية والنظارات الشمسية ونموذج العمارة الغربي، وتبادل الرموز الهوليودية. إنها رحلة الإيقونات الهابطة على البشرية من الفضاء، حيث حرب الماركات العالمية وتصاعد المنافسة الحامية الوطيس في تقديم الرؤى الإستراتيجية. التي تجعل من العالم وقد صار خاضعا للبواعث والمقاصد، التي تفرضها البضاعة في النفس البشرية، إنه الإفقار الثقافي بحسب ماركوز، والذي يتم من خلاله جعل البشرية، وقد خضعت لغزو من الرحلات البضائعية، والتي راحت تحتل المجمل من زوايا وأركان الأحياء التجارية والصناعية والسكنية.غزو من العلامات التجارية المستندة إلى تخطيط قوامه العابر للقوميات والجغراقيا والأيديولوجيات والثقافات، حيث الامتثال للقوة التي تعمد إلى قياد العالم، عبر ترسيم حياة المجتمعات، انطلاقا من تكريس قيمة البضائعية على حساب الآدمية(٢٤٨).

---

[247] Theodore Levitt,The Globalization of Markets, Harvard Business Review, May- June 1983.

[٢٤٨] أنطوني جيدنز، عالم جامح، ترجمة عباس كاظم وحسن ناظم، المركز الثقافي، بيروت ٢٠٠٣، ص ٦٨.

هاهي الماركات تزحف راحلة إليك، إنها لصق النفس أو أقرب، تأتيك عبر النقود الافتراضية والمخازن الافتراضية والشراء الافتراضي الذي يتم عبر الإنترنت. العالم كله وبرمته يتم وضعه في حزمة معلوماتية، ليأتيك وأنت جالس في عقر دارك.

إنه عصر الأساطير البديلة، حيث الهيمنة المطلقة التي تفرضها وسائل الإعلام الرقمية، تلك التي تحيل الواقع إلى شيء فوق الواقعي، حيث التشظي في أقصاه. هو المسعى نحو إنتاج المزيد من العلامات، تلك التي تحضر من دون جذور أو أصول، نموذج السوبر مان الذي جاء من كوكب الكربتون الوهمي، والسبايدر مان الذي هجن من لسعة عنكبوت، وحكاية الرجل الصخري والمطاط ورجل النار وتحولاتهم التي جاءت في أعقاب مصادفة فضائية، ولا ضير من تقديم صورة البطل الذي لا يقهر عبر رامبو، ذلك الذي حمل بشفرات أيديولوجية موجهة للعدو التقليدي. لكن الأمر هنا يتخطى الرحلة الهوليودية ونماذجها التي تستهدف العقول عبر صناعة النموذج الخارق. الأمر هنا يتوسع لتتحول الرحلة إلى تهجين الكائن البشري، عبر سجنه في إطار محيطه الافتراضي، وهذا ما يتبدى في الرحلة التي يخوضها المراهقون والبالغون أحيانا في سلسلة ألعاب الفيديو، ومتاهاتها التي لا تعرف التوقف أو الانقطاع.

ما أسهل الرحلة حين تتمثل فيها الاستجابة الطيعة والشديدة السهولة، في تحقيق الغايات والمقاصد، ولكن ما أسهل ما تكون وسيلة بيد القوى المنتفعة والمستفيدة، حين تجعل منها وسيلة للتحريض والتضليل، بل أن الأهم في كل هذا يقوم على القيادة والتوجيه، باعتبار أن على المرء في عالمنا الراهن أن يعيش رحلته المرسومة، بناء على الموجهات الحاضرة، والتي تأتي من خلال الإيحاء لا الأمر أو النهي. وها أنت تدخل في تجربة الرحلة الافتراضية، والتي تظن أنها تشبع حاجاتك الذاتية، في الوقت الذي تكون فيه، وقد انخرطت في تجليات الهدف المرسوم من قبل القوى، التي تحمل قياد التوجيه والسيطرة والتحكم. والمتطلعة نحو الكشف عن العالم وبإيغال لافت، وتحت

دعوى الشفافية[٢٤٩] غدا العالم وقد أضحى مكشوفا بطريقة تثير البلبلة والقلق واللاجدوى، بل واللايقين.

هو العالم الذي يخضع لسيادة التقانة المتطورة والمعقدة، لتتم إزاحة الواقع من خلال هيمنة الافتراضي الذي راح يتسيد كل شيء، لتتبدى أحوال التفكير الجديد النائي بنفسه عن الواقع، والمنسجم مع قوة الثقافة الرقمية التي راحت تحرر وتنشئ خطابها في صميم العالم، عبر تحويل الواقع إلى مجموعة من المعلومات المجردة. إنه الدال الذي يحضر بقوة لافتة ولكن من دون مدلول.

رحلة الفرجة

عادة ما تشير البطاقات السياحية الصادرة عن المؤسسات الرسمية للحكومات، عن تكثيف الرمز، الصين تختصر رموزها بالسور العظيم، وفرنسا ببرج إيفل ومصر بأهراماتها ولبنان بأرزه واليمن بسد مأرب والأردن بالبتراء، وهكذا يتوجه السائح (**الباحث عن تفريج الهم**) بحسب توصيف الإمام الشافعي، لاختصار تلك البلدان في الرموز المقدمة، إنها الرحلة القائمة على التغيير والانتقال سعيا لاكتشاف ما هو جديد وغريب وساحر وأخاذ. يقول الإمام الشافعي: (**تغرب عن الأوطان في طلب العلى، وسافر ففي الأسفار خمس فوائد، تفريج هم، واكتساب معيشة، وعلم وآداب، وصحبة ماجد**)[٢٥٠]. السائح يبحث عن المؤقت والسريع، حيث الرغبة في تحصيل ما هو ممكن في الأقل من الجهد والوقت، وهكذا فإن عين السائح تبقى مرهونة بالفرجة، حيث التفضيل للنصب والعمارات والأماكن على حساب الكائنات البشرية التي تقطن المكان. حصيلة الفرجة لن

---

[٢٤٩] محسن بوعزيزي، السيميولوجيا الاجتماعية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠١٠، ص ٢٣١.

[٢٥٠] أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، تحقيق لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت لا تاريخ، ص ٢٥٥.

ينجم عنها معرفة بالمجتمع والعادات والتقاليد، قد يجمع بعض الانطباعات السريعة المبتسرة، لكنها لن تصل إلى مستوى الحكم وذلك لانعدام الملاحظة الدقيقة، باعتبار أنه مأخوذ بالبحث عن تنفيذ المخطط المعد سلفا، إنه ساع نحو بلوغ أهدافه، لكن هذا كله يجعل منه مؤثرا في الواقع، باعتبار أن تلبية حاجاته مرتبطة بما يوفره سكان البلاد من مواد وتذكارات ومنتجات، ترسخ الصورة القبلية التي تم ترسيمها وتوظيبها.

تتحصن البلدان السياحية بالأصل، لكن هذا سرعان ما يغدو واقعا تحت طائلة الكشف، حين يعمد السائح المعاصر إلى استخدام وسائل التقانة الحديثة، لتجميع المعلومات عن الوجهة المطلوبة. إنه الاختلاط الذي يقوم على التداخل في التوصيف، فتارة يكون البلد خاضعا لإرادة السائح عبر توفير الأجواء المطلوبة والمرغوبة، حيث يتم جعل أهرامات الجيزة مرتعا للجمال والخيول والحمير، في الوقت الذي يشير الواقع إلى أن مصر بلد يعيش الحياة المعاصرة بكل تفاصيلها. فيما تعمد البلدان إلى تجميع الوفود السياحية في أفواج، يتم تحديد مساراتها، عبر مناطق شديدة المثالية، فيما الواقع يكشف عن ترهل البنية التحتية التي ترزح تحت ظلها.إنه التضليل المضاعف الذي يتم التواطؤ عليه بين السائح الذي يعي جيدا قواعد اللعبة، والبلد المضيف الذي يجعل من إمكاناته قائمة على ثقافة الصورة المثالية الخالية من الروح.

الهجرة _ الهجنة

هذا الذي يعيش في وطنه لكن روحه معلقة بأرض أخرى، إنه البحث عن المثال، حين يتضاعف الشعور في الذات حول القهر والنقص والرغبة في التغيير والبحث عن البديل، والتشبث بالنموذج الجاهز، بوصفه الأمل والغاية في تبديل الأحوال. للهجرة أسبابها النفسية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية. يرحل المهاجر ويناضل ليبلغ الأرض الموعودة، لكن الفاصل مع الأرض الجديدة تبقى تدور في فلك (**الرغبة- التشبه**)[٢٥١]. الرغبة في أن يندمج من خلال العمل

---

[٢٥١] أنطوني كينج (محرر)، الثقافة والعولمة والنظام العالمي، ترجمة شهرت العالم وهالة فؤاد ومحمد يحيى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥، ص ٢٠٥.

وتعلم اللغة والانخراط في ممارسة العادات والتطبع بما لدى هذا الآخر، لكن الفاصل يبقى يعيش وسط أحوال التشبه، باعتباره نسخة مهجنة غير أصلية. قد يعمد البعض إلى استخدام مساحيق تبييض البشرة، أو تشقير الخصلة الأمامية من الشعر، أو تغيير الاسم إلى مودي أو جوني، ولا ضير من تقليد اللهجات. لكن الفاصل يبقى شاخصا في التمييز السهل والذي لا يحتاج إلى المزيد من الجهد في الكشف عن هذا الدخيل. المهاجر الشرعي وغير الشرعي، يبقى يدور فلك المسببات والضغوط، باعتبار الفروق الاقتصادية الهائلة بين البلدان الطاردة والأخرى الجاذبة، والتدهور المفجع في الأجور ومستوى المعيشة، وحاجة البلدان الغنية إلى الأيدي العاملة في مجال الوظائف الأدنى أجرا، فيما تتبدى إشكالية البطالة حيث يبلغ عدد العاطلين في الوطن العربي ٦٦ مليونا من أصل ٣١٧ مليونا هم سكان الوطن العربي بحسب إحصاءات العام ٢٠٠٨.

تقول العرب(**لا رأي لمن لا يطاع**) وهكذا يبرز دور الأطراف في ظل التراجع المفجع للمركز. إنه التآكل الذي راح يأخذ من جسد الأصل ويتبدى الدور للفرعي، باعتبار ما هو واقعي. انكسرت هيبة الدولة بعد أن تم تعريتها تحت سطوة الشفافية، وغدت تعيش أضعف حالاتها بعد أن انخرطت في الاستجابة لاشتراطات صندوق النقد الدولي ورغبات البنك الدولي، وحماية الأقليات وحقوق الإنسان والدمقرطة والحرية والمساواة ومجتمع المؤسسات. وهكذا يتبدى العالم في رحلة ذات اتجاه واحد، الفقير يتوجه إلى الغني، الجنوب يحن إلى الشمال دائما على حد تعبير الطيب صالح، رحلة الأجساد تتوجه نحو الغرب، فيما تأتي عنه شفرات المعرفة، يبثها في رسائل ومعلومات وصور وفلاشات في رحلة لا تنقطع ولا تتوقف.

ثمة نسقية مضمرة تحملها الرحلة، هي ذهاب وتنح عن السائد والشائع، ورغبة في الكشف عن المخبوء والغريب. رغبة في البحث عن الأسرار، حيث الإرادة الواعية الساعية إلى هتك ستار المتون والهوامش، رغبة في تحديد ما هو مركزي ومهيمن، انطلاقا من السعي إلى فعل الحركة المباشرة نحو الآخر، حيث المبادرة في أقصاها، الرحلة هنا حادث ثقافي يتوافر على التفاعل العميق،

والحوار والتبادل في الخبرات والترصد لمديات الاختلاف، والمواجهة الدائبة للحقائق الجديدة، الرحلة هنا تخط للمجمل من السلطات والقواعد الراسخة والثابتة، من خلال إدراك بوابة التفاوت، عبر إبراز المعاني الكامنة في البناء الاجتماعي والتاريخي لهذا الآخر الغريب والملغز، وهي تواصل قوامه الممارسة المتطلعة نحو تحليل القيم والوقوف على الصيغ الثقافية، بين شرط الحضور الكثيف للبيئة المستقبلة، ودلالة الحضور لصاحب الرحلة الذي يتبدى سفيرا وباحثا ومتقصيا. الرحلة حادث ثقافي يسعى بكل قواه نحو إزاحة مفهوم السيطرة.

المبحث الثاني

الهجرة والاندماج المشروط

قراءة في فرضية حميد الهاشمي[٢٥٢] حول الاندماج الاجتماعي للمهاجرين

(معرفة الأعراف الإنسانية تتطلب وقتا) شاتوبريان

مقدمة القراءة

يكتب (تودوروف) عن تجربته الخاصة حين يشير إلى الجزء الأول من حياته، بوصفه مواطنا في بلد يعيش تحت ظل النظام الستاليني في أوربا الشرقية، واصفا إياها؛ (كنت فعلا ضحية، إرادتي ردة فعل لما يحيط بي، تجريدك من حريتك، التحريض على الوضاعة، الخوف من الخوف). [٢٥٣] يواصل تودوروف قائلا، جئت فرنسا في الجزء الثاني من حياتي، فتعلقت بالمثل الديمقراطي، لكن الأشخاص الذين تعرفت عليهم كانوا (أناساً ذوو قناعات سياسية لا أخلاقية، مشاريع عن المستقبل بدلا من أن تكون ردود أفعال أمام الحاضر). [٢٥٤] ها نحن بإزاء البحث في حقل الاختلاف، والذي لو قيض لنا أن نتلمس البعض من ملامحه، عبر الوقوف على المنظومة المعرفية التي يدرجها (دريدا)[٢٥٥] حول العلاقة القائمة بين الكلام والنص، لأمكن وصف المهاجر القادم إلى البلد المضيف، بالفرد (الخارج من منظومة العلامات، ليدخل في نظام ثقافة لغوية). إنها أحوال الولوج في دوامة الاختلاف، حيث التعبير في أقصاه، حيث الانتقال من الدال (الكلمة) إلى المدلول (المعنى).

---

[٢٥٢]. حميد الهاشمي، العراقيون في هولندا – نحو صياغة إطار نظري لدراسة الاندماج الاجتماعي للمهاجرين، مسارات للتنمية الثقافية والإعلامية، بغداد، ٢٠١٢.

[٢٥٣]. تودوروف، نحن والآخرون، ترجمة ربى حمود، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق ١٩٩٨، ص ص ٥-٦.

[٢٥٤]، نفسه، ص ص ٦-٧.

[255]. Arthur Bradley (2008) , Derrida's Of grammatology, Indiana University Press, p 30.

فرضية القراءة

البحث عن هذا المهاجر الخارج من **نسق System** العلاقات الكلية، حيث الهيمنة والسيادة، لصالح العلاقات والحضور العميق لدلالة التباين، والملابسات التي يفرزها الواقع. حيث التراكم التاريخي لأفكار وعلامات. والولوج في **سياق Context** يقوم على النصية حيث الوحدة الدلالية التي توجه وتقود، بناء على سيادة الواضح، الذي يقوم على الوثيقة والعلاقات القانونية. ومن واقع منظومة العلاقة التي يجترحها بول ريكور Paul Ricoeur حول العلاقة القائمة بين (**الشفرة والرسالة**) [٢٥٦]، يكون الوقوف على أحوال المهاجر الخارج من العلاقات الخاضعة **للشفرة Code** حيث العلاقات الجمعية القائمة على اليقين وتسلل أحوال المنطق الصوري. شفرة تأتي عفوية بحكم التعايش والتداول الفطري، لتكون نسقا ثابتا ترتبط بالأصول والجذور، متشكلة ضمن إطار الوعي الجمعي، حيث العلاقات الكلية والتي تطلق أحكامها من الأعلى. باعتبار القدرة على ترصد العلاقات السببية.

فيما تتبدى عبر أوضاع (**الرسالة Message**) في المجتمع الحاضن المستقبل، حيث العلاقات الجديدة القائمة على الفردية، اعتماد على التجربة، حيث القصدية العالية والمفاهيم العارضة القائمة على القانون وليس الأعراف. المجتمع الحاضن يتفاعل مع المهاجر بوصفه كائنا جديدا مشروع إنسان قابل للتغير، يحكمه وعيه الطبقي. ومن هنا تتسيد أحوال القراءة الجزئية والأحكام الصادرة من الأسفل، باعتبار أن البلد المستقطب، وهذا بلغة الهاشمي يتوقع من المهاجر الانغماس في (**التدريب والتاهيل والتوجيه، سعيا نحو إدماجه**)[٢٥٧]

[256]. Paul Ricoeur (1976) , Interpretation Theory: Discourse and the Surplus of Meaning, The Texas Christian University Press , p 3.

[٢٥٧]. حميد الهاشمي، المصدر السابق، ص ٨.

قضايا القراءة

يضع يورغن هابرماس Jurgen Habermas تمييزه المدقق حول الفعل التواصلي والفعل الاستراتيجي[٢٥٨]. والذي يمكن من خلاله تمييز أوضاع العلاقة القائمة بين المهاجر والبلد المستقطب (المضيف). وإذا كان طرفا العلاقة تقوم أفعالهما على؛ الفعل الاجتماعي الموجه، الساعي نحو تحقيق هدف. إلا أن البلد المضيف يبقى منطقه يقوم على مكونات الفعل التواصلي، باعتبار البحث عن الإدماج الاجتماعي للمهاجر، عبر بوابة التعايش والتفاهم مع المنظومة القانونية والقيم الاجتماعية والثقافية السائدة، والخضوع للقوانين المعمول بها لدى البلد المستقطب. في حين ينطوي المهاجر على الفعل الاستراتيجي، حيث المسعى المتطلع نحو ممارسة التأثير والتبادل القائم على المعلومات، حيث التواصل القائم على الكلام – اللغة. المهاجر يأتي بذاكرته الدلالية Semantic Memory حيث ثقافته الاجتماعية المستمدة من واقعه، والدلالات الثابتة والمحددة التي تحدد شرط انسجامه، داخل مجتمعه الأصلي، باعتبار المرحلة المتماسكة Concrete Episodes المستندة إلى الحقائق والأحداث والمواقف. فيما يتحول المهاجر في بلاد المهجر إلى تفاعلات الذاكرة العرضية Episodic Memory [٢٥٩]. إنها لحظة تشكل المثل العليا، التي تتكون خلال لحظة الصراع بين المثل المختلفة. المثل التي يأتي بها المهاجر من حاضنه الثقافي والقيمي، مع المثل التي يقوم عليها المجتمع المستقطب. بحسب توصيف ماكس فيبرMax Weber . ([٢٦٠])

[258].. Niemi, I. J. “Jurgen Habermas' Theory of Communicative Rationality (The Foundational Distinction Between Communicative and Strategic Action)”. Social Theory and Practice, Vol. 31, No. 4 (October 20). 2005.

[259] Teun A. Van Dijk) 1998) , Ideology: A Multidisciplinary Approach , SACE Publication , Ltd , p 29.

[260]. Max Weber (1949) , The Methodology of The Social Sciences , translated and edited by Edward Shils and Henry Finch , Free Press, New York , p 57.

ثمة علاقة ملتبسة بين المهاجر والبلد المستقطب، لو قيض لنا قراءتها وفقا لرؤية أدموند هوسرل Husserl الظاهراتية القائمة على ترصد أحوال الظاهرة وما تمثله في الخبرات الواعية، حيث المسعى نحو التحليل ومحاولة الوقوف على معرفتها. إلا أن الظاهراتية تبقى قائمة على مبدأ (**تعليق الحكم**) النائي بنفسه عن إمتلاك الحقيقة، بقدر ما يكون التوجه مركزا على محاولة فهم طريقة ظهور الإنسان في العالم. إنها العلاقة الحتمية القائمة بين الفكرة والواقع. تلك التي يتم استحضارها عبر الملاحظة الخارجية، والعمل على قراءة الفعال والسلوك وصولا إلى إدراك (**التقمص العاطفي**)empathetic– Emotional [٢٦١] والذي يشكل الأساس في الاختلاف بين الطرفين.

إشكاليات القراءة

تسعى القراءة نحو تحليل موضوع الاندماج الاجتماعي بوصفه فعالية صادرة عن المهاجر إزاء البلد المضيف، والعمل على التفاعل مع المنظومة القيمية والثقافية للبلد، من خلال استثمار ما هو متاح من فرص في العمل والتعليم والرعاية الصحية والحياة الآمنة.

الموضوع	المساعد	المعيق
الاندماج	صراع الدلالات	التقمص العاطفي

العامل المساعد في قراءة (**موضوع الاندماج**) يقوم على صراع الدلالات، لا بوصفه صداما، بقدر ما ينطوي على أحوال الثراء في المعاني، التي تنتجها لحظة اللقاء بين المثل التي يحملها الطرف المهاجر بالبلد المستقطب. وأحوال التأثر والتأثير، تلك التي تتمخض عن هذا اللقاء. فيما يقوم العامل المعيق على أوضاع (**التقمص العاطفي**) لكلا طرفي العلاقة. فكل جانب يحمل بين ثناياه

[261]. Anna-Teresa Tymieniecka , Editor, (2012), Husserlian Phenomenology in a New Key: Intersubjectivity, Ethos, the Societal Sphere , Human Encounter , Pathos , Springer , p 449

تحيزاته الخاصة به. سجاياه وطبائعه الخاصة Habitus بالمعنى الذي يطرحه بورديو Pierre Bourdieu. [٢٦٢] العلاقة هنا لا تقوم على سوء الطوية، وخبث النوايا، بقدر ما تقوم على المزاج النفسي الخاص بكل طرف.

منهجية القراءة

تتوجه القراءة نحو اختبار فرضية الهاشمي من خلال مقولة المعرفة الضمنية Tacit Knowledge[٢٦٣] لميشيل فوكو والقائمة على أن طرفي العلاقة؛ المهاجر والبلد المضيف، يمتلك كل منهما ممارساته الخاصة، وطريقة تعاطيه مع القضايا التي تمس التفاصيل المتعلقة بحياته. إنه ركام الخبرات والمعرفة التي تميز طرفا بإزاء آخر. معرفة لا يمكن تمييز ملامحها، بقدر ما هي مخبوءة، لا يمكن تحديدها، لأنها مستمدة من المعارف الخاصة التي تنشأ عليها الجماعة. هي تجربة الفرد المهاجر الذي يأتي بكل تجربته الشخصية، غير منقوصة. إذ لا يمكن له أن يترك مشاعره وتقمصاته العاطفية وردود أفعاله غير المقصودة في بلده الأم، فهي ليست ثوبا أو شيء يمكن التخلي عنه أو استبداله. فهي الأفكار والتصورات والرؤى التي تشكلت، عبر التفاعل في الوسيط الاجتماعي، ومنحت للطرفين المهاجر والمستقبل معرفته المعلنة التي يجاهر بها، ويعبر بها عن ذاته. بناء على ما تتضمنه ذاته من تمثلات تحدد مسار العلاقات والتواصل مع الآخر. إنها الوضعية التي ترسم ملامح ردود الأفعال الصادرة عن الفرد بطريقة معلنة[٢٦٤]، فيما هي في الواقع تمثيل شديد المباشرة للمعارف والمضامين التي يضمرها الفرد في داخله.

وهكذا تتبدى ملامح التفسير والمواقف التي تميز هذا الشخص عن ذاك بناء على التجربة. المعرفة الضمنية وسيلة شديدة المباشرة، يتم من خلالها الكشف عن طريقة تعاطي المرء مع الواقع. وطريقة تعبير المرء عن تفضيلاته الذوقية والجمالية. في اختيار الألوان، في ردات الفعل العنيفة غير المتوقعة إزاء موقف ما. في طريقة التعاطي مع الاخر داخل فضاء التفاعل الاجتماعي.

262. Michael James Grenfell, editor (2014), Pierre Bourdieu: Key Concepts, Rutledge, New York , p 60.

263 Barry Smart 2002, Michel Foucault: Critical Assessment, Rutledge, New York, p 53.

264 Bryan Turner, 2012, Routledge Handbooks of Body Studies, New York, p 148.

إنها المركب الكلي الذي يظهر فجاءة وعلى حين غرة من المركبات والمشاعر والأوهام والأحاسيس[٢٦٥]. في تعبيرات لفظية ومواقف، يكون لها الحضور العميق في الواقع دون أن تلفت الانتباه. لكنها سرعان ما تظهر فجأة وبقوة، من خلال ممارسة. حين يظهر التزام ديني مفاجيء من قبل المهاجر، خلال شهر رمضان. حين يعبر المهاجر عن ذائقته اللونية والجمالية في احتفال ما، حين يبالغ المهاجر في ردة فعله بإزاء موقف صادر من زملاء العمل، حول الافراط بالحساسية من مفردة ما أو تصرف غير مقصود. حين يصحف المهاجر البعض من المفردات في لغة البلد المستضيف، أو حين يبالغ في نطق اللغة حتى يكون عرضة للفت الانتباه. إنها وسيلة الكشف عن هذا المهاجر في حذره وفي تهوره أيضا. في سجله الأكاديمي تفوقا أم تراجعا. في ترتيب وتنظيم اثاث شقته. في اختياره لمنطقة السكنى. في طريقة تعاطيه مع أنظمة المرور. في مستوى استثماره لبرنامج الرعاية الصحية. في انفتاحه وانغلاقه على المجتمع المحلي.

تحاول القراءة تطبيق مقولة ماكس فيبر حول: الأنواع المثالية [٢٦٦] Ideal Type في اختبار فرضية حميد الهاشمي ومدى صمودها حول الأفكار والمثل التي يأتي بها المهاجر، ويحاول أن يتعاطى بها مع الواقع الجديد بناء عليها ومن خلالها. المهاجر يأتي ولديه تجاربه الذاتية)[٢٦٧]، الخاصة به. تلك التي استقاها من عالمه ومحيطه الأول الذي نشأ فيه. ومن هذا فإن المهاجر شاء أم ابى، اندمج أم انعزل يبقى حاملا للنوع المثالي المترسخ والمتجذر في بنائه النفسي، حيث المثال والنموذج الذي نشأ عليه[٢٦٨]. نعم لا يتوان المهاجر عن الافصاح عن تقديره واحترامه لبلد المهجر. لكنه لن يستطيع التخلي عن (نوعه المثالي)، حين يتعلق بسلوك متوقع من المهاجر بإزاء الطفل والمرأة على سبيل المثال. الواقع أن المثالي يشكل نقطة الصدام الأولى لدى المهاجر، لاسيما حين يتعلق الأمر بسلطته الأبوية التي يدير بها شؤون أسرته. حيث النفوذ والسيطرة المطلقة لسلطة الأب على الزوجة والأبناء. في حين أن العلاقة الجديدة تقوم على التكافؤ بين أفراد الأسرة، لتبدأ أوضاع

---

[265] Glyn Williams, 2010, The Knowledge Economy, Language and Culture, Printed by Short Run, Great Britain, p 137.

[266] Rolf Rogers, 1969, Max Weber’s Ideal Type Theory, Philosophical Library, p 10.

[267] Peter Hamilton, 1991, Max Weber, Critical Assessments, Rutledge, New York , p 260.

[268] Ahmed Sadri, 1992, Max Webber’s Sociology of Intellectual , Oxford University Press, p 20.

الصدام الذي يبلغ حد، وضع المهاجر في موضع الشك الدائم، والذي يتبدى في سؤال الطالب الصغير الجديد في المدارس الإبتدائية، ومن ذوي الخلفية الشرق أوسطية، إن كان قد تعرض للعنف على يد والديه. بل أن البعض منهم يتعرض للكشف الجسدي. حتى باتت العائلة المهاجرة تعيش فوبيا الخوف المركب، إن تعرض الطفل لحادث عرضي وتعرض جسده لخدش أو كدمة. إذ سرعان ما يتوجه نحو أقرب مركز صحي لإثبات الحالة !؟ ومن هذا بات المهاجر يعيش أحوال الابتزاز من قبل ولده الصغير، الذي وجد الثغرة التي يمرر بها تنفيذ رغباته التي تصل في البعض من الأحيان غلى الجموح، ولا تختلف أحوال العلاقة مع الزوجة لاسيما من الخلفيات التعليمية البسيطة. وهكذا يعيش المهاجر أحوال التداخل بين أنماط الفعل الاجتماعي، حين يحاول التوفيق بين الأنماط العقلية والقيمية والعاطفية بإزاء التقاليد البيروقراطية المؤسسية التي تفرضها الهيئة الجديدة، في بلد الهجرة.

تسعى القراءة نحو تحليل فرضية حميد الهاشمي من خلال مقولة جون لوك حول الموافقة الضمنية[٢٦٩] Tacit Consent ، والتي تشير إلى أن الفرد يكتسب خبراته من خلال محيطه الاجتماعي. هذا المحيط الذي يكون عرضة لتداخل الصلاحيات والمسؤوليات، ومن هذا يكون المسعى من قبل الأفراد نحو الالتزام الطوعي بسلطة عليا، يكون لها صلاحية تنفيذ القوانين، سعيا نحو تفنين الأفعال، تطلعا نحو تنظيم العلاقة داخل المجتمع. ومن هنا تتبدى أهمية الموافقة الصريحة[٢٧٠]. باعتبارها التمثيل الواضح عن الخضوع للقوانين والإجراءات التي تحددها السلطة العليا بناء على الصالح العام.[٢٧١] لا يتردد المهاجر عن إعلان موافقته الصريحة، للمجمل من القوانين والأنظمة التي تقررها السلطة في بلد المهجر. لكن الواقع يبقى بمثابة الكاشف عن طبيعة تلك الموافقة. لاسيما سياقات الوحدة الدلالية المتعلقة بـ مسالة الوضوح التي تميز مفردات اللوائح والقوانين لبلد الهجرة، ليكون موقف المهاجر رفضا أم قبولا. وتتبدى أهمية المضمر الكامن في تلك القوانين وطريقة الوعي بها. بالإضافة إلى أهمية الوعي بالظرف الذي يحيط بالمهاجر وأثره في طريقة

---

[269] Ruth Grant, 2010, John Locke's Liberalism, University of Chicago Press, p 125.

[270] John Simmons, 1994, The Locke an Theory of Right, Princeton University Press , p312.

[271] Eric Mack , 2009, John Locke , Continuum Press, London , p 86.

إنتاج الموقف. لاسيما وأن اساب الهجرة متعددة ومتنوعة. ومن هذا الواقع تتبدى أهمية الموافقة الضمنية، والتي تقوم على محاولة الإفادة من التبادل في المواقف والأفكار بين المهاجرين أنفسهم.

قراءة في ميراث شخصي

حميد الهاشمي باحث وأكاديمي متخصص في علم الاجتماع، ابن مدينة الديوانية (محافظة القادسية) التي تشتهر بـ(الحسجة) وهي لعبة بلاغية تقوم على الاستخدام العميق والدال لـ(الاستعارة Metaphor). حتى أن الزائر لتلك المدينة يبقى يعيش أحوال الحذر والترقب، عندما يجتمع بأبنائها، الذين يقررون أين ستكون وفادته وإقامته وإطعامه، انطلاقا من الكرم العربي الأصيل، على الرغم من توافر الفنادق والخدمات الحديثة في المدينة، في حوار يتم بلغة عربية واضحة، لكنها تحتوي مضمرات نسقية، لا يفقهها إلا أبناء المدينة.

وبانتقاله إلى جامعة بغداد باحثا وأكاديميا، استطاع أن يعيش أحوال التكيف مع أوضاع العاصمة الواسعة والكبيرة، بل كان مثالا للاندماج الاجتماعي. حيث لم يمض عليه الوقت حتى أضحى بغداديا، فيما توجه نحو عقد الصداقات الحميمة مع زملائه من أبناء الفرات الأعلى وهو ابن الفرات الأوسط والطلبة الكرد. ومن هذا تعلم اللغة الكردية، التي راح يجيدها نطقا وبعض كتابة. وبعد انتقاله إلى ليبيا ليمارس مهمة التدريس في جامعة السابع من ابريل في مدينة زوارة. كان الأسبق نحو تعلم اللهجة المحلية الليبية التي راح يجيدها بمهارة، أدهشت الليبيين أنفسهم. لاسيما حين يردد عبارة (قطوز مكعمز على الروشن يشبح لوطة؟!) والتي تعني (قط يجلس على الشباك ينظر إلى الأسفل). أو حين يترصد قول التونسي في سنوات دراسته للدكتوراه في الجامعة التونسية، عندما يقول؛ (حاجة تحفونة ما ثماش كيف؟!). بعدها هاجر إلى هولندا، ليتمكن وبوقت قياسي من الاندماج في المجتمع الهولندي، ويعمل أستاذاً في جامعة أوربا بروتردام. إذ لم يعمد للركون إلى الحصول على المساعدات التي تقدمها وزارة الهجرة، بل جعل من تجربة الهجرة تحديا لحضور الذات الدال والعميق. ليواصل رحلة الهجرة مستقرا في مدينة لندن، بوصفه أستاذا وباحثا في جامعة East London.

الهاشمي إذن ابن تجربة الهجرة والاندماج. عاشها في الصميم، تفاعلت في ذهنه وعقله وضميره وعاطفته ووجدانه، وشكلت لديه خبرة إنسانية غزيرة المعنى. ومن هذا تتبدى أهمية ملامح دراسته ومحاولته التنظيرية المستمدة من صميم الواقع. حيث الحضور العميق للفعل اللغوي

التعبيري Locutionary والتمريري Illocutionary والتأثيري Perlocutionary، [٢٧٢]، الذي جاء بناء على الفعل التواصلي الجاد والبناء. ومن هذا يعد الهاشمي نحو قراءة موضوع الاندماج بوصفه فعلا اجتماعيا، عبر التطلع نحو تحليل المضمون المعرفي من خلال الحقل الثقافي.

موضوع	الفعل	المضمون	الحقل
الاندماج	اجتماعي	معرفي	ثقافي

وهكذا ينأي الهاشمي بنفسه عن الوقوع في شراك القراءة الأيديولوجية، والمقولات المسبقة الجاهزة. بل نراه يقف وبقصدية فاعلة من أجل تمييز معنى العلاقة بين المجال والشكل. عبر السعي الدؤوب في صميم العلاقات السببية والزمنية. لا يرغب أن يكون ضمن جماعة فعل التمرير، بقدر ما يتطلع وبقوة أن يكون في صميم فعل التأثير. ومن هنا جاءت محاولته (**نحو صياغة إطار نظري لدراسة الاندماج**). وهو الواعي جيدا بمخاطرة تلك الصياغة. لاسيما وأنه شاء أم أبى يعود بجذوره إلى الجماعة التي توصف عادة بالتلقي والاستهلاك؟! فيما الصياغة النظرية تبقى رهنا باسم يشوبه المزيد من الرطانة والعجمة. الهاشمي قادم من بلاد العلامات حيث حلم الهجرة، ساعيا نحو بلاد الدال (الكلمة) حيث الاندماج، على أمل تحقيق المعنى. والذي يتمثل في الإنسان الفاعل، القادر على تثمير وتفعيل؛ الوعي، الإدراك، التغير.

علامة	الدال (الكلمة)	المدلول (المعنى)
هجرة	اندماج	الإنسان الفاعل

[272]. Paul Ricoeur (1976) , Interpretation Theory: Discourse and the Surplus of Meaning, The Texas Christian University Press , p 14.

القراءة الفاعلة

يعمد الهاشمي نحو تحديد مدى العلاقة بين طرفين (بلد طارد – بلد مستقطب)، الطرف الأول في المعادلة يكون بمثابة الخاسر للطاقات والإمكانات والمهارات التي تحصل عليها المهاجر في سنوات تنشأته. في حين أن الطرف الثاني يبادر نحو استقبال هذه الطاقة، بفعالية ايجابية قوامها التدريب والتأهيل والتوجيه، سعيا نحو إتمام عميلة الدمج الاجتماعي. وما بين طرفي المعادلة يكون موقع المهاجر، الذي يبقى يعاني من الانقطاع عن الجذور التي درج ونشأ عليها، والقدوم إلى هذا المجهول، الذي لم يعرف عنه سوى الحديث المشبع بنغمة الأحلام والأماني العظيمة. فيما الشيطان يكمن في التفاصيل. بعبارة أخرى اللحظة الأولى التي يعيشها المهاجر، يعبر عنها المثل الشعبي (غابت السكرة ، حضرت الفكرة). حيث المواجهة المباشرة مع الواقع، تلك التي تتبدى في: اللغة الجديدة، القيم المختلفة، العادات والتقاليد، فرص العمل. ليبقى السؤال حاضرا في عقل المهاجر كيف السبيل إلى التكيف مع هذا الواقع الجديد؟

الاندماج الاجتماعي، يحدده الهاشمي باعتبارا تفاعلا بين المهاجر والواقع الجديد، ومحاولة الوقوف على مدى ارتباط المهاجر بهذه الفعالية بناء على محاولة ترصد المقياس الذي يحدد مسار الاندماج. لا يفوت على الهاشمي أن يترصد أحوال التداخل في الأهداف التي ينطوي عليها الاندماج، حيث تتبدى أحوال صعبة التمييز بين الأيديولوجي والمعرفي، العنصري بالإنساني، الأهداف الحزبية في بلد الاستقطاب، بإزاء تحديات الهوية لدى المهاجر. من هذه الترصدات لواقع الاندماج، فإنه يقرر ومباشرة صريحة. إلاّ أن أدبيات علم الاجتماع قد خلت من نظرية (**تحلل وتفسر وتصف عملية الاندماج الاجتماعي للمهاجرين)**.[٢٧٣]

تثمير القراءة

يقف المؤلف على المجمل من النماذج الأوربية (الدنمارك، السويد، بريطانيا، فرنسا، هولندا) حول الاندماج، عارضا للتجارب والمحاولات في مجال العمل والتدريب والتأهيل واللغة، فيما يتوقف مليا عند التعريف الذي تصوغه لجنة بلوك الهولندية، والقائم على الركائز الخمس:

---

٢٧٣. الهاشمي، المصدر السابق، ص ٩.

(**كسر حاجز العزلة، تقليص الفجوة، تفعيل اجتماعي – اقتصادي، فرص عمل تعليم إسكان، المساواة في الحقوق**). ومن هذا فإن اللجنة تتوقع في المهاجر المندمج؛ (**تعلم اللغة، احترام ثقافة البلد المضيف، تقليص الثقافة المتقاطعة، المشاركة الاجتماعية والسياسية والإدارية**). لا يتوان المؤلف من التعرض للمفاهيم المتعلقة بالإندامج، حيث يتعرض لمفهوم التكيف مستلهما وظيفية بارسونز حول (**التكيف، تحقيق هدف، تكامل، كمون**). ومفهوم التمثل بوصفه رديفا للتثاقف والتلاؤم الذي يطرحه روبرت بارك، ومفهوم الاندماج القائم على التطابق مع تقاليد البلد المضيف، والتقارب الثقافي الساعي نحو الاندماج في النسق الثقافي، عبر الاستفادة القصوى من البرامج المتاحة، سعيا نحو تجنب الأزمات الداخلية. ومفهوم التلاؤم المستند إلى العلاقات الإيجابية، ومفهوم التثاقف المستند إلى تسرب ثقافة البلد الحاضن، ومفهوم المواءمة حيث البحث عن التسويات والتوافقات الساعية نحو مواجهة التوتر، ومفهوم الانصهار القائم على الظرفية فهو يتقوى حين تبرز أحوال السلام، ويضعف حين تتصاعد أحوال الصراع. ومفهوم التغيير الذي يرى فيه المؤلف عبارتين لمدلول واحد باعتبار تلازم (تغير – تحول). أن هذا التداخل يتبدى دائما بين مفهومي؛ التحوّل Transitionوالتغير Change. فالأول يقوم على عملية ترصد نمط يتبدى بين مرحلتين، تقليد وحداثة على سبيل المثال، والتطورات الناجمة عن أحوال الانتقال المرحلي على صعيد (الوضعيات، المواقف، الدوافع، أثر أدوار الآخرين، نمط الجماعة)، حتى ليكون بمثابة المحفز نحو إطلاق الأسئلة المتعلقة بالتوقعات اللاحقة، بناء على حمولات المعنى الكامنة فيه، والعمل على رصد النتائج المترتبة عن هذا الانتقال.[٢٧٤] في حين أن التغير يعد من الفعاليات المنظمة الخاضعة لقواعد ومعايير، لها أهداف مرسومة شديدة الوضوح.[٢٧٥] حيث وصفه أوغست كونت بـ(**الفعالية الاجتماعية القائمة على مراحل قابلة للتنبؤ**)[٢٧٦]، إنه الاتجاه الثابت نحو التغير في نمط حياة المهاجر في البلد المضيف، حيث التغير المتوقع في نمط الحياة، لاسيما على صعيد الرعاية الصحية والسكن والخدمات والتعليم.

---

[274] Bernd Schmid, Credit Risk Pricing Model (2004) , Springer , Munich- Germany 19.

[275] Robert MacIver, Politics and Society (2005) , Transaction Publishers, New Jersey, p37.

[276] Joan Ferrante, Sociology A Global Perspective (2011) , Enhanced, Printed in USA , P12.

في التراث المعرفي

يتعرض المؤلف لدراسة وتحليل المجمل من النظريات، التي تناولت مسألة الهجرة والاندماج الاجتماعي. مثل نظرية الهوية الاجتماعية. ونظرية التصنيف الذاتي، ونظرية الاندماج الاجتماعي وبناء الأمة. فيما لا يغيب عن المؤلف التوقف عند المقولات التأسيسية لعلماء الاجتماع حول مفهوم الاندماج. والذي يخلص إلى نتيجة مفادها، أن النظريات التي تناولت هذا المفهوم إنما تعاملت معه، من منطلق الهويات المتصارعة داخل مجتمع واحد. وبالقدر الذي يتم فيها تناول مجتمعه المهاجرين، فإن القراءة تقوم على ترصد أوضاع الصراع بين الجماعات. أما على صعيد المقولات التي أسس لها علماء الاجتماع، مثل ماركس ودوركهايم وغلمن، فقد انحصر موضوع الاندماج لديهم عند الصراع بين الطبقات أو الأنواع. لا ينكر المؤلف من توظيف مفهوم الاغتراب أو عدم الاندماج لدى ماركس، مع التطلع نحو الإفادة من أحوال الانتقال من التضامن الآلي إلى التضامن العضوي، الذي اسس له دوركهايم. الواقع أن المؤلف يتوقف عميقا عند الطرح الدوركهايمي، ولا يتردد عن توجيه النقد العلمي الدقيق، لاسيما عند الإشارة إلى أن عملية تكامل المهاجر بوصفه جزءا من كل، تعتبر صعبة ومثالية. على اعتبار أن الجزء لا بد أن يتخلى عن خصائصه، في حال التوجه نحو تكامل الجزء مع الكل.

فرضية الهاشمي حول الاندماج

ينطلق الهاشمي من التساؤلات القائمة على مدى تمسك المهاجر بثقافته، والصعوبات التي يواجها الجيل الأول من المهاجرين في عملية التغير والتأقلم. والحواجز والعوائق بين الجماعات، فيما يبقى السؤال المركزي حول الأسباب الكامنة وراء سياسات الاندماج الاجتماعي. ومن هذا يتوجه الهاشمي نحو تقديم فرضيته القائمة على الهيكل التالي [٢٧٧]:

[٢٧٧]. الهاشمي، المصدر السابق، ص ٤٦.

معيق	مساعد
الالتزام الديني	مستوى اللغة
الاتصال بالبلد الأم	العمل
الأحكام المسبقة	العمر الأصغر
تأخير منح الإقامة	مستوى التعليم
العنصرية والتمييز	طول مدة الإقامة

فيما يعمد إلى تحديد التنبؤات في ضوء النظرية والقائمة على:

١. زيادة عزلة المهاجرين العرب، لاسيما الملتزمين دينيا بحكم ارتباطهم بأوطانهم وثقافتهم.
٢. ارتفاع معدلات البطالة في أوربا، ستؤدي إلى تسريح العمالة غير الماهرة، والذي يشكل المهاجرون العرب النسبة الأكبر من بينهم.
٣. تصاعد الارهاب صعد من المد العنصري تجاه العرب العرب المسلمين.
٤. زيادة التشدد في إجراءات منح الإقامة للمهاجرين

سعيا نحو إبراز العلاقة بين المفاهيم والنظرية المقترحة، توجه الهاشمي نحو الدراسة الميدانية، والتي تطلعت نحو تشخيص الارتباط بين المتغيرات، والعمل على تشخيص الارتباط بين المتغيرات. وربط البيانات بالجانب النظري من البحث، واختبار صدق فرضيات الدراسة، وعلى عقد المقارنة بين الجالية العراقية وبعض الجاليات المشابهة، من خلال استخدام التحليل السببي، المستند إلى المعطيات الاحصائية.

الخاتمة

يطرح الهاشمي فرضيته حول الاندماج الاجتماعي، بعد تجربة عميقة ودالة من البحث والتنقيب والمعايشة المباشرة. ويقف على صياغة محكمة، تحصل عليها بحكم تمثله العميق لمفاهيم علم الاجتماع. وهكذا يطرح مفهوم القوة Power دون أن يصرح بها، باعتبارها تمثل جوهر العلاقات الانسانية، والقوام الذي يستند إليه مفهوم هوية الفرد والجماعة.(٢٧٨) فيما تتبدى القيمة Value بوصفها ممارسة تعمد نحوها الجماعات سعيا للحفاظ على الأنساق والقيم.(٢٧٩) فيما تتجلى أوضاع الوعي المزدوج Double consciousness بالمفهوم الغرامشي لدى المهاجرين، باعتبار أن الهيمنة لا تتم فقط عن طريق القوة، بل من خلال استعداد المهاجر إلى تقديم التنازلات. (٢٨٠) إنها الحضور لمفهوم السلطة Authority باعتبارها ممارسة للقوة عن طريق شرعي، حيث التوجه نحو عقلنة الأفعال الصادرة عن المهاجر. (٢٨١) والتعاطي مع مفهوم الفعلAction بوصفه تفاعلا تتبين ملامحه من خلال استجابة المهاجر للشروط والأحكام التي تحدد بنية النظام الاجتماعي. (٢٨٢) وهو الحضور للمعنى Meaning، حيث الكشف عن تفعيل الواقع وتمييز مفاصله، بناء على العلاقة السياقية، فلكل نموذج معانيه الخاصة التي تعبر عنه. (٢٨٣)وهكذا يعمد الهاشمي

---

[278]. Marc Maurice, François Sellier, Jean-Jacques Silvestre (1986) , The Social Foundations of Industrial Power: A Comparison of France and Germany , Translated by Arthur Goldhammer , MIT Press, p 286.

[279]. Dvora Yanow, Peregrine Schwartz-Shea , Editors (2013) , Interpretation and Method: Empirical Research Methods and the Interpretive Turn , ME Sharpe Inc, New York, p 327.

[280]. Neelam Francesca Rashmi Srivastava, Baidik Bhattacharya (2012) , The Postcolonial Gramsci , Routledge , New York , p 214

[281]. Research & Education Association, Research and Education Association (1995) , The Best Test Preparation for the GRE, Sociology Reasearch & Education Association , New Jersey , p 59.

[282]. Marisol Lopez Menendez, Mr Fanon Howell, Mr Hector Vera, Professor David Chalcraft , Editors , (2012) , , Max Weber Matters: Interweaving Past and Present , Ashgate Publishing, Ltd , p 59.

[283]. Alexander Bird (2014) , Thomas Kuhn , Routledge , New York, p 168.

نحو ترسيم ملامح مشروعه الفكري القائم على فرضية (الاندماج **المشروط**)، انطلاقا من ترصد (**المشتركات الثقافية**).

حيث يحضر العامل الديني بقوة، فالمهاجر المتوافق دينيا مع البلد المضيف، أو المهاجر المنقطع عن التواصل مع ثقافتة الأم، يكون اندماجه أسرع من المهاجر الملتزم دينيا. فيما تلعب المرحلة العمرية دورا فاعلا في الاندماج، لاسيما بالنسبة لصغار السن، حيث يتاح أمامهم المزيد من فرص العمل والتعليم، وامكانية الانفتاح على تقبل العادات والتقاليد والقيم السائدة في بلد المهجر. ويأتي مستوى التعليم حاضرا بكل قوة، فكلما ارتفع مستوى التعليم، قيض للمهاجر من التكيف والتواؤم والتفاعل مع المعطيات الجديدة التي يواجهها. وتبرز فاعلية الإجراءات الإدارية الصادرة عن بلد المهجر، بوصفها عاملا حاسما في الاندماج، إذ يكون لإجراءات منح الإقامة أثرها النفسي البالغ على حياة المهاجر، بل تشكل نقطة الانطلاق في طريقة تعاطيه مع الواقع الجديد. و تحضر الإشكالية الأهم في قضية الاندماج والمتمثلة في أحياء المهاجرين، والتي تشكل العقبة الكأداء في وجه التكيف والتواؤم مع مجتمع الهجرة، بل تكاد تكون بمثابة المستوطنات التي تنتج المزيد من أوضاع الاحتقان والتمرد، وتكثيف أوضاع التقاطع مع ثقافة البلد المضيف.[٢٨٤]

---

[٢٨٤]. حميد الهاشمي، المصدر السابق، ص ٤٩.

الخاتمة

بين الأوهام والإحباطات، والتراجعات والتأملات، يعيش العرب لحظتهم الراهنة، لحظة محملة بالتشظي والتوزع والانقسام المرير.حيث المقولات التي تترى حول القمع والاستلاب والحرمان الذي ينال الفئات الواسعة من الجماعة العربية، تلك التي راحت تلوك الحسرات والتنهدات، فيما يبقى الحال على ما هو عليه، من دون بارقة للتغيير والتبدل. وبقدر ماتتوضح معالم الاحتكار العقيم للمجمل من العلاقات والأوضاع، حيث السيطرة الحاكمة والموغلة بنزوعها نحو الفرادة والقوة، والتي لا تتردد من التلويح بعظائم الأمور، لكل من يظن في نفسه القدرة على رفع العقيرة والمجاهرة بأهمية التغيير وتحريك المياه الراكدة.

تقنين الجهد

فالتقنين هو السائد والتبخيس يكون الحاضر الأهم، فيما تكون وسائل الإعلام والنشر وأدوات المعرفة مجرد وسائل لاغاية منها سوى التهليل والتسهيل والتدبيج لجماعة بعينها، يراد لها أن تكون هي الحاضر والمؤثر، على حساب الجموع الغفيرة، التي راحت تعيش التهميش والإقصاء، حتى لنجد المرارة وقد تقمصتها حتى راحت تعيش علقم الخذلان والفقد، ليكون المآل وقد استحال إلى الفقد المرير، والذي يشير إلى انعدام التأثير في الفاعلية الثقافية المرتجاة والمأمولة، لينسحب هذا الواقع على المجمل من الفعاليات والأنشطة الأساسية التي تزخر بها الحياة.

يعرض السؤال الذي يسد الطريق ويثقل على الرأس، حول هذا الفشل المقيم الذي تعاني منه الثقافة العربية، والتسطيح والمباشرة التي تنال من هذا الجسد الواهن والناحل الذي راح يلوك، الرؤى والتصورات التي ينتجها الآخر، فيما يكون اللهاث المحموم على التلقف الذي يقف بالضد من التلقي الذي تتحدث عنه الأمم والشعوب.أجيال تتعاقب وقضايا تتراكم وصراخ يتعاظم لا ينجم عنه سوى صم الأذان، حتى لتكون النتيجة وقد توقفت عند هذا الترهل الذي راح يهدد

البقية الباقية من الفضائل والمحاسن التي تم احتسابها ذات يوم للفكر والمثقف العربي.بل أن المفجع بالحال الذي آلت إليه الثقافة العربية، يتمثل بحالة تنامي الازدراء والإهمال وعدم الاهتمام من قبل العامة بما يدبجه المثقف، وإذا كان الوضع الذي عانى منه المنورون إبان حقبة بواكير النهضة، قد أشار إلى بروز حالة الاختلاط وسوء الفهم وتداخل المفاهيم وعسر التفاهم، الذي يفرضه الواقع المبتلى بالأمية والفقر وتسلط العنصر الأجنبي، فإن النتائج التي راحت تتم على يد الدولة القطرية، قد أفرزت المزيد من الشوائب والعوالق التي راحت تشير بجلاء لا يرقى إليه الشك، حول هذا التداخل الذي وجد المثقف نفسه فيه.

كلام مثقفين

الشرح العميق الذي بات ملازما للنتاج الثقافي العربي، راح يعيش حالة الاتهامية والتي تلازمت في توزيع مجال الاتهام، وعلى أكثر من صعيد، فهي تارة تتمظهر في السطوة والهيمنة المفروضة من قبل السياسي على المثقف، وفي أخرى تكون في حالة الاغتراب التي يعيشه الخطاب الثقافي العربي، حول سوء الفهم أو الالتباس الناجم عن العامة التي راحت تتجرأ على المثقف حتى تداولت في مقولاتها اليومية، جملة (**كلام مثقفين**) في إشارة معبرة، عن الإطار النخبوي الذي تشرنقت فيه المقولات الثقافية، حتى غدت حكرا على جماعة محدودة، لاهم لها سوى ممارسة لعبة الحضور وتبادل الأدوار في نطاق محدود ومجزوء. وتأتي الإشكالية العميقة عندا تتبدى ملامح الخلط الفاضح، في المستوى التداولي للمفاهيم والأفكار التي يدبجها المثقف، والتي تكون في الغالب عبارة عن تهويمات نظرية وألعاب معرفية، لاعلاقة لها من قريب أو بعيد بالتفاعل الاجتماعي، الذي يظل يعيش حالة التصادم والتزاحم، من دون أن تتبدى نقطة ضوء في هذا النفق المظلم الذي يعاني منه، ذلك الكائن الذي يطلقون عليه صفة مواطن.

منذ عصر اليقظة أو النهضة العربية، واللوازم الاصطلاحية التي دبجها المثقف، كما هي حيث، العقل والتنوير والعلمانية والمواطنة والحرية والشفافية والإصلاح والتغيير والتقدم والتطور، حتى آلت في النهاية، إلى مجرد أشكال وأنماط موغل بالوصفية، فيما تنحدر أهمية الممارسة وتذوي إلى حد الانعدام.، بل أن الاستقبال للمعاني يبقى متسيدا على جملة النتاج من دون حث الجهد

نحو توسيع مجال النقل والتحويل في المعاني.إنها الجواهر الثابتة والراسخة، والتي تبعد وتسقط من حساباتها أهمية البحث في الظاهرة. ومن هذا التكرار الذي راح يغطي المساحة الأوسع من مجال التفاعل الثقافي تعرض الإبداع إلى التحجيم، بل أن الجرأة التي تستدعيها ضرورات الوعي بالخطأ، باتت بمثابة الحلم المستحيل، في ظل تنامي الأدوار واتساع السطوة والهيمنة للنخبة المحدودة، التي راحت تعي جيدا قواعد اللعبة، حتى صارت تستمتع بممارسة دور الحارس والمنافح عن المصالح الذاتية.

من واقع التوقف الطويل الذي طغى على المجمل من الرؤى التي سادت لدى المثقف العربي، صار التطلع نحو الاقتناع بدور الشاهد على لوك التكرار، والاكتفاء بالتوصف والتبرير لما هو قائم، من دون التصدي للدور الطليعي المفترض بالمثقف والقائم على البحث الواعي عن الفرضيات والإشكاليات التي يمور بها الواقع.بل أن غياب الدور الحقيقي والفاعل بات بمثابة الحال الذي صار فيه المثقف العربي يعيشه، حتى صار دوره محصورا في تكريس المقولات التي لا ينجم عنها سوى توسيع مجال التعمية، حيث الهوة السحيقة والعميقة، التي راح الجميع يتنادى بأهمية الخلاص منها.فالتبعية تكون الحاضر الأهم في المجال العربي، باعتبار الوقوف على المفردات والرؤى التي تطبع النتاج والانهمام الصادر عن النخب، تلك التي راحت تسرف في تفحص المواقع والمكانة والمصالح وطريقة توزيع الأدوار.

تجليات الوعي

بين المادي والعقلي، يعيش العرب اليوم حالة الانفصام المرير، توزع ينشب في صلب البنية الاجتماعية، حتى يحيلها إلى مجال لا ينجم عنه سوى عدم الاستقرار والفقد المريع للمبادرة، تلك التي وهنت حتى غدت وكأنها الحلم المستحيل. وإذا كانت التداخلات قد فرضت بحضورها على المجمل من المعطيات العقلية، والممارسات التي يزخر بها النطاق الاجتماعي، فإن السقوط بالتنميط ومحاولة إفراغ محتوى التحديات والمواجهات التي يتعرض لها المجتمع العربي، كان لها الدور الأهم في إبراز مجال التناقضات، وتراكمها إلى حد لتفاقم، حتى غدت وكأنها الجزء الأصيل والأساسي من مكونات التفكير والوعي السائد.

تداخلات المعنى

تحت دعوى البحث عن الاستقرار، والمحافظة على القيم والمعايير والتقاليد السائدة، كان الفقد المريع، الذي راح يأخذ من عمر وجهد وأنساق التحول والتغيير، فيما راحت التداخلات تعلن عن حضورها بفجاجة تثير الفزع والخواف على طريقة النظر حول المستقبل، هذا المضمون الذي راح يعاني من الإهمال والتهميش.لاسيما وأن ملامح التأزم الذي يحيق بالواقع العربي، باتت شديدة الوضوح حول طبيعة ومدى العلاقة القائمة، بين زخم وقوة حضور الحاجات المادية التي راح المجتمع العربي، يتماهى في تفصيلاتها، وطريقة التفاعل الروحي والتي راح يتم التعبير عنها بطرق ووسائل شديدة المباشرة، حتى بات الواقع العربي الراهن يفرز المزيد من حالات التخندق، والتأجيج للعامل الذهني الذي راح يعبر عن نفسه من خلال الإعلان والتصريح والمجاهرة المباشرة، حول تعزيز مجال المواجهة، مع تيارات واتجاهات كانت لها السيادة والحضور، في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

أفرزت تلك الأحوال المزيد من حالات التقاطع الأيديولوجي، في المجال العربي حتى صار الاختلاط وعدم الوضوح بمثابة الحالة العامة والمهيمنة على المجمل من التفاعلات الذهنية، لتكون المحصلة وقد تركزت عند مجال التركيز حول موضوعة الصراع، تلك التي ثبتت ملامحها على المجمل من الفعاليات العربية، ليكون التعطيل والتوقف وقد أفرد عن حضوره العميق على المفاهيم والقيم والرموز، التي يتم إنتاجها في الراهن العربي.

على الرغم من الحماس والحمية الساخنة التي تتبدى في الخطاب السياسي العربي، إلا أن هذا يبقى مرتهنا بحالة الوهن والعجز المقيم، حتى ليكاد التعالي في رفع العقيرة، وكأنه يمثل محاولة لتوجيه النظر عن واقع الخوار والوهن وقلة الحيلة والبضاعة، التي راحت تتبدى في التفاصيل.تلك التي تتبدى في المفاصل.فما بين الفقد والخذلان والقهر الذي بات رديفا للتفاصيل التي يعيشها المواطن، يتسع مجال العزلة والنهب والعوز وضعف الإنتاج، وسيادة الروح الاستهلاكية، حتى ليكون التسطيح حاضرا بثقله الكئيب على المجمل من التطلعات والغايات والأهداف والرهانات والتصورات السائدة.

إنتاج المعنى

لايمكن إغفال حالات النمو والتوسع الذي راح يعلن عن حضوره في البعض من التجارب العربية، إلا أن هذا الحضور ظل يعاني من المحدودية والاجتزاء، لاسيما وأن الحضور الكثيف لدور

السلطة السياسية، قد حد من مجال تفعيل دور الفاعل الاجتماعي، حتى راحت تلك الفاعليات تعيش فورة الشعارات، باعتبارها منجزات الزعيم الأوحد، الذي قيض له الإمساك بزمام المبادرة عبر الشرعية الثورية.تلك الأخيرة التي غدت وكأنها حصان طروادة الذي تحصنت فيه المزيد من القوى والتيارات والاتجاهات، ليتحول المجال العربي، إلى ساحة من التنازع الذي لا يعرف التوقف أو جذب الأنفاس.

تبقى فكرة الإجماع الثقافي في المجال العربي، وكأنها الموضوع الذي يتم من خلاله تمرير التسويغات والتبريرات، فالوحدة المفترضة التي حاول النموذج الثوري تدشينه والتأسيس له، جعل من مضمون الوحدة الاجتماعية، وكأنها المادة والسبيل الذي يتم من خلاله تطمين الحضور على حساب المصالح العامة، ومن هذا راح مجال تكريس الفصل يتعزز بين النموذج السلطوي الشمولي، والذي راح يحشد المجمل من الفاعليات الثقافية والسياسية والاقتصادية، والفاعل الاجتماعي الذي وجد نفسه مغيبا ومضيعا وسط لجة الشعارات، التي جهد فيها الجهاز الإعلامي الملف بالترويج والإشهار والإعلان عن هذا النموذج، حتى تحول الواقع الاجتماعي إلى مجرد سيرك إعلاني، لا قوام فيه سوى التهليل والاحتفاء وبالمكارم والمنجزات التي يمن بها الزعيم.

النموذج الشمولي الذي تم له الهيمنة وفرض السطوة والنفوذ، جعل من منافذ التفكير خاضعة للتقنين، حتى صارت العطالة الفكرية بمثابة حبل النجاة التي تمنح صاحبها الهدوء والسكينة والخلود إلى الراحة والدعة، ومن هذا الكسل الذي اجتهد المتسلط في تكريسه، راح الواقع يفصح عن الوهن العميق في طريقة توزيع الأدوار الاجتماعية، إلى الحد الذي تم فيه تغييب دور النخب والسراة والوجهاء.بل أن السؤال حول الإخفاق والفشل الذي راح يتردد في المجال العربي، يبقى مستمدا من محاولة تغليب المفاهيم الراكدة والمضامين الفكرية الثابتة، هذا بحساب الخشية والحذر الذي يطبع توجهات منتج الخطاب.

التطلع نحو إنتاج المعنى والعمل على احتكاره، أرخى بيده الثقيلة على المعنى وبالتالي تعرض الوعي إلى الغربة الروحية والفكرية، حتى كانت المواقف والاتجاهات والرؤى والرهانات عرضة للتقنين والتحديد، ومن هذا تعرضت مفاهيم التحول والتغيير إلى التشويه والابتسار، فيما يكون الاختلاط بمثابة المتسيد على الواقع الذي راح يفصح عن المزيد من الأسى والضعف.

تكريس السطوة

يحضر السؤال الأهم في صلب الواقع السياسي العربي، حول الهيمنة والسطوة التي تحظى بها الأنظمة الشمولية، بل أن السؤال تتصاعد حمأته حول هذا التكريس الذي يسير لصالح تصنيع الطاغية والدكتاتور في المجال العربي، والتمظهر الذي تتبدى عليه الأنظمة الاستبدادية والتي راحت تنشر بقلوعها على التفاصيل والمنجزات المرتبطة، بجهاز الدولة، والمفاصل المؤسساتية والمكونات الرئيسة التي يتم من خلالها تسيير مجال الفعل السياسي وتنظيم الحياة العامة.

راحت الأجهزة السلطوية وبحماس منقطع النظير، ساعية نحو تعزيز مجال الفصل داخل البنية الاجتماعية الواحدة، حتى أن هذا العمل صار بمثابة الغاية التي لاتقبل التوقف، لتطفو على السطح بروز هيمنة الجماعات على حساب فكرة المجتمع الواحد، فيما يكون السعي من قبل تلك الجماعات نحو توظيب قيمها وقواعدها الخاصة بها، والعمل الجاد والدؤوب نحو تعزيز ممارساتها الخاصة، والحرص على تعزيز مسار المصالح والمنافع، التي يتم الحرص على تكريسها ضمن علاقة الجماعة هذه، بل أن المسعى الذي راحت فيه الدولة القطرية وعبر مشروعها السياسي النازع نحو تعزيز مصادر القوة والسطوة لديها، جعل منها تعيش واقع العزلة عن الآمال والطموحات التي تعن على الغايات والمضامين الاجتماعية، حتى راح التمييز ينشر بقلوعه على واقع العلاقة القائمة، بين الدولة والمجتمع، وكأن الأمر يتعلق بحلبة صراع بين الطرفين.فيما تكون الفرصة السانحة وقد تعززت لصالح الدولة، والتي قيض لها أن تتحصن بالمجمل من مواطن القوة والنفوذ والسطوة، على حساب التهلهل والوهن الذي نال من القوى الاجتماعية، والتي راحت تعيش حالة التخبط والبحث في المجهول، الذي راح يقودها إلى دهاليز التفسيرات الآنية، والتأويلات التي يغلب عليها الشطط والحماس في الكثير من الأحيان.

مجتمع المؤسسات

الحديث الطاغي الذي يملأ الأرجاء في عالم اليوم حول التغير الديمقراطي، والتحول في العلاقة القائمة بين الفرد والسلطة، يبقى رهنا بطبيعة الموجهات التي لا تتوقف عند طرف بعينه على حساب الآخر، فالواقع راح يشير وبكل قوة إلى أهمية البحث عن منفذ وسط هذا الدهليز المظلم الذي تعيش فيه الحياة العربية، وإذا كان التطلع نحو احتكار مواطن المبادرة، بات يعيش حالة من جذب الأنفاس في الراهن العربي، فإن الأمر يبقى مشيرا إلى خطر التوزيعات وتوليد المزيد من عوامل الفرقة والانقسام والتشظي، وعليه فإن الوعي الصميم بأهمية دور المؤسسة في بناء العلاقات، يبقى بمثابة الغاية والأمل الذي تتطلع إليه مجمل القوى الاجتماعية، والتي راحت تعي جيدا، أهمية الخروج من حالة الشد والجذب التي راحت تسفر عنها، علاقات التحصن الأيديولوجي والتخندق الجماعاتي. الذي يقف بالضد من التفكير الجماعي الذي يشكل الوعاء العام والشامل لموجهات التفكير الاجتماعي الساعي نحو تعزيز مجال القيم والمعايير المشتركة.

سؤال الغاية العربي اليوم بات اليوم يفصح عن البعض من ملامحه، لاسيما وأن الضغوط الدولية من قبل القوى الكبرى راحت تتكشف وبوضوح لا يقبل الالتباس أو الاختلاط، حول موضوعات صار الحديث عنها بكل قوة، كالشرعية الدولية والديمقراطية والمجتمع المدني والشفافية وحقوق الإنسان، بل أن الحديث راح يترى حول البيئة والاحتباس الحراري الذي يهدد الكوكب الأرضي وأهمية تضافر الجهود لمواجهة هذا الخطر الداهم. ومن هذا الواقع تكون المسلمات والبديهيات التي درجت عليها، طبيعة توزيع العلاقات للقوى النافذة والمؤثرة في الحياة العربية، تعي أهمية البحث عن أسس الخطاب الجديد الذي لا يتوقف عند المحدد السياسي لوحده، بقدر ما راحت مقومات التفسير الثقافي تعبر عن حضورها العميق في الحفز والتغيير.

في تباين المعايير التي أفردتها حالة التوزيع السياسي، الساعي نحو السطوة والنفوذ، لم ينجم عنه سوى تكريس حالة التمزق وتبديد الجهود، حتى راح المسار يتخذ شكلا منفرجا، بين

الدولة التي راحت تسعى نحو تحقيق غاياتها الخاصة بها، والمجتمع الذي راح هو الآخر في مسيره الخاص، لتتعمق حالة التشكيك والحذر بين الطرفين، بل أن مفردة المعارضة في الحياة السياسية العربية بقيت تعاني من تحميلات النظرة الجاهزة، والمستندة إلى التفسير السلبي والنوايا المبيتة، والتي لاتخرج عن الغاية في التقويض والهدم، ليتحول العمل السياسي إلى مجرد واجهات، يغيب عنه المعطى الفكري والمعرفي، ويتم انتهاك حرماته من خلال الولوج في سعار شعاراتي لاغاية له سوى تعميق حدة التعمية، وإبقاء الحال على ما هو عليه، في سبيل الإبقاء على المصالح والمنافع الفردية.

الخطاب والتواصل المعرفي

إلى أي حد يمكن الوثوق بالإستراتيجيا التواصلية التي يقف عليها العرب في راهنهم، هذا الأخير المبتلى بالمزيد من الإختلاطات حيث الخواف والتوتر والتبرير والانقطاعات المفجعة. واقع يخضع لهيمنة وسطوة الاتجاهات والتفكير الطويل والعميق برجحان هذا الطرف على حساب الآخر، والسعي الحثيث نحو ترسيم معالم النبذ وتعزيز مسار الإقصاء، حتى لتكون النتيجة وقد تكلست عند الخروقات التي تعمد نحو توظيبها لجهة بازاء الأخرى وفريق نحو تجميع الجهود للنيل من المقابل حتى ليكون التعزيز وقد تكرس عند توثيق ملامح الخصومة والنبذ.

الدمج والتعزيز

كيف يمكن النظر في صلب بنية الخطاب العربي السائد والآليات السائدة فيه، هذا بحساب أهمية تركيز الموجهات نحو الطريقة التي يتم بها توصيل الأفكار والمجال الذي يمكن الوقف عليه في سبيل تحقيق فعالية التحليل.، وما بين التوصيل والتحليل، يكون الركون بالعادة نحو تعزيز مجال **السلطة المرجعية للخطاب**، واعتباره المستند الرئيس الذي يتم من خلاله تحقيق الحضور، ومحاولة الافلات من النقد الذي يمكن أن تستحضره الاتجاهات المتعارضة، ومن هذا يتبدى مجال الركون إلى البحث عن أهمية الحصول على الموافقة والتطابق مع السيل الجارف والكبير الذي يمثله الرأي الشائع والأعم، حتى وإن تمت التضحية بالبعض من الأسس والقواعد

التي يقوم عليها ذلك الخطاب، بل أن الوضع الذي يتبدى عليه الخطاب سرعان ما يكون عرضة للموضع الذي تفرضه الظروف السائدة، من دون توجيه النظر نحو البنية السائدة فيه، أو حتى التطلع نحو تفكيك بنيته المعرفية، فالأمر يبقى رهنا بالحضور على حساب التواصل الفعلي، حتى ليبدو الأمر وكأنه يعنى بحلقة سباق لا قوام فيها سوى الحصول على الحظوة وتكثيف الوجود. ولعل المجادلات التي اندرج فيها الخطاب العربي بقيت تعيش لحظات التوزيع الشكلي على حساب المضمون الفعلي، في الأعم الأغلب من القضايا الرئيسة والفاعلة التي غطت المجمل من الحياة العربية، حيث العناية والتركيز بالتحويل من مبحث إلى آخر، انطلاقا من تكريس مجال النظر نحو طبيعة الموجه الجديد الذي يمسك بزمام القضية القديمة، حيث الإبقاء على المضمون القديم والاستمرار على تقديمه بثوب جديد. ومن هذا الواقع يكون الاستشراء المفجع لواقع **الجدل العقيم**، على حساب الاندراج الواعي بالحوار المثمر البناء.إنه الاستمرار لذات الأفكار والموجهات والسياقات، من دون التفكير ولو للحظة واحدة بأهمية الوقوف على ضرورة القطيعة المعرفية.

بلاغة الإقناع

بقيت وظيفة الخطاب العربي تعاني من الحضور الشديد لشبكة التأويل القديمة، حيث المعنى الصلب الذي يفرض بتفاصيله على المجمل من العلاقات السائدة، ومن هذا بقيت التمثلات ذاتها من دون أن تتعرض للتغيير أو التبديل، هذا بحساب الوقوف على موجهات الفعل ومدى القدرة للوقوف على المعطيات الجديدة التي يفرزها الواقع. ولعل موطن الحراجة التي يعاني منها الخطاب العربي تحديدا، يبقى يدور في فلك طبيعة التوجه، حيث التطلع نحو مدى القبول به، على حساب البحث الأصيل والجاد في المصدر الذي يحفزه ويؤسس له. وإذا كانت الوقائع هي التي تؤثر بفاعلية ملفتة في توجيه الخطاب العربي، فإن مدركات التمثل والتأويل تبقى تعاني من هيمنة الأيديولوجيا تلك التي تبقى بمثابة الموضوع الجاهز، الذي يتم من خلاله قطع الطريق على الفواصل والممكنات المتاحة لقراءة الظاهرة.

Books:

1. Ahmed Sadri, 1992, Max Webber's Sociology of Intellectual , Oxford University Press,
2. Alessandra Riccardi, Editor, 2002. Translation Studies: Perspectives on an Emerging Discipline, Cambridge University Press.
3. Alexander Bird (2014) , Thomas Kuhn , Routledge , New York,
4. Alissa Jones Nelson , 2014, Power and Responsibility in Biblical Interpretation: Reading the Book of Job with Edward Said, Routledge , New York.
5. Amit Chaudhuri , 2003, D.H. Lawrence and 'difference', Oxford University Press.
6. Andy Lock, Tom Strong (2010) , Social Constructionism: Sources and Stirrings in Theory and Practice , Cambridge University Press.
7. Anna-Teresa Tymieniecka , Editor, (2012), Husserlian Phenomenology in a New Key: Intersubjectivity, Ethos, the Societal Sphere , Human Encounter , Pathos , Springer ,
8. Anthony Giddens(1993) , New Rules of Sociological Method, Cambridge University Press.
9. Anthony J. Cascardi (1992), The Subject of Modernity, Cambridge University Press,
10. Anthony Kronman (1983) Max Weber: Jurists Profiles in legal Theory , Stanford University Press,
11. Arthur Bradley (2008) , Derrida's Of grammatology, Indiana University Press,
12. Asa Briggs & Peter Burk, A Social History of the Media, Polity Press, Cambridge UK, 2009,
13. Baert, 2000 , Time in Contemporary Intellectual Thought, North- Holland, Amsterdam

14. Barbara Comber, Anne Simpson, Editors , 2001, Negotiating Critical Literacies in Classrooms, Routledge , New York.
15. Barry Smart 2002, Michel Foucault: Critical Assessment, Rutledge, New York.
16. Bazzichelli , Tatiana , 2008, Networking: The Net as Artwork , Digital Aesthetics Research Center , Aarhus University.
17. Bell, Daniel , 1960 , The End of Ideology; On the Exhaustion of political Ideas in the fifties , Glencoe, Free Press
18. Bernd Schmid, Credit Risk Pricing Model (2004) , Springer , Munich- Germany
19. Bill Ashcroft, Pal Ahluwalia , 2008, Edward Said , Routledge , New York.
20. Bourdieu, Pierre , 1977, Outline of a Theory , Translated by Esquisse D'un, Cambridge University Press, UK.
21. Brennan W. Breed, 2014, Nomadic Text: A Theory of Biblical Reception History, Indiana Universality Press.
22. Brian Cook, The Electronic Journal; the future of serial –based information, Australia 1992,
23. Bronwen Martin, Felizitas Ringham, 2006, Key Terms in Semiotics, Boomsbury , London,
24. Brown, J.D.J. (2010) A Stereotype, Wrapped in a Cliché, Inside a Caricature: Russian Foreign Policy and Orientalism. *Politics*, 30(3).
25. Bryan Turner, 2012, Routledge Handbooks of Body Studies, New York,
26. C. Jarvie (2013) , The Revolution in Anthropology, Routledge , New York.
27. Chalcraft , David J. Editor , 1997. Social-scientific Old Testament Criticism , Bloomsbury , Academic Press , Sheffield.
28. Clark , , Elizabeth A., , 2009, History, Theory, Text: Historians and the Linguistic Turn , Harvard University Press.
29. Clay Shirky, The Political Power of Social Media, Foreign Affairs Magazine, published by the council on foreign relation, January- February 2011.

30. Craig Rollo, 2007, Economically Speaking: Essays in Honour of Chris Braecke, Garant , Belgium.
31. Cwalina, Wojciech , Andrzej Falkowski, Bruce I. Newman, 2015, Political Marketing: Theoretical and Strategic Foundations , Routledge , New York.
32. Cynthia Clamp, Stephen Gough, Lucy Land, 2005, Resources for Nursing Research: An Annotated Bibliography, SAGE, London ,
33. Dahrendrof(1979) , Life Chances, Weidenfeld and Nicolson, London.
34. De Jong,Wilma , Erik Knudsen, Jerry Rothwell , 2014 , Creative Documentary: Theory and Practice , Routledge , New York.
35. Debjani Ganguly, Ned Curthoys, Editors , 2007, Edward Said: The Legacy of a Public Intellectual, Melbourne University Press.
36. Denis McQuail (2010) , McQuail's Mass Communication Theory , SAGE , Washington DC.
37. Didsbury, Howard F. , Jr ,Editor , 2004, Thinking Creatively in Turbulent Times , World Future Society , Maryland.
38. Dvora Yanow, Peregrine Schwartz-Shea , Editors (2013) , Interpretation and Method: Empirical Research Methods and the Interpretive Turn , ME Sharpe Inc, New York,
39. E. Fisher, Karen , Lynne McKechnie , Editors , 2006, Theories of Information Behavior , Information Today , Inc, New Jersey.
40. Edward Said , Culture and Imperialism, Knopf, distributed by Random House, Republished by Vintage Books in 1994.
41. Edward Sapir , 1968 , Selected Writings of Edward Sapir , University of California Press
42. Edward W. Said, Orientalism , Pantheon Books, USA 1978.
43. Elizabeth Eisnstein ,The Printing Press as an Agent of Change, Cambridge 1979,V1,
44. Eric Mack , 2009, John Locke , Continuum Press, London ,

45. Eshbaugh-Soha, Mathew , Jeffrey Peake , 2011 , Breaking Through the Noise: Presidential Leadership, Public Opinion, and the News Media , Stanford University Press.
46. Evelyn Hatch, 1992, Discourse and Language Education, Cambridge University Press.
47. Fern L. Johnson, 2008, Imaging in Advertising: Verbal and Visual Codes of Commerce, Routledge, New York,
48. Fern L. Johnson, 2008, Imaging in Advertising: Verbal and Visual Codes of Commerce, Routledge, New York.
49. Fernand Braudel, Civilization and Capitalism 15^{th}- 18^{th} Century, university of California press, 1992, p 10
50. Ferrant , Joan , 2011, Sociology A Global Perspective, Enhanced, Printed in USA.
51. Frank Elwell , Verstehen: The Sociology of Max Weber , Rogers State University, 1996.
52. Frederik Stjernfelt, 2007, Diag rammatology: An Investigation on the Borderlines of Phenomenology, Ontology and Semiotics,Springer, The Netherlands,
53. Frederik Stjernfelt, 2007, Diag rammatology: An Investigation on the Borderlines of Phenomenology, Ontology and Semiotics,Springer, The Netherlands.
54. Fritz Ringer (2010) Max Weber An Intellectual Biography, University of Chicago Press,
55. Genosko , Gary ,Editor , 2005, Marshall McLuhan: Critical Evaluation in Cultural Theory, Volume 1 ,Routledge , New York , p117.
56. Glyn Williams, 2010, The Knowledge Economy, Language and Culture, Printed by Short Run, Great Britain,
57. Gómez, Leila , Asunción Horno-Delgado, Mary K. Long, Núria Silleras-Fernández , Editors ,2015, Teaching Gender through Latin American, Latino, and Iberian Texts and Cultures , Sense Publishers, University of Colorado.

58. Gordon S. Wood (2004) , The Americanization of Benjamin Franklin, Penguin., London ,
59. Hamilton, Peter , 1991, Max Weber Critical Assessments, Routledge , New York 1991, Volume 2.
60. Hilary Footitt, 2016, Women, Europe and the New Languages of Politics, Bloomsbury, London.
61. Houston A. Baker, Jr., Manthia Diawara, Ruth H. Lindeborg , Editors, 1996, Black British Cultural Studies: A Reader ,University of Chicago Press.
62. Hubert L. Dreyfus, Paul Rabinow, 2014, Michel Foucault: Beyond Structuralism and Hermeneutics, Routledge , New York.
63. Iris Zavala (1992), Colonialism and Culture: Hispanic Modernisms and the Social Imaginary , Indiana University Press.
64. Ismail Noori Mseer , Orientalism on Cultural Dispute, Historical Research Letter www.iiste.org, ISSN 2224-3178 (Paper) ISSN 2225-0964 (Online), Vol 5, 2013.
65. Iver, Robert Mac , 2005 , Politics and Society, Transaction Publishers, New Jersey.
66. Jan Rehmann, 2013, Theories of Ideology: The Powers of Alienation and Subjection, Hotei Publishing , Leiden , The Netherlands.
67. Jarvie (2013) , The Revolution in Anthropology, Routledge , New York , p 182.
68. Jarvie , I.C. Jarvie , 2010 , Revolution Anthropology Ils 69, Routledge , New York , p 182.
69. Jayne , Mark , 2006 , Cities and Consumption, Routledge , New York.
70. Joan Ferrante, Sociology A Global Perspective (2011) , Enhanced, Printed in USA
71. Joe Khalil, Marwan M. Kraidy (2009) , Arab Television Industries , Palgrave Macmilan ,UK,
72. John Simmons, 1994, The Locke an Theory of Right, Princeton University Press ,
73. Jones, Barry , Peter Jones, Ken Dark and Joel Peters, 2001, Introduction to International Relations , Manchester University Press,

74. Joseph Nyomarkay (1967) , Charisma and Factionalism in the Nazi Party, University of Minnesota, p.
75. Joshua Deman (2012) Max Weber in Political and Social Thought; From Charisma to Canonization, Cambridge university Press,
76. Keane, John , 2013 , Democracy and Media Decadence , Cambridge University Press.
77. Kirkpatrick Sale, Christopher Columbus and the Conquest of Paradise, New York 2006.
78. Kirsten Malmkjaer , 2004, Linguistics Encyclopedia, Routledge, New York.
79. Kjeldsen-Kragh , Soren , 2007, The Role of Agriculture in Economic Development: The Lessons of History ,Copenhagen Business School Press.
80. Kozloff , Ariele P, 1981 , Animals in Ancient Art from the Leo Mildenberg Collection , Cleveland Museum of Art , Cleveland , Vol 1
81. Lee Kaid ,Lynda , Christina Holtz-Bacha, Editors , 2007, Encyclopedia of Political Communication , SAGE Publication.
82. Leonardo , Zeus , 2013, Race Frameworks: A Multidimensional Theory of Racism and Education , Teachers College Press, Columbia University , New York.
83. Leonora Leet, Ph.D. (2004), The Universal Kabbalah ,USA, Inner Traditions Bear Company.
84. Levitt, Theodore , 1983, The Globalization of Markets, Harvard Business Review , May – Jun 1983.
85. Linda L. Putnam, Dennis K. Mumby , Editors, 2014, The SAGE Handbook of Organizational Communication: Advances in Theory, Research and Methods, SAGE Publications, Los Angeles,
86. Loftus, 1976, Human Memory – The Processing of Information, Hillsdale, New Jersey.

87. Marc Maurice, François Sellier, Jean-Jacques Silvestre (1986) , The Social Foundations of Industrial Power: A Comparison of France and Germany , Translated by Arthur Goldhammer , MIT Press,
88. Marcuse , Herbert , 2002 , One-Dimensional Man: Studies in the Ideology of Advanced Industrial Society , Routledge Classics , New York.
89. Maria Collins, Patrick Carr, Managing the Transition from Print to Electronic Journal and Resources, New York 2008,
90. Marisol Lopez Menendez, Mr Fanon Howell, Mr Hector Vera, Professor David Chalcraft , Editors , (2012) , , Max Weber Matters: Interweaving Past and Present , Ashgate Publishing, Ltd ,
91. Marisol Lopez Menendez, Mr Fanon Howell, Professor David Chalcraft , Hector Vera (Editors) , (2012) , Max Weber Matters: Interweaving Past and Present, Ashgate Publishing
92. Mark Olssen , Michel Foucault: Materialism and Education , Routledge , New York 2016.
93. Matthew Arnold (2011) , Culture and Anarchy: An Essay in Political and Social Criticism , Cambridge University Press.
94. Max Weber (1949) , The Methodology of The Social Sciences , translated and edited by Edward Shils and Henry Finch , Free Press, New York ,
95. Max Weber(1968) , On Charisma and Institution Building, Edited by Eisenstadt, University of Chicago Press,
96. Max Weber, Economy and Society , Ed by Guenther Roth and Claus Wittich, University of California Press,
97. McLuhan , Marshall , Bruce R. Powers , 1989 , The global village: transformations in world life and media in the 21st century , Oxford University Press.
98. Michael Bergunder, Heiko Frese, editors, 2011, Ritual, Caste, and Religion in Colonial South India, Primus Books, India.

99. Michael Groden, Martin Kreiswirth, Imre Szeman, Editors, 2012, Contemporary Literary and Cultural Theory: The Johns Hopkins Guide, JHUP Press.
100. Michael Halliday (1994), An Introduction to Function Grammar, London.
101. Michael James Grenfell, editor (2014), Pierre Bourdieu: Key Concepts, Rutledge, New York ,
102. Mike Friedrichsen, Yahya Kamalipour , Editors,2017, Digital Transformation in Journalism and News Media: Media Management,, Springer, Berlin.
103. Neelam Francesca Rashmi Srivastava, Baidik Bhattacharya (2012) , The Postcolonial Gramsci , Routledge , New York ,
104. Niemi, I. J. "Jurgen Habermas' Theory of Communicative Rationality (The Foundational Distinction Between Communicative and Strategic Action)". Social Theory and Practice, Vol. 31, No. 4 (October 20). 2005
105. Ó Ciardha , Éamonn, Gabriela Vojvoda , Editors , 2015 , Politics of Identity in Post-Conflict States: The Bosnian and Irish Experience, Routledge , New York.
106. Paavalo , Jarkko & Harri Jalonen , An Approach to Detect and Analyze the Impact of Baised Information Sources in the Social Media , Turken University , Finland , Nasser Abouzakhar , Editor, 2015 , ECCWS2015-Proceedings of the 14th European Conference on Cyber Warfare and Security , University of Hertfordshire , Hatfield , UK 2-3 July 2015.
107. Paul Eric Norwood, The Hanseatic League, Publish America Inc 2004
108. Paul Honigsheim and Alan Sica (2003) , The Unknown Max Weber, Transaction Publisher, New Jersey ,
109. Paul Ricoeur (1976) , Interpretation Theory: Discourse and the Surplus of Meaning, The Texas Christian University Press ,
110. Pavlik , John V. 2012 , Media in the Digital Age , Columbia University Press.
111. Peter Hamilton, 1991, Max Weber, Critical Assessments, Rutledge, New York ,

112. Pierre Bourdieu (1977) , Outline of A Theory , Cambridge University Press , Translated by Esquisse D'un.

113. pierre Bourdieu (1992) , An Invitation to Reflexive Sociology, Chicago University Press.

114. Pierre bourdieu, Outline of a theory of practice, translate to English language by Cambridge university, Cambridge 2003,

115. Rabate , Jean-Michel , Editor , 2012 , Writing the Image After Roland Barthes , University of Pensylvania.

116. Ranjan Ghosh , Editor, Edward, 2009, Said and the Literary, Social, and Political World, Routledge , New York.

117. Research & Education Association, Research and Education Association (1995) , The Best Test Preparation for the GRE, Sociology Research & Education Association , New Jersey ,

118. Richard Hoggart (2009) , The Uses of Literacy: Aspects of Working-Class Life , Penguin , Lancaster University.

119. Richard Swedberg (2000) , Max Weber and the Idea of Economic Sociology Princeton University Press,

120. Richard W. Oliver, What is the Transparency, Mc Graw- Hil Co, USA 2004,

121. Robert MacIver, Politics and Society (2005) , Transaction Publishers, New Jersey,

122. Robert Seidensticker, Future Hype; the myths of technology change, san Francisco- California 2006,

123. Rolf E. Rogers , (1969) , Max Weber's ideal type theory , Philosophical Library,

124. Rolf Rogers, 1969, Max Weber's Ideal Type Theory, Philosophical Library,

125. Rudyard Kipling Rudyard Kipling , Sterling Publishing Company , New York 2000.

126. Ruth Grant, 2010, John Locke's Liberalism, University of Chicago Press,

127. S. Kumlin, 2004, The Personal and the Political: How Personal Welfare State Experiences Affect Political Trust and Ideology, Macmillan, New York,

128. Sapir ,Edward , 1985, Selected Writing in Language , Culture and Personality, Edited by David Mandelbaum , University of California Press,

129. Sara R. Farris (2013), Max Weber's Theory of Personality: Individuation, Politics and Orientalism ,Danvers , USA

130. Saxe , Geoffrey B. , 2015 , Culture and Cognitive Development: Studies in Mathematical Understanding , University of California.

131. Schmid, Ernd , 2004, Credit Risk Pricing Model , Springer , Munich- Germany.

132. Semetko, Holli , Margaret Scammell , Editors , 2012, The SAGE Handbook of Political Communication , SAGE Publication , London.

133. Shel Heltz, John Havens, Lynne Johnson, Tactical Transparency; how leaders can leverage social media to maximize, new York 2008,

134. Shunqing Cao 2014, The Variation Theory of Comparative Literature, Beijing Normal University , Springer.

135. Silva, Elizabeth , Alan Warde , (Editors) 2010, Cultural Analysis and Bourdieu's Legacy: Settling Accounts and Developing alternative , Routledge , New York.

136. Sim , Stuart , 2010 , The End of Modernity: What the Financial and Environmental Crisis is Really Telling Us , Edinburgh University Press.

137. Smelser , Neil J. , Editor , 1973 , Karl Marx on Society and Social Change: With Selections by Friedrich Engels , University of Chicago Press.

138. Smith , Roy , Imad El-Anis, Christopher Farrands , 2014 , international Political Economy in the 21st Century: Contemporary Issues and Analyses. Routledge , New York.

139. Stephanie Taylor, 2013, What is Discourse Analysis? Boomsbury, London.

140. Stephen Trombley, Editors. 1993.The New Fontana Dictionary of Modern Thought, Third Edition, Allan Bullock and

141. Szakolczai ,Aerpad , 2009 , Max Weber and Michel Foucault: Parallel Life-Works Routledge , New York.

142. Teun A. Van Dijk) 1998) , Ideology: A Multidisciplinary Approach , SACE Publication , Ltd ,

143. Teun A. van Dijk, 2009, News As Discourse, Routledge , New York.

144. Theodore Levitt,The Globalization of Markets, Harvard Business Review, May-June 1983.

145. Thomas Met zinger, Being No One, the self-model theory of subjectivity, Massachusetts 2004,

146. Tobias Döring, Mark Stein , Editor , 2012 , Edward Said's Translocations: Essays in Secular Criticism , Routledge , New York.

147. Toffler , Alvin , 1984 , Previews & Premises: An Interview with the Author of Future Shock and The , Black Rose Ltd , Montreal.

148. Vijay Mahajan (2012) , The Arab World Unbound: Tapping into the Power of 350 Million Consumers , John Wiley and Sons.

149. W. Stacks,Don , Michael B. Salwen Editors , 2014, An Integrated Approach to Communication Theory and Research, Routledge , New York.

150. Wahl-Jorgensen, Karin , Thomas Hanitzsch , Editors, 2009, The Handbook of Journalism Studies , Routledge , New York.

151. Warren Bennis, Rethinking the future; rethinking business, principles ,competition ,control ,London 1998,

152. Wendy Bottero(2005) Stratification: Social Division and Inequality, Routledge, New York,

153. White Edward, Legal Antiquities A collection of Essays Upon Ancient Laws and Customs.London 2009,

154. Wikileaks and Challenges to Internet Freedom, Interviewee: Adam Segal, Interviewer: Tom Johunson, Council on Foreign Relations, December. 17, 2010.

155. WIKILEAKS, http://213.251.145.96

156. William. Frank , Jefkins , 1987 , International Dictionary of Marketing and Communication , Blackie , Glasgoe & London.

157. Witschge, Tamara , C. W. Anderson, David Domingo, Alfred Hermida , Editors , 2016, The SAGE Handbook of Digital Journalism, SAGE Publication , London.

الكتب العربية والمترجمة:

١. إبراهيم عويس، قيام التبعية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٩، .

٢. أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، تحقيق لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت لا تاريخ،

٣. احمد اوزي، تحليل المضمون ومنهجية البحث، الشركة المغربية للطباعة، الرباط ١٩٩٣،

٤. إسماعيل نوري الربيعي، غريماس والنموذج العاملي، مجلة كتابات معاصرة، بيروت ١٩٩٩،

٥. الأطرش، سلطان باشا، أحداث الثورة السورية الكبرى كما سردها قائدها العام سلطان باشا الأطرش، دار طلاس، دمشق ٢٠٠٨.

٦. ألفين توفلر، تحول السلطة، ترجمة لبنى الريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥،

٧. أمين، قاسم ، المرأة الجديدة، ط ٢، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٩١،

٨. امين، سمير، نحو نظرية للثقافة، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٩،

٩. أمين، مظفر عبد الله، جماعة الأهالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠١.

١٠. أمين الخولي، مشكلات حياتنا اللغوية، الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨٧

١١. انطوان زحلان، حيازة القدرة التكنولوجية – دراسة عن المؤسسات الاستشارية ومؤسسات لمقاولات العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٠.

١٢. أنطوني جيدنز، عالم جامح، ترجمة عباس كاظم وحسن ناظم، المركز الثقافي، بيروت ٢٠٠٣،

١٣. أنطوني كينج (محرر)، الثقافة والعولمة والنظام العالمي، ترجمة شهرت العالم وهالة فؤاد ومحمد يحيى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥،

١٤. باسل البستاني، العرب والتحدي التكنولوجي المعاصر، مجلة آفاق عربية، مايس ١٩٩٢، بغداد.

١٥. بروس نوسباوم، العالم سنة ٢٠٠٠، ترجمة مجيد ياسين، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٧، .

١٦. برونوين ماتن وفليزيتاس رينجهام، معجم مصطلحات السميوطيقا، ترجمة عابد خزندار، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠٠٨،

١٧. البزاز، عبد الرحمن، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال، مطبعة العاني، بغداد ١٩٦٧،

١٨. البستاني، ، يطرس خطاب في الهيئة الاجتماعية والمقابلة بين العوائد العربية والإفرنجية، بيروت ١٨٦٩.

١٩. بطاطو، حنا، العراق الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ٢٠٠٣،

٢٠. بنكراد، سعيد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، منشورات الزمن، الدار البيضاء ٢٠٠٣،

٢١. بيار أنصار، العلوم الاجتماعية المعاصرة، ترجمة نخلة فريفر، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٢،

٢٢. تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي، أبو ظبي ٢٠٠٧،

٢٣. تودوروف، نحن والآخرون، ترجمة ربى حمود، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق ١٩٩٦.

٢٤. تيزيني، طيب، حول مشكلات الثورة والثقافة في بلدان العالم الثالث – الوطن العربي نموذجا، دار دمشق، دمشق ١٩٧٣.

٢٥. الجادرجي، كامل، مذكرات كامل الجادرجي، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٠،

٢٦. جاك بران، نقل الكنولوجيا، ترجمة محمد البوجي، مطابع الدوحة، الدوحة ١٩٨٧، .

٢٧. جان فرانسوا بايار، أوهام الهوية، ترجمة حليم طوسون، دار العالم الثالث، القاهرة ١٩٩٦،

٢٨. جب، هاملتون، وهارولد بوين، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة عبد المجيد القيسي، دار المدى، دمشق ١٩٩٧، القسم الثاني.

٢٩. جورج قرم، التبعية الاقتصادية، دار الطليعة، بيروت ٩٨٦، .

٣٠. حربي، محمد، وكميل داغر، جبهة التحرير الوطني الجزائرية ١٩٤٥ – ١٩٥٤ الأسطورة والواقع، مؤسسة الأبحاث العربية، الجزائر ١٩٨٣،

٣١. حسام محمد عيسى، نقل التكنولوجيا – تحديث أم تبعية، مجلة المنار، تموز ١٩٨٧، بيروت،
٣٢. حسام محمد عيسى، نقل التكنولوجيا – دراسة في الآليات القانونية للتبعية الدولية، دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٨٧، .
٣٣. حسين العودات، انهيار الطبقة الوسطى العربية، مجلة حوار العرب، العدد ١٠، سبتمبر ٢٠٠٥، .
٣٤. الحصري، ساطع، مذكراتي في العراق ١٩٢١- ١٩٤١، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٧،
٣٥. حكيم، سليمان، عبد الناصر والإخوان من الوفاق إلى الشقاق، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة ٢٠١٠،
٣٦. حميد الهاشمي، العراقيون في هولندا – نحو صياغة إطار نظري لدراسة الاندماج الاجتماعي للمهاجرين، مسارات للتنمية الثقافية والإعلامية، بغداد، ٢٠١٢.
٣٧. حميد لحمداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٣،
٣٨. الخوري، فؤاد إسحق، العسكر والحكم في البلاد العربية، دار الساقي، بيروت ١٩٩٠.
٣٩. ديفيد هارفي، حالة ما بعد الحداثة، ترجمة محمد شيا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ٢٠٠٥،
٤٠. رايموند وليامز، طرائق الحداثة، ترجمة فاروق عبد القادر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٩،
٤١. رحلات ماركو بولو، ترجمة وليم مارسدن، الترجمة العربية عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥، ج١
٤٢. رحلة ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مراجعة درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت ٢٠٠٣،
٤٣. رسلان، عثمان عبد المعز، التربية السياسية عند جماعة الإخوان المسلمين في الفترة ١٩٢٨ – ١٩٥١ في مصر – دراسة تحليلية تقويمية، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة ١٩٩٠.
٤٤. رولان بارت، درس السيمولوجيا، ترجمة ع.بنعبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء ١٩٩٣،
٤٥. زيد الحافظ، استيعاب العمل في القطاع الصناعي، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨١،

٤٦. سعد الدين إبراهيم، اتجاهات الرأي العام الغربي نحو مسألة الوحدة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٠،
٤٧. سعيد، إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ٢٠٠٣.
٤٨. سعيد بنكراد، مدخل الى السينمائيات السردية، تانسيفت، مراكش ١٩٩٤،
٤٩. سمير أمين، التطور اللامتكافئ – دراسة في التشكيلات الاجتماعية للرأسمالية المحيطية، ترجمة برهان غليون، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٦،
٥٠. سمير محمد حسين، تحليل المضمون، عالم الكتب، القاهرة ١٩٨٣،
٥١. السويدي، عبد الرحمن، تاريخ حوادث بغداد والبصرة، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٧.
٥٢. السيد يسين، تحليل مضمون الفكر القومي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٠،
٥٣. ضاهر، مسعود، النهضة العربية والنهضة اليابانية تشابه المقدمات واختلاف النتائج، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٩.
٥٤. عبد العظيم رمضان، تاريخ أوربا والعالم الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧، ج١،
٥٥. عبد الله خليفة، الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية، بيروت، ٢٠٠٥.
٥٦. عبد الله عبد الدايم، الثورة التكنولوجية في التربية العربية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨١، .
٥٧. عبد المنعم سعيد، العرب ومستقبل الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٧، .
٥٨. عطا بكري، الديمقراطية في التكوين، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٥٢،
٥٩. الغذامي، عبد الله، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠١
٦٠. فالح عبد الجبار، الديمقراطية المستحيلة والديمقراطية الممكنة، دار المدى، بيروت ١٩٩٨،

٦١. فالح عبد الجبار، العمود الفقري، مجلة الدوحة، ع ٣٧، نوفمبر ٢٠١٠، ص ٩٧.
٦٢. فرنسيس وود، ماركو بولو هل وصل إلى الصين، ترجمة فاضل جتكر، قدمس للنشر، دمشق ١٩٩٩،
٦٣. فؤاد مرسي، الرأسمالية تجدد نفسها، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٠، .
٦٤. فوكو ياما، فرانسيس، نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة، القاهرة ١٩٩٣.
٦٥. فيبر، ماكس، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ترجمة أبو بكر با قادر وأكرم طاشكندي، مكتبة مصباح، جدة ١٩٨٩.
٦٦. كلود دالماس، تاريخ الحضارة الأوربية، ترجمة توفيق وهبة، منشورات عويدات، بيروت لا تاريخ،
٦٧. كمال الحاج، الإعلام النامي، مطبوعات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٨
٦٨. كورنيليوس كاستورياديس، تأسيس المجتمع تخيليا، ترجمة ماهر الشريف، دار المدى، دمشق ٢٠٠٣،
٦٩. كوش، دنيس، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ٢٠٠٧،
٧٠. لونيس، إبراهيم، الصراع السياسي داخل جبهة التحرير الوطني خلال الثورة التحريرية ١٩٥٤-١٩٦٢، دار هومة، الجزائر ٢٠٠٧،
٧١. ماتلار، تاريخ نظريات الاتصال، ترجمة نصر الدين العياضي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ٢٠٠٥،
٧٢. ماكس فيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ترجمة أبو بكر باقادر وأكرم طاشكندي، مكتبة مصباح، جدة ١٩٨٩،
٧٣. متولي، محمد، الإخوان المسلمون والعمل السياسي دراسة تاريخية، لا ناشر، القاهرة ١٩٨٩،
٧٤. مجموعة من الكتاب، مدخل الى مناهج النقد الأدبي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٧
٧٥. محسن بوعزيزي، السيميولوجيا الاجتماعية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠١٠،

٧٦. محمد السيد سعيد، الشركات عابرة القومية ومستقبل الظاهرة القومية، عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٦، .

٧٧. محمد جابر الأنصاري، العالم والعرب سنة ٢٠٠٠، دار الآداب، بيروت ١٩٨٨، .

٧٨. محمد رشيد الفيل، هجرة الكفاءات العلمية العربية ودور مجلس التعاون في الإفادة منها – حوليات كلية الاداب، جامعة الكويت ١٩٨٨

٧٩. محمد عبد الهادي دكلة، الأمن الغذائي العربي والتنمية الزراعية، اتحاد مجلس البحث العلمي، بغداد ١٩٨٦، .

٨٠. محمد نادر السيد، لغة الخطاب الإعلامي، دار الفكر العربي، القاهرة ٢٠٠٧

٨١. محمد نظيف، ماهي السيميولوجيا، افريقيا الشرق، الدار البيضاء ١٩٩٤،

٨٢. محمود إسماعيل، دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي، لا ناشر، الدار البيضاء ١٩٧٩.

٨٣. محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، دار الانتشار العربي، بيروت ٢٠٠٠، ج ٢، .

٨٤. محمود عبد الفضيل، التشكيلات والتكوينات الطبقية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت١٩٩٧،

٨٥. محمود قاسم، المنطق الحديث ومناهج البحث، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧،

٨٦. المظفر، المظفر، ثورة العراق التحررية عام ١٩٢٠، مطبعة الآداب، النجف ١٩٧٢.

٨٧. موريس غورنيه، العالم الثالث ثلاثة أرباع البشرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٢، .

٨٨. ميدوز واخرون، حدود النمو، ترجمة سعد الاربل، الدار الجماهيرية، مصراتة ١٩٨٦، ص.

٨٩. ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٥،

٩٠. ميشيل فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، ترجمة الزواوي بغوره، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٧،

٩١. نادية سالم، إشكاليات استخدام تحليل المضمون في العلوم الاجتماعية، مجلة العلوم الاجتماعية، الكويت ١٩٨٣،

٩٢. نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠١

٩٣. نللي حنا، ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية، ترجمة رؤوف عباس، لا ناشر، القاهرة ٢٠٠٥،

٩٤. نورمان فاركلوف، تحليل الخطاب، ترجمة طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ٢٠٠٩،
٩٥. نيكلاس لومان، مدخل إلى نظرية الأنساق، ترجمة يوسف حجازي، دار الجمل، كولونيا ٢٠١٠،
٩٦. هادي نعمان الهيتي، صحافة الأطفال في العراق، دار الرشيد، بغداد ١٩٧٩،
٩٧. هاملتون جب وهارولد بوين، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة عبد المجيد القيسي، دار المدى، دمشق ١٩٩٧،
٩٨. هربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت ١٩٨٨، .
٩٩. هنتنغتون، صموئيل، صراع الحضارات وإعادة بناء النظام الدولي، ترجمة عباس هلال، دار الأمل، الأردن ٢٠٠٦.
١٠٠. هنري لورنس، المملكة المستحيلة، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٧، .
١٠١. ياب، مالكولم، نشوء الشرق الأدنى الحديث، ترجمة خالد الجبيلي، الأهالي للنشر، دمشق ١٩٩٨،
١٠٢. الياس توما، التطورات الاقتصادية والسياسية في الوطن العربي، ترجمة عبد الوهاب الأمين، دار السلاسل، لامكان ١٩٨٧
١٠٣. يورغن هابرماس، العلم والتقنية كـ أيديولوجيا، ترجمة حسن صقر، دار الجمل، كولونيا ٢٠٠٣،

هذا الكتاب

الإنترنت والثقافة: كتاب يعالج مسألة المثقف العربي وهو يعيش أحوال وتفاصيل الثورة المعرفية والرقمية والفضاء الإلكتروني Cyberspace التي يشهدها العالم الراهن، حيث الطوفان المعلوماتي الذي راح يشيع بحجمه بصر المتعاطي معه، معلومات تتقاطر وسيل من المعرفة المتلاطمة، تلك التي راحت تطغى على الواقع حتى أحدثت واقعاً من التداخل والاشتباك في المعاني والدلالات، فيما تبقى الرغبة متعلقة في الوقوف الدقيق على الظرف التاريخي والسياسي، ويبقى السؤال حاضراً حول المثقف العربي وهو يعيش أحوال السيل العرم من المعلومات، تلك التي تأتيه من كل صوب وحدب، فيما Google وسواه من البرمجيات ومحركات البحث والمواقع يحضرون بوصفهم أسياداً للعالم، حتى انحسرت فيه وتصدرت الواقع مفاهيم ومقولات لم يكن يحلم بها سابقاً. هائل من التحولات والتغيرات لا تعرف الهدوء أو السكينة، في أن مرجل الحركة بات يشير إلى اتساع مجال الهجرة بين الأمم والشعوب، على الرغم من الانحسار الذي يشهده عنصر الزمان والمكان، حتى بات العالم طبقاً يردد عبارة ماكلوهان الشهيرة (العالم وقد أضحى قرية كونية).

تظل هذه الصورة المثيرة والفاتنة والمشبعة بالكثير من البريق واللمعان، تكمن خلف الأكمة المزيد من التفاصيل المرتبطة بالمشكلة، لا سيما مع بروز السؤال الملح؟ من: ماذا لو انقطع بث شبكة الإنترنت؟ ليحيلنا هذا السؤال إلى سؤال أكثر إلحاحاً واتساعاً، حول: من يتحكم بإدارة هذه الشبكة؟ والذي بدوره يقودنا إلى أن زيادة المعرفة تقود إلى زيادة السيطرة والهيمنة.



بيت الحكمة
مؤسسة فكرية علمية ثقافية مستقلة
جمهورية العراق – بغداد – باب المعظم
ص.ب: [illegible] – هاتف [illegible]
e-mail: info@beytalhikma.iq



